

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة

مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه العلوم

التخصص: المعجمية وقضايا الدلالة

إعداد الطالبة: فضيلة عظيمي

عنوان الأطروحة

التناسب السياقي ومستوياته
في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور

المشرف: د. عيسى بن سديرة

جامعة: محمد لمين دباغين- سطيف 2

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د. النواري سعودي	أستاذ	جامعة سطيف 2	رئيسا
د. عيسى بن سديرة	أستاذ محاضر أ	جامعة سطيف 2	مشرفا ومقررا
أ.د. محمد بن صالح	أستاذ	جامعة المسيلة	ممتحنا
د. عمر بوبقار	أستاذ محاضر أ	جامعة ورقلة	ممتحنا
أ.د. محمد بواوي	أستاذ	جامعة سطيف 2	ممتحنا
د. أحمد مرغم	أستاذ محاضر أ	جامعة سطيف 2	ممتحنا

العام الجامعي: 2017 – 2018

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم رسله، المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد، فإن الله تبارك وتعالى شاء أن يجعل معجزة نبيه الخاتم كتابا يتلى إلى يوم الدين، أنزله تبصرة وهدى للعالمين، وجعله سببا إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وقد أحكم الله آياته في مبانيها ومعانيها، فكان -وهو الكتاب المسطور- في دقة وإحكام الكون المنظور؛ لا خلل فيه ولا عوج، ولا تفاوت بين أجزائه ولا اختلاف، بل تناسب ولحمة وائتلاف.

وقد لفت نظرنا ونحن نعدّ بحث الماجستير حول المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم أن التناسب هو السمة الأولى لأسلوب القرآن، وأنّ التناسب يشكّل مفهوما مركزيًا ومحورا أساسيا لأجزائه وسوره وآياته، وأنه يستحقّ أن تفرد له دراسة مستقلة، فرغبنا أن يكون هو موضوع هذه الأطروحة.

وقع اختيارنا على تفسير التحرير والتنوير الذي حفل بإشارات لطيفة إلى ظواهر التناسب ضمن السياق، فهذه الإشارات -وإن كانت متفرقة بين ثنايا التفسير- يمكن أن تشكّل منهجا في تناول آيات القرآن وأسلوبه، وهذه الدراسة هي محاولة لجمع تلك الإشارات وتأليفها، وتقسيمها وترتيبها على نحو يستوعب جميع عناصرها.

وهكذا كان عنوان البحث: **التناسب السياقي ومستوياته في تفسير التحرير والتنوير** محمد الطاهر بن عاشور.

واستعملنا مصطلح التناسب بمفهومه الأوسع الذي يشمل الجوانب الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والنصّية في الخطاب القرآني.

ويستمدّ هذا الموضوع أهميته ————— فيما نرى ————— من جهات ثلاث:

أولاً: من أهميّة مادّته، فالقرآن الكريم هو مجال البحث، وعلم البلاغة قد نشأ في جملة العلوم التي نشأت في رحاب تفسيره الذي أمده بمادّة علمية ضخمة، وبلاغة القرآن استطاعت أن تستحوذ على اهتمام المفسرين لكونها مناط التحدي والإعجاز.

ثانياً: من أهميّة موضوع التناسب السياقي وارتباطه الوثيق بقضية الإعجاز البياني للقرآن الكريم، واستيعابه لأدقّ معانيه وأسراره.

ثالثاً: من أهميّة تفسير التحرير والتنوير الذي يعدّ من أهمّ التفاسير في العصر الحديث، فهو جهد متميّز وإضافة جادة في مجال التفسير اللغوي والبلاغي.

ويمكن إجمال دواعي اختيارنا لهذا الموضوع في ما يأتي:

- ميلنا إلى البحث في البلاغة القرآنية واستكشاف جديد أسرار الإعجاز القرآني.
- يقيننا بأن القرآن الكريم مجال رحب وواسع للبحث التطبيقي لمسائل البلاغة وسائر علوم اللغة .
- جدّة الموضوع - وهذا في حدود علمنا وإطلاعنا - حيث لم تقم دراسة علميّة متخصصة تلم شتات الموضوع وتضم مباحثه وفق الطريقة التي عاجلنا بها مسائله ومباحثه.
- اعتقادنا بأن تفسير التحرير والتنوير من أهمّ التفاسير وأوفرها مادة، لا سيما وقد سلك فيه ابن عاشور طريقة متميّزة في بيان أوجه الترابط القرآني وكيفيّة نظمه، وإبراز ظواهر التناسب ووجوهه المختلفة.

وقد رجونا تحقيق طائفة من الأهداف أهمها:

- ترتيب مباحث الإعجاز البياني للقرآن الكريم الموزعة بين ثنايا تفسير التحرير والتنوير من منظور التناسب السياقي.

- إبراز أثر السياق في استنباط أسرار ترتيب ألفاظ القرآن الكريم وسير أغواره واستنباط معانيه.

- الكشف عن أهم خصائص النظم القرآني المعجز من منظور التناسب السياقي.

لقد ظهر علم المناسبات في البداية إشارات متفرقة في كتب العلماء واستمرت العناية به من قبل المفسرين خاصة، ثم أثمرت هذه الإشارات علما قائما بذاته هو (علم المناسبات) الذي ارتبط أساسا بفكرة الإعجاز، وتلقفه الدارسون والباحثون بعناية واهتمام كبيرين.

فلقد تناوله الطبري (ت319هـ) في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن من غير أن يصرح به، وتناوله بالتمثيل والتعديد الخطابي (ت388هـ)، والباقلاني (ت403هـ) في ما كتبه عن إعجاز القرآن الكريم، وتبعهما عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي اشتهر بنظرية النظم، ومن بعده الزمخشري (ت538هـ) في تفسير (الكشاف)، حيث اهتم هؤلاء جميعا بتناسق القرآن وترابطه، وجعلوه سرّا من أسرار إعجازه.

وكان أكثر المفسرين اهتماما بعلم المناسبات في القرآن إيرادا وتطبيقا هو الإمام الكبير فخر الدين الرازي (ت606هـ) في تفسيره (مفاتيح الغيب)، حيث أشار إلى التناسب، مركزا على التناسب بين آياته ومقاطعته.

وأسهم الباحثون والمؤلفون في علوم القرآن في الاهتمام بالموضوع فأفرده بعضهم بالتأليف، ومن هؤلاء أبو جعفر بن الزبير الأندلسي (ت708هـ) في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن)، وقد جعله في مناسبات السور خاصّة.

وألّف فيه البقاعي إبراهيم بن عمر (ت885هـ) كتاب (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، وهو أوّل من كتب تفسيراً خصّه بالتناسب بين السور والآيات، ثمّ جاء الإمام

جلال الدين السيوطي (ت911هـ) وأشاد بهذا العلم، وألّف فيه كتابه (تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور)، وهو في مناسبة السورة للسورة.

وفي العصر الحديث، لقي هذا العلم عناية واهتماما ضمن تفاسير القرآن وكتب علومه وإعجازه، فلا يكاد يخلو واحد منها من التعرض له والإشادة به. من ذلك كتاب (التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي) لأحمد أبي زيد الذي حاول جمع ما تناثر من أطراف موضوع التناسب القرآني الموزعة هنا وهناك، في عدد من فروع الدراسات القرآنية والبلاغية، فاستقرأ بعض أوجهه في النظم القرآني مبينا قيمتها البلاغية؛ بدءا بالتناسب في البنية العامة للسورة، ومرورا بالتناسب في نظم المعاني وصياغة الآية، واختيار الكلمة المفردة والجملة المركبة، وانتهاء بالتناسب اللفظي والصوتي.

ومنها دراسة أحمد بن محمد مذكور الموسومة بـ (المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور من خلال سورة الفاتحة والبقرة آل عمران)، حيث درس المناسبات في سور الفاتحة والبقرة وآل عمران، وبيّن أثرها، وقد قصد المناسبات بين الآية والآية، وبين أجزاء الآية الواحدة، وبين المقطع والمقطع.

أمّا الباحثة منال مبطي حامد المسعودي فقد نُشر لها كتاب في الموضوع، عنوانه (التناسب في تفسير الإمام الرازي، دراسة في أسرار الاقتران)، ركّزت فيه على دراسة التناسب في بناء السورة من خلال التناسب في الفواتيح والخواتيم، والتناسب بين الآيات، والتناسب بين الأغراض ضمن السورة، والتناسب بين السور على مستوى ترتيبها وتشابه مطالعها، وعلى مستوى السياق العام للقرآن.

والملاحظة العامّة على تلك الدراسات حول التناسب أنّها تناولت الموضوع من جانب واحد هو التناسب بين الآيات والتناسب بين السور، ودارت غالبا في فلك المفهوم

التقليدي للمصطلح ومباحثه، وهذا باستثناء دراسة أحمد أبي زيد الذي حاول توسيع المفهوم، ولكنه لم يتناوله وفق تقسيم شامل يضمّ جميع المستويات.

وإذا كان كل موضوع إنما يستمدّ شرعيّته من الرؤية التجديدية التي يقدمها فإن موضوع التناسب السياقي ومستوياته في تفسير التحرير والتنوير هو محاولة لتكوين خطّ واضح ومتكامل لدراسة كلّ مستويات التناسب القرآني؛ الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والتركيبية والنصّية، وهو يحاول بذلك أن يوسّع مفهوم التناسب ليضمّ مختلف مستويات اللغة، وينتظم في تناول مباحثه علوم البلاغة المختلفة؛ علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

ومع ذلك فإننا لا ننكر إفادتنا في هذا البحث من دراسات القدماء والمحدثين في كثير من مناحيه، ولا ندّعي أنّنا قد وقّينا كلّ وجوه بلاغة القرآن وأسرار بيانه وإعجازه.

أمّا من حيث المنهج فقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي، حيث انطلقنا من وصف ظواهر التناسب واستفدنا من إجراء المقابلة بين التراكيب المتشابهة في كثير من الحالات لنحلل أوجه الاختلاف ودواعيه ومقتضياته، لنستخلص بعد ذلك الحقيقة المتصلة بالتناسب ضمن السياق.

وتماشيا مع خطة البحث وموضوعه، جعلناه في مدخل وباين ومقدمة وخاتمة، وحاولنا من خلال فصوله تتبّع مجهود ابن عاشور في إبراز جوانب التناسب السياقي في تفسيره للقرآن الكريم.

فبعد المدخل الذي تضمّن أهمية التناسب في إعجاز القرآن الكريم، جاء الباب الأول من الدراسة (التناسب السياقي في القرآن الكريم) مفصّلا في خمسة فصول.

درس الفصل الأول منها موضوع التناسب الصوتي، فتطرقنا من خلاله إلى الخصائص الصوتية للغة العربية، وإلى صور من هذا التناسب في القرآن عند القدماء والمحدثين.

وتناول الفصل الثاني ظواهر التناسب الصرفي، وفيه عالجنا المتغيرات الصرفية والدلالات الفنية والبلاغية التي تؤدّيها كلّ صيغة في سياقها.

وعالجنا في الفصل الثالث ظواهر التناسب المعجمي، وفيه انصبّ اهتمامنا على بيان سرّ اختيار القرآن الكريم لكلمة بعينها سواء أكانت فعلاً أم اسماً أم حرفاً.

وأما الفصل الرابع فخصصناه للتناسب التركيبي حيث تبرز خصوصية كلّ تركيب في سياقه بالتقديم والتأخير، والحذف والزيادة.

وختمنا فصول الباب النظري بالتناسب النصّي الذي طرّقنا من خلاله ظواهر التناسب بين الآيات وبين السور وأسرار ترتيبها.

وأما الباب الثاني من الدراسة فجعلنا عنوانه: مستويات التناسب السياقي في تفسير التحرير والتنوير، وقد حاولنا فيه أن نتبين تحلّيات التناسب عند الإمام ابن عاشور، فافتتحناه بتعريف موجز بابن عاشور وتفسيره، وقسمناه إلى خمسة فصول، تضمّن الفصل الأول منها التناسب الصوتي، حاولنا فيه تتبّع شواهد التحرير والتنوير وقيمتها التفسيرية وبيان علاقة أصوات الكلمة القرآنية بالسياق الواردة فيه وأوجه التناسب فيما بينهما.

واهتمّ الفصل الثاني بالتناسب الصرفي، حيث أوردنا فيه مختلف النماذج القرآنية التي وقف عندها ابن عاشور وبيّن من خلالها أوجه التناسب بين استعمال اللفظة بصيغة معيّنة في سياق واستعمال الصيغة البديلة لها في سياق آخر، كاختلاف الصيغة الزمنية للفعل، واستعمال الفعل بدل الاسم أو العكس.

وجاء الفصل الثالث (التناسب المعجمي) منصّباً على تبيان مختلف الفروق اللغوية في ما بين الحروف وفي ما بين الألفاظ من خلال النماذج التي أوردها ابن عاشور عند تحليله لبعض الآيات القرآنية.

وتطرقنا في الفصل الرابع (التناسب التركيبي) إلى أهمّ مظاهر هذا التناسب التي توقّف عندها ابن عاشور وأولاهها عناية خاصة، وقد دارت حول التقديم والتأخير والحذف والزيادة، وبيّنا من خلال النماذج التي أوردها في تفسيره وجهة نظر ابن عاشور في بيان المعنى الدقيق الذي يحمله كلّ تركيب استناداً إلى السياق.

وكان آخر فصول البحث (التناسب النصّي) تناولاً لأهمّ المباحث التي أشار إليها ابن عاشور كالتناسب الموضوعي وتناسب السّور وما يتعلّق به، وأوجه الارتباط فيما بينها وكيفية ترتيبها، وعلاقة ذلك كلّ بالسياق.

ثمّ كانت خاتمة البحث وفيها عرضنا خلاصات البحث وأهمّ نتائجه.

إنّ خصوصية الكمال في كتاب الله تعالى ——— ولا شك في ذلك ——— تجعل كلّ محاولة لدراسته قاصرة وعاجزة عن الإحاطة بأسرار وجه واحد من وجوه بلاغة القرآن وبيانه، وإذا كان ذلك كذلك فحسبنا أننا بذلنا ما استطعنا من الجهد الذي نسأل الله جلّ وعلا أن يجعل النية فيه خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفعنا به وجمهور الباحثين والدارسين.

ونحن إذ نحمد الله على ما وفقنا إليه لا ننسى أن نتقدّم بخالص الشكر إلى أستاذنا الفاضل المشرف على البحث الدكتور عيسى بن سديرة على كلّ ما تفضّل به علينا في سبيل تقويم وتوجيه هذا البحث بسعة صدر وجميل صبر، فنسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك فيه ويجازيه جزاء العلماء العاملين، وأن يحفظه ويرعاه إنّه جلّ وعلا وليّ الصالحين.

والحمد لله رب العالمين

العلمة في 29 صفر 1439هـ

الموافق 18 نوفمبر 2017م

مدخل

التناسب

وإعجاز القرآن الكريم

أولاً: مفهوم التناسب السياقي

1 - التناسب في اللغة والاصطلاح

قال ابن فارس: "النون والسين والباء كلمة واحدة مقياسها اتصال شيء بشيء".¹ وقال ابن منظور: "النسبة والنسبة والنسب: القرابة، وناسبه أي شاركه في نسبه، والنسب: المتناسب، وفلان يناسب فلانا فهو نسيبه، أي قريبه، ليس بينهما نسب: أي مشكلة".² و"بين الشيئين مناسبة وتناسب، أي مشكلة وتشاكل".³ من خلال ما سبق يتضح لنا أن التناسب والمناسبة يدلان بالأصل على مطلق الصلة بين شيئين، ولكن هذه الصلة بينهما تضيف عليهما لونا من الترابط والمشكلة، ومن هنا فإن معنى التناسب تطوّر فيما يبدو ليدلّ على معنى التشاكل والتماثل والتشابه والتوافق بين الطرفين المتناسبين، وإن كان التناسب لا يقتضي التشابه بين الشيئين بالضرورة بل الأهم هو وجود الرابطة والصلة بينهما.

وقد عُني البلاغيون والنقاد وعلماء القرآن بالتناسب، وكانت لهم فيه آراء وجهود متميزة، ومن أقوالهم التي تطالعنا في هذا المجال حديث بشر بن المعتمر عن التناسب بين الألفاظ والمعاني حيث قال: "ومن أراد معنى كريما فليتلّمس له لفظا كريما، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف".⁴

¹ ابن فارس أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1422 هـ/ 2001م، مادة (نسب)

² ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (دت)، مادة نسب
³ الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ط1، الكويت، 1419هـ/1998م، مادة (نسب)

⁴ ينظر: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: درويش الجندي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1423هـ/2005م، 91/1

وأشار الجاحظ إلى هذه الفكرة في مواضع مختلفة من كتابه البيان والتبيين، فذهب إلى أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني وأن اللفظ متى شاكل معناه وأعرب عن فحواه في غير تكلف أو استكراه، وقع من نفس المستمع موقع الحسن والانتفاع.⁵ وورد مفهوم التناسب عند قدامة ضمن ما سَمَّاهُ (ائتلاف اللفظ والمعنى)، وذكر له أسماء أخرى منها المساواة، والإرداف، والتمثيل، والمطابق، والمجانس.⁶

وأشار بعضهم إلى مفهوم التناسب ضمن مصطلح التشابه فقال: "التشابه أن تكون الألفاظ غير متباينة، ولكن متقاربة في الجزالة والمتانة والدقة والسلاسة، وتكون المعاني مناسبة لألفاظها من غير أن يكسى اللفظ الشريف المعنى السخيف أو على الضد، بل يصاغان معا صياغة تتناسب وتتلاءم."⁷

ومن مظاهر اهتمام البلاغيين والنقاد بقضية التناسب عنايتهم بتناسب الأبيات والأشطار والارتباط بينها، وأنه مما ينبغي للشاعر العناية به، قال ابن طباطبا: "وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما ابتداء وصفه أو بين تمامه فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه، كما أنه يحترز من ذلك في كل بيت، فلا يباعد كلمة عن أختها، ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها، ويتفقد كل مصراع، هل يشاكل ما قبله؟ فرما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا ينتبه على ذلك إلا من دقّ نظره ولطف فهمه..."⁸

⁵ المرجع نفسه، 96/1

⁶ ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ط1، 1302هـ، ص55-61

⁷ ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر، كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة الهلال، بيروت، (د ت)، ص128

⁸ ابن طباطبا العلوي محمد أحمد، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت،

1426هـ / 2005م، ص129

ويمكن أن نستنتج أن تناسب الألفاظ والمعاني هو من أهم الأبواب التي درس النقاد ضمنها ظواهر التناسب، وقد توزعت مباحث هذه المسألة عندهم على ثلاثة محاور هي تناسب الألفاظ مع الألفاظ، وتناسب المعاني مع المعاني، وتناسب الألفاظ مع المعاني.

أما علماء القرآن فقد اهتموا بموضوع التناسب من خلال دراساتهم حول القرآن، وظهر اهتمامهم به فيما عُرف عندهم بـ (علم المناسبة)؛ وقد كان اعتقادهم بتوقيفية ترتيب الآيات والسور القرآنية هو ما دفعهم للبحث عن وجوه التناسب بينها.

وموضوع هذا العلم فيما أورده البقاعي (885هـ) هو "تعرف علل الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء، بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال".⁹

وقال السيوطي في تعريف المناسبة: "المناسبة في اللغة: المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عامّ أو خاصّ، عقلي أو حسّي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبّب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدّين ونحوه".¹⁰

ويرى الزركشي (794هـ) أنّ فائدة هذا العلم هي "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلاحم الأجزاء".¹¹

⁹ البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (دت)، 5/1، 6

¹⁰ السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1425هـ/ 2004م، 2/ 695

¹¹ الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل، بيروت، 1408هـ/ 1988م، 36/1

فالمناسبة -إذن- هي ذلك الترابط الواقع بين الآيات والسور المفضي إلى القول بأن القرآن الكريم كلّ نص واحد، كلّ آية منه تحيل على الأخرى، وكلّ سورة تحيل على ما يليها، وذلك من أوله إلى آخره، ومن هنا فإن البحث في العلاقات المنطقية المختلفة بين السور والآيات هو أساس علم المناسبة.

ونلاحظ أن مفهوم التناسب -كما هو متناول لدى علماء القرآن- كان محصوراً في وجه واحد هو مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها، ومناسبة الآيات للسور التي وقعت فيها، وتناسب أجزاء كل سورة في ذاتها، ومناسبة السورة لغيرها من السور التي تسبقها أو تعقبها.

ولكنّ مفهوم التناسب في الحقيقة أشمل وأوسع من أن يحصر في تناسب الآيات والسور، والبحث عن أوجه توافقها أو تشاكلها، لأنه يمتدّ فينتظم جميع أبعاد النصّ ومكوّناته وعلاقاته الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والنصّية، وهذا هو المفهوم الذي نتناول به التناسب في بحثنا هذا.

2 - السياق في اللغة والاصطلاح

قال ابن فارس: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقاً، والسيّقة ما استيق من الدّواب، ويقال: سقت إلى امرأتى صداقها وأسقتة، والسّوق مشتقة لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سُوق، إنما سمّيت بذلك لأن الماشي ينساق عليها."¹²

وقال الجوهري: "يقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية."¹³

¹² ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (سوق)

¹³ الجوهري اسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تح: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين،

ط3، بيروت، 1404هـ / 1984م، مادة (سوق)

وذكر التهانوي أن السياق في اللغة يأتي بمعنى الإرادة.¹⁴

وفي اللسان: "ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق سواق، شدّد للمبالغة... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا: إذا تتابعت، وكذلك تقاودت، فهي متقاودة ومتساوقة... وفي حديث أمّ معبد: فجاء زوجها يسوق أعترّا ما تسّاق: أي ما تتّابع، والمساوقة المتابعة، كأنّ بعضها يسوق بعضا."¹⁵

ومن المجاز: "هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك الحديث، وهذا الحديث مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سرده.. وسياق الكلام تتابعه وتواليه وأسلوبه الذي يجري عليه."¹⁶

وحاصل المعاني اللغوية السابقة أن السياق يدلّ على التتابع والتوالي، ويطلق على ما تتابع من الأشياء والدّواب وغيرها ممّا يملك تلك الصفة، ويتّفق هذا المعنى اللغوي مع المعنى المجازي للسياق، فإذا أطلق على الكلام دلّ على تتابع ألفاظه وتواليها.

وقد اكتسب السياق في المدارس اللغوية الحديثة أهمية بالغة، حتى إن بعض هذه المدارس قامت على أساسه كما هي الحال في المدرسة اللغوية الإنجليزية بزعماء فيرث.

ويعرّف السياق لدى علماء اللغة المحدثين بأنه العناصر اللغوية التي تسبق أو تلحق الكلمة أو العبارة ضمن الخطاب، حيث يتعلّق معنى هذه الكلمة أو العبارة بتلك العناصر السابقة أو اللاحقة.¹⁷

¹⁴ التهانوي محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون،

ط1، بيروت، 1996م، مادة (سوق)

¹⁵ ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوق)

¹⁶ الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، (د

ت) مادة (سوق)، ص 225 وما بعدها

¹⁷ Philippe Amiel dictionnaire du français USBN Paris 1995 , p236

لكنّ مفهوم السياق لا يقف عند حدود العناصر اللغوية الخالصة، بل يمتدّ ليشمل العوامل الخارجية المتّصلة بالخطاب، وقد أدرجها علماء اللغة ضمن ما سمّوه (سياق الحال)، ويعرّف بأنه مجموعة الظروف الاجتماعية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي... ويسمّى أحيانا بالسياق الاجتماعي للاستعمال اللغوي.¹⁸

ويتبيّن لنا مما سبق أن السياق هو مجموع العناصر اللغوية والمعطيات غير اللغوية التي تتّصل بالعبارة أو بالنص ويتعلّق بها المعنى.

3 - التناسب السياقي

إن المتأمّل في مفهومي التناسب والسياق اللغويين ليلحظ أن بينهما نوعا من التشاكل والتقارب والتجانس؛ فإذا كان التناسب قائما على مطلق الصلة بين الأشياء المتناسبة، فإن تتابع هذه المتناسبات هو نتيجة ومحصّلة لهذا الاتصال والترابط. وهو في الوقت ذاته علامة دالة تحفّز الدارس إلى البحث عن الأسباب الظاهرة والأسرار اللطيفة بين تلك المتتابعات والمتقارنات.

ولمّا كان سياق الكلام يدلّ على تتابع الألفاظ وتواليها ضمن أسلوب معيّن، فهذا يعني أن ألفاظه مرتبطة فيما بينها، ومتّصلة يطلب بعضها بعضا في تتابع وتوارد. وعلى ما تقدّم يمكن تعريف التناسب السياقي في بأنه انسجام الألفاظ والتراكيب الواردة ضمن سياق معيّن، وموافقتها لذلك السياق وما يتّصل به من مقاصد وأغراض، بوجه من أوجه التناسب الصوتي أو الصرفي أو المعجمي أو التركيبي أو النصّي.

¹⁸ Jean Dubois et autres , dictionnaire de linguistique , p120 ،

ثانيا: التناسب مبدأ جمالي

خلق الله الكون في جمال ينطق بعظمته وقدرته وحكمته سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: 7].

وجعل الله عز وجل الحسن والجمال قاعدة مطّردة في نظام الخلق. والكون من كبريات الشواهد على ذلك، ويمكن للإنسان - مهما كان مستوى ثقافته - أن يدرك تلك القاعدة ويلمح ذلك الجمال.

والقرآن الكريم حافل بآيات كثيرة تشير إلى عظمة الله تعالى في الخلق وإحكام نظام الكون، من ذلك ما جاء في بدايات سورة الملك، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 1-6].

ويقول تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: 1-7].

ويقول عز وجل في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: 16-18].

وفي سورة يس: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 37-40].

ومن ذلك آيات أخرى كثيرة تشير إلى ذلك التناسق الجمالي الذي أبدعه الله تعالى، وإلى ذلك الحساب الدقيق في كل ما خلق، فالسمااء بما حوت، والأرض بما طوت، كلّها

عوالم يأخذ الجمال فيها حظا كاملا غير منقوص ينساب إلى النفس من خلال الحواس، وإذا كانت العين المجردة ترى جزءا يسيرا من هذا الجمال فإن عين المجهر في لغة العلم تطلعنا على أدق تفاصيله، وعلى مدى التناسق والتناسب الذي تقوم عليه عناصره، وعلى مدى الإتقان الذي يتجلى فيه، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88]، إنه التناسق والتناسب الذي لا خلل فيه ولا تناقض ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: 3].

وفي ذكر الزينة بعد نفي الخلل عن السماء إشارة إلى ما للتناسب والتناسق والانسجام من قيمة في الجمال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5].

ولقد أدرك المشتغلون بمسائل الجمال هذه القيمة، وأشاروا في نظرياتهم إلى "أن الأشياء والموجودات عموما جميلة حسب تناسق الأعداد وتدرجها".¹⁹

وذهب أفلاطون إلى أن الجمال "يوجد في النظام والتناسب، وفي كل ما يخضع للعدد والقياس".²⁰ كما أنه كامن في التماثلات والتناسبات وارتباط الأجزاء بعضها ببعض.²¹ ويبدو أن هذه الفكرة في تفسير الجمال قد امتدت إلى أرسطو فيما بعد، فهو يرى أنه "لا يمكن لكائن أو شيء مؤلف من أجزاء عدة أن يكون جميلا إلا بقدر ما تكون أجزاؤه منسقة وفقا لنظام ما، ومتمتعة بحجم لا اعتباطي، لأن الجمال لا يستقيم إلا بالنسق والمقدار".²²

¹⁹ محسن محمد عطية، غاية الفن، دار المعارف، مصر، 1991، ص 49

²⁰ أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال وأعلامها ومذاهبها، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003، ص 26

²¹ محسن محمد عطية، غاية الفن، ص 30

²² دني هويسمان، علم الجمال، تر: ظافر الحسن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ت)، ص 41

وهكذا نرى اتفاق الآراء السابقة في أن الجمال أساسه التناسق والتناسب والانسجام بين الموجودات، فهذه الصفات هي التي تمنح الأشياء جمالها.

وهذه الفكرة التي تعزو الجمال إلى التناسب نجدها أظهر ما تكون في مجال الفنون، وقد اتخذ الجسم البشري أنموذجا للتناسب، و"كان الفن يقدر على أساس التناسب في النحت والعمارة، والوحدة في الموسيقى... ووضعت في تاريخ العمارة قوانين للتناسب، تحدّد بدقة رياضية النسب الصحيحة بين مختلف الأجزاء في تشريح الجسم البشري... ولا بدّ أن تتجسّد هذه السمات في الشكل المنحوت لكي يكون جميلا،"²³ ذلك أنّ القائلين بمبدأ التناسب والتناسق في الجمال ذهبوا إلى أن جسد الإنسان هو النموذج الأمثل للنسب الصحيحة.²⁴

وكما أن النحت والعمارة قدّرا على أساس من التناسب والانسجام بين عناصر كل منهما، فإن الموسيقى كذلك تقوم على هذا الأساس، بل هي أنموذج آخر تتجلّى فيه سمة التناسب واضحة من خلال الإيقاع المنتظم الذي لا تخطئه الأذن، فمثلا "لو ضرب طفل على البيانو عددا من الضربات بلا تنظيم أو ترتيب بينها فلن يدرك أحد بين هذه الضربات أي علاقة، أما لو نظمت تنظيما معيّنا بحيث استخرج منها إيقاع أو نغم، فعندئذ تكتسب هذه الضربات صورة فنية."²⁵

وهذا الإيقاع ناتج عن تضافر عدّة قوانين جعلها أحد الباحثين سبعة هي: النظام، والتغير، والتساوي، والتوازي، والتلازم، والتكرار.²⁶

²³ جيروم ستوليتز، النّقد الفنّي، تر: فؤاد زكرياء، المؤسسة العربية للدراسات، ط2، بيروت، 1981م، ص604

²⁴ ينظر: نايف بلوز، علم الجمال، ص52

²⁵ أميرة حلمي مطر، مقدمة في علم الجمال، ص39

²⁶ ينظر: عز الدين إسماعيل، الأسس الجماليّة في النّقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1412هـ/1992م، ص101، 102

وليست الموسيقى هي الفن الوحيد الذي يتجلى فيه هذا الإيقاع بظواهره السالفة، بل إن فنونا أخرى كالرسم والنحت والرقص والشعر وغيرها تقوم على نظام من العلاقات؛ كالتوازي أو التوازن أو التكرار أو التناسب والانسجام.²⁷ بل إننا لا نبعد إذا قلنا إن جوهر الفنون على اختلافها هو مقدرة على إحداث تناسب بديع بين الأجزاء والمكونات ضمن كل فنّ بحسب طبيعته ومادته.

ونخلص مما سبق إلى أن مبدأ التناسب له قيمة كبرى في الوجود وفي تفسير جمال الكون، وجمال الأشياء، وأن الفنون على اختلافها تقوم على أساس من هذا المبدأ.

ثالثا: التناسب عند النقاد والبلاغيين

ذكرنا في ما سبق أن التناسب أساس جميع الفنون، فضلا عن أنه مبدأ يقوم عليه الكون.

ومن بين أهمّ الفنون التي تقوم على التناسب، فنّ القول والبيان، ولقد عرف النقاد والبلاغيون قيمة مبدأ التناسب في حسن البيان، فجعلوه من شروط فصاحة الكلام وقواعد بلاغته، و"تصادفنا فكرة التناسب عند استعراض آراء رواد علم البيان كبشر بن المعتمر والجاحظ وقدامة بن جعفر، غير أن هؤلاء لم يستعملوا مصطلح التناسب، لكنهم استعملوا مصطلحات أخرى مقارنة له كالموازنة والمشاكلة والتلاؤم والتوافق والتشابه والاتئلاف".²⁸

²⁷ ينظر: ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي، دار القلم العربي، ط1، حلب،

1418هـ/1997م، ص17

²⁸ أبو زيد أحمد، التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة،

الدار البيضاء، 1992، ص18

ومن المصطلحات المتعلقة بالتناسب لدى النقاد والبلاغيين: الاتساق، والاتساق، والتجانس، والتعادل، والتنسيق، وصحة المقابلة، والتوازن، والمساواة، والمطابقة، والمماثلة.²⁹

وتظهر فكرة التناسب لدى النقاد في معرض ما كانوا يوجهونه من تعقيبات وملاحظات نقدية على بعض نصوص الأدباء والشعراء التي كانوا يرون بها إخلالا بمقتضيات التناسب بوجه من الوجوه.

من ذلك ما عيب على المتنبي في قوله:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوْ أَقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَفَنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً
وَوَجَّحَ هُكَّ وَضَّاحٍ وَتَغَرَّكَ بِاسِمٍ

حيث قال له سيف الدولة: قد نقدنا عليك يا أبا الطيب ما نقدناه على امرئ القيس في قوله:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبَأِ الزَّقَّ الرَّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِحَيْلِي كُـرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْـفَالٍ
فقال له المتنبي: يا أيها الأمير، إن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك، وإذا صحَّ النقد على امرئ القيس صحَّ عليّ، وإنما أراد امرؤ القيس أن يقرن ركوب اللذة بركوب اللذة في بيت، وأن يجمع بين الشجاعة والكرم في بيت، فاستحسن سيف الدولة ما قاله ووصله.³⁰

²⁹ ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2000،

ص 686

³⁰ القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية،

تونس، 1966م، ص 159، 160

فقد رأى سيف الدولة أن صدر البيت الأول من قولِي المتنبي وامرئ القيس يقتضي أن يوصل بعجز البيت الثاني، ويوصل صدر البيت الثاني بعجز الأول. ولكن المتنبي دفع هذا النقد اعتمادا على وجه آخر من وجوه التناسب هو الجمع في البيت الواحد بين ما يندرج ضمن الغرض الواحد.

ولقد كان التناسب مقياسا لحسن الشعر وجمال البيان عند النقاد والبلاغيين، تعلق مرتبة هذا الشعر والبيان بوجوده، وتبسط في سلم الجمال بافتقاده، يقول الجاحظ: "إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر، لا يقع بعضها ممثالا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة".³¹

وتحدث قدامة بن جعفر عن الائتلاف في الشعر، فذكر من أنواعه:

— ائتلاف اللفظ مع المعنى

— ائتلاف اللفظ والوزن

— ائتلاف المعنى والوزن

— وائتلاف القافية مع ما يدلّ عليه سائر البيت.³²

ولعلّ عبارة (لكلّ مقام مقال) تلخّص تصوّر البلاغيّين للتناسب الذي يمكن تقسيمه قسمين، تناسبا مقاميا، وتناسبا لفظيا أو مقاليا.

رابعا: التناسب المقامي والتناسب اللفظي:

1 - التناسب المقامي: ونقصد به مراعاة عناصر المقام الخارجة عن النص، ومن ذلك معرفة حال المخاطب وغرض الخطاب حتى يحصل التلاؤم بينها وبين الخطاب، يقول الجاحظ: "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما،

³¹ الجاحظ، البيان والتبيين، 7/2

³² قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص55، 61، 62

ولكلّ حالة من ذلك مقاما، حتى يقسّم الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.³³

ولا يقوم الحسن في الكلام إلا إذا ناسب مقتضى الحال الذي يرد فيه، وهو ما يشير إليه السكاكي بقوله: "إنّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه".³⁴ ذلك أن أغراض الكلام تختلف، "فمقام التشكّر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذمّ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ في ذلك يباين مقام الهزل".³⁵

ولا شكّ أن بنية الكلام تختلف باختلاف المقام تنكيّرا وتعريفا، وفصلا ووصلا، وتقديما وتأخيرا، وذكرًا وحذفًا، "فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة".³⁶ والأديب الناجح هو من اهتدى إلى التوفيق بين كلامه وبين هذه المقامات.

وكما يختلف الكلام تبعا لاختلاف أغراضه وبنيته، يختلف كذلك بحسب أحوال المخاطبين، يقول السكاكي: "مقام الكلام ابتداءً يغيّر مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يباين مقام البناء على الإنكار... وكذا مقام الكلام مع الذكي يغيّر مقام الكلام مع الغبي، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر".³⁷

³³ الجاحظ، البيان والتبيين، 92/1

³⁴ السكاكي أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1420هـ/2000م، ص 84

³⁵ المرجع نفسه، ص168

³⁶ القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: علي بو ملحّم، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأخيرة، بيروت، 2000، ص32، 33

³⁷ السكاكي، مفتاح العلوم، ص168

وهكذا فإن غرض الكلام وموقف الخطاب وحال المخاطب هي من العناصر الأساسية التي ينبغي تحقيق المناسبة بينها، كما تدلّ على ذلك نصوص النقاد والبلاغيين.

2 - التناسب اللفظي:

ونقصد به التناسب بين أجزاء الخطاب، والتوافق بين مقاطع الكلام، وهو من أهم المقاييس الفنيّة عند النقاد والبلاغيين، يقول ابن الأثير: "إذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت في النفس موقع الاستحسان".³⁸

ويتجلّى هذا التناسب اللفظي في مظاهر متنوعة أهمّها:

- النظر إلى فصاحة الكلمة من جهة ملاءمتها لسياقها.
- حسن الانتقال من معنى إلى معنى، ومن غرض إلى غرض.
- ما يتضمّنه النص من أنواع التكرار وألوان البديع التي تشترك في تحقيق أنواع من التناسب والتماسك بين أجزاء الخطاب.

فأمّا النظر إلى فصاحة الكلمة من جهة ملاءمتها لسياقها فهو أحد أسس نظرية النظم التي وضع قواعدها عبد القاهر الجرجاني، وفيها يذهب إلى أن الكلمة لا يمكن الحكم على فصاحتها خارج سياقها الذي ترد فيه، "فإنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر".³⁹

ولو لم يكن السياق هو المرجع في الحكم على فصاحة الكلمة أو عدمها، وكان الأمر يتعلّق بالكلمة منفردة ومجرّدة عن سياقها لثبت لها الحسن أو القبح في ذاتها مهما اختلفت بها الأحوال والتراكيب، وهو فحوى قول الجرجاني: "لو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقّت المزيّة والشرف استحقّت ذلك في حدّ ذاتها وعلى

³⁸ ابن الأثير ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: كامل محمد

محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ، 1998م، 1/ 269

³⁹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة، القاهرة، (دت)،

انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حالاً لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال، ولكانت إما أن تحسنَ أبداً، أو لا تحسنَ أبداً.⁴⁰

ولا شكّ أن ما قيل عن الكلمة يقال عن غيرها من الصيغ والحروف والتراكيب، مما سنفصل القول فيه في الفصول الآتية.

وأما حسن الانتقال من معنى إلى معنى ومن غرض إلى غرض فالمقصود به أن يكون التأليف بين أجزاء الكلام على وجه تتصل فيه المعاني بعضها ببعض دون ما إخلال أو انقطاع، والمراد بذلك "أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأوّل سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفرافاً".⁴¹

وبذلك تلتقي أغراض الكلام المتباينة التقاء مؤتلفاً لا تنفر منه النفوس والمسامع، لأن النفوس "إذا كانت متدرّجة من فن من الكلام إلى فنّ مشابه له، ومتمنّقة من معنى إلى معنى مناسب له، ثم انتقل بها من فنّ إلى فنّ مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما، وجدت في طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه".⁴²

ويزخر التراث النقدي بالأمثلة التي تناولها النقاد ضمن ما عرف عندهم بحسن الخروج أو التخلص، فقد جاء في كتاب الموشح للمرزباني أنّ عمر بن لجأ قال لأبن عمّ له: "أنا أشعر منك، قال له: وكيف؟، قال: إني أقول البيت وأخاه وتقول البيت وابن عمّه"⁴³، وفي هذا إشارة من عمر بن لجأ إلى ائتلاف معاني شعره وانسجامها بخلاف ابن عمّه.

⁴⁰ المرجع نفسه، ص 81

⁴¹ ابن الأثير، المثل السائر، 2/ 228

⁴² القرطاجني، منهاج البلغاء، ص 319

⁴³ المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح: محمد

حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1415هـ / 1995م، ص 404

لأدركت مدى صعوبة الانتقال بطريقة طبيعية يسيرة بين الأجزاء الرئيسة للعمل، وعندئذ يمكنك أن تكون أعظم تقديرا لتلك البراعة والسهولة التي يتحقق بها مثل هذا الانتقال في الأعمال الفنية الجيدة.⁴⁷

وبهذا يتضح أن حسن الانتقال يسهم بشكل أساسي في تحقيق التناسب بين المعاني المختلفة والأغراض المتباينة التي يتألف منها العمل الفني عموما، وفن القول خصوصا.

خامسا: التناسب وإعجاز القرآن

إذا كان النقاد والبلاغيون قد جعلوا التناسب مقياسا من مقاييس النقد وحسن البيان، فإن علماء الإعجاز أجمعوا على أن التناسب هو أساس إعجاز القرآن، ومع تنوع اهتمامهم به، لم يخرج هذا الاهتمام عن دائرة ملاحظة التناسب بين الألفاظ والتراكيب والمعاني والمقامات التي ترد فيها.

ويعد عبد القاهر الجرجاني أبرز من رسّخ هذه الفكرة في نظريته حول النظم في كتابه (دلائل الإعجاز)، حين تحدّث عن أن التناسب والتلاؤم والانسجام من أخص ما يتطلبه النظم، يقول في معرض وصفه لمن تُحدو بالقرآن "إنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم -ولو حكّ بيافوخه السماء- موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخلدت القروم، فلم تملك أن تصول"⁴⁸، فالتنافر والاضطراب والتفاوت والاختلاف منفي عن القرآن الذي أحكمت آياته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

⁴⁷ ستولنتر، النقد الفني، ص 364

⁴⁸ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 75

كثيراً ﴿[النساء:82]﴾، فهذا يعني أنه لما كان من عند الله تعالى وجدوا فيه تناسبا وانسجاما وتناسقا والتثاما أعجز عقولهم وألسنتهم، فلم يجدوا إلى الطعن فيه من هذه الجهة سبيلا. وقد أشار الرازي إلى هذا في حديثه عن أطراف البلاغة العائدة إلى النظم والتركيب، فذكر منها أن: "الطرف الأعلى هو أن يقع ذلك التركيب بحيث يمتنع أن يوجد ما هو أشد تناسبا واعتدالا في إفادة ذلك المعنى منه."⁴⁹ ولا شك أن المقصود من قوله: (الطرف الأعلى) هو الإعجاز، وهو أن يبلغ التناسب والاعتدال في نظم الألفاظ وتركيبها الغاية القصوى التي لا يمكن أن يزداد عليها.

ومن أمثلة هذا التناسب والاعتدال في النظم القرآني، تناسب الألفاظ المقترنة في الذكر ضمن سياق واحد كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:17-20]

فقد عرض السكاكي لسبب الجمع بين الألفاظ (الإبل، والسماء، والجبال، والأرض) فذكر أن المتأمل قد يستغربه "لبعد البعير عن جنبه في مقام النظر، ثم لبعده في خياله عن السماء، وبعد خلقه عن رفعها، وكذا البواقي"⁵⁰، ولكن المتأمل إذا نظر إلى "أن أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربهم من المواشي، كانت عنايتهم مصروفة - لا محالة - إلى أكثرها نفعا، ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصّل إلا بأن ترعى وتشرب، كان جلّ مرمى غرضهم نزول المطر، وأهم مسارح النظر عندهم السماء، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم، وإلى حصن يتحصّنون فيه، فلا مأوى إلا الجبال."⁵¹

⁴⁹ الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: نصر الله حاجي مفطي

أوغلي، دار صادر، ط1، بيروت، 1424هـ/2004م، ص33

⁵⁰ السكاكي، مفتاح العلوم، ص157

⁵¹ المرجع نفسه، ص158

ومن تعليل الجمع بين الألفاظ الغريبة في سياق واحد استنادا إلى التناسب قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: 85]، فقد "أتى بأغرب ألفاظ القسم، وهي (التاء)، فإنها أقل استعمالا، وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار؛ فإنّ (تزال) أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالا منها، وبأغرب ألفاظ الهلاك، وهو (الحرض)، فاقترض حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة من جنسها في الغرابة، توخيّا لحسن الجوار، ورعاية في ائتلاف المعاني بالألفاظ.⁵²

وهكذا نرى أن اقتران الألفاظ بعضها مع بعض في السياق الواحد إنما يكون لجامع بينها يحقق مبدأ التناسب فيها، وقد قسم القزويني هذا الجامع إلى عقلي ووهمي وخيالي، "فأما العقلي فهو أن يكون بينها اتحاد في التصوّر أو تماثل... كما بين العلة والمعلول، والسبب والمسبّب، والسفل والعلو، والأقلّ والأكثر، فإن العقل يأبى ألا يجتمعا في الذهن، وأمّا الوهمي فهو أن يكون بين تصوّريهما شبه تماثل كلون بياض ولون صفرة، فإن الوهم يبرزهما في معرض المثليين... والخيالي أن يكون بين تصوّريهما تقارن في الخيال سابق، وأسبابه مختلفة، ولذلك اختلفت الصور الثابتة في الخيالات ترتيبا ووضوحا.⁵³

ومن أوجه التناسب الإعجازي في القرآن الكريم، التناسب الدقيق بين حروف المعاني والدلالة المقصودة في السياق، وذلك نحو ما ذكر في التباين بين حرفي الجرّ (على) و(في) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24] حيث جيء بحرف الجرّ (على) مع الهدى، و(في) مع الضلال، "لأن صاحب الحقّ كأنه على فرس جواد، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه.⁵⁴

⁵² السيوطي، الإتيان، ص 655

⁵³ القزويني، الإيضاح، ص 156

⁵⁴ ابن الأثير، المثل السائر، 2/35

ومن هذا القبيل المخالفة بين الواو والفاء و(ثم) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: 79-81]، فالأوّل عطفه بالواو التي هي للجمع، ثم عطف الثاني بالفاء، لأنّ الشفاء يعقب المرض، ثم عطف الثالث بـ (ثم) لأنّ الإحياء يكون بعد الموت بزمان، ولهذا جيء بعطفه بـ (ثم) التي هي للتراخي.⁵⁵

وهذا التوجيه - كما نرى - يبرز التناسب الدقيق في استعمال هذه الحروف بين دلالاتها وما يقتضيه السياق ويتطلّبه غرض الكلام.

ومن مظاهر التناسب في القرآن الكريم تناسب الصيغة المستعملة وما يقتضيه المقام والمعنى المراد فإنّ "كلّ صيغة من الصيغ ذات الأصل اللغوي الواحد، الراجعة إلى نوع صرفي واحد هي لفق مكائها، لأنّ لكلّ صيغة خصوصية معنى وخصوصية سياق."⁵⁶

من ذلك قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، فقد "أتى بلفظ (الاكتساب) المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها"⁵⁷.

ومن مظاهر التناسب المعجز والاستعمال الدقيق للألفاظ، استعمال القرآن الكريم للفظ أو الكلمة بحيث لا يسدّ مسدّها فيها غيرها من ألفاظ اللغة على اتّساعها وتنوّعها.⁵⁸

وأكثر ألفاظ القرآن الكريم التي يتجلّى فيها هذا الاستعمال الدقيق الفواصل القرآنية التي تأتي "متمكّنة في مكائها مستقرّة في قرارها مطمئنّة في مواضعها، متعلّقا معناها بمعنى الكلام

⁵⁵ المرجع نفسه، 32/2

⁵⁶ عودة الله القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996م/1416هـ، ص323

⁵⁷ السيوطي، الإتقان، 237/2

⁵⁸ ينظر: عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1417هـ

1986م، ص7

كلّه تعلّقًا تامًّا بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سكت عنها كملّه السامع بطبعه.¹

وليس التناسب الصوتي هو المقصد الوحيد للفاصلة القرآنية، بل إن تحقيق التناسب المعنوي بين الفواصل بحسب سياقاتها هو مقصد آخر يسند التناسب الصوتي، ومن الأمثلة عن تناسب الفواصل القرآنية مع سياقها، قوله تعالى على لسان قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، قال الزركشي: "لَمَّا تقدّم ذكر العبادة والتصرّف في الأموال كان ذلك تمهيدًا تامًّا لذكر الحلم والرشد، لأنّ الحلم هو الذي يصحّ به التكليف، والرشد حسن التصرّف في الأموال، فكان آخر الآية مناسبة لأولها مناسبة معنوية، ويسمّيه بعضهم ملازمة."²

فنحن نرى كيف تعلّق معنى الفاصلة بمعنى الآية كلّه تعلّقًا تامًّا، وكيف اتجه معنى الآية القرآنية كلّه نحو فاصلتها ليدلّ عليها تحقيقًا للتناسب.

ويؤكد الزركشي هذا الأمر بقوله: "اعلم أن من المواضع التي يتأكّد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولًا، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض."³

وتحدّث العلوي عن هذه المناسبة والمؤاخاة المعنوية التي تكون في فواصل الآي فذكر أنّها "تأتي مطابقة على ما سبق من معنى الآية"⁴، وساق أمثلة لآيات من سورة الحج كقوله كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ

¹ السيوطي، الإتيقان، 347/1

² الزركشي، البرهان، 78 / 1

³ المرجع نفسه، 78/1

⁴ العلوي يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح: عبد الحميد هندأوي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، بيروت، 1423هـ / 2002م، 204/2

لَطِيفٌ خَبِيرٌ» [الحج:63]، وقوله تعالى: "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» [الحج:64]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ» [الحج:65].

قال العلوي مبيناً وجه المناسبة بين هذه الآيات وخواتيمها: "فالآية الأولى إنما فصلها بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) لما فيه من المطابقة لمعناها؛ لأنه ضمّنها ذكر الرحمة للخلق بإنزال الغيث لما فيه من المعاش لهم ولأنعامهم، فكان لطيفاً بهم خبيراً بمقادير مصالحهم."¹ وأما الآية الثانية فإنما فصلها بقوله: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) ليُطابِقَ ما ضمّنه فيها؛ "لأنه لما ذكر أنه مالك لما في السماوات والأرض لا حاجة، قابله بقوله: هو الغني... ليدل على كونه غير مفتقر إليها، وذكر (الحميد)، لأنه لما كان جواداً على خلقه، فلا جرم أن يستحقّ الحمد من جهتهم."²

و أمّا الآية الثالثة، فإنما فصلها بقوله: (لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ) "لأنه لما عدّد جلائل نعمه وكانت كلّها مسخرة مدبرة، وكانوا لولا رحمته متعرّضين بصددتها لمُتاليف عظيمة من الأهوال البحرية والآفات السماوية، عقّبها بذكر الرأفة والرحمة، لينبّه على كمال لطفه وعظيم رحمته بالخلق."³

ولم يقف المفسّرون عند بيان التناسب في فواصل القرآن فحسب، بل تجاوزوا ذلك إلى بيان ترابط معاني السورة القرآنية، بحسب سياق كل سورة ومقامها ومقاصدها، ثم تدرّجوا من ذلك إلى أن القرآن الكريم كلّ غاية في الانسجام والتلاؤم بجميع سورته وآياته، قال السيوطي متحدّثاً عن سورة البقرة: "ومن تفكّر في لطائف هذه السورة وفي بدائع

¹ المرجع نفسه، 204/2

² المرجع نفسه، 204/2

³ المرجع نفسه، 204/2

ترتيبها، علم أن القرآن الكريم كما أنّه معجز بحسب ألفاظه وشرف معانيه، فهو معجز أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته.¹

ولا شك أن إدراك خفايا هذه التناسبات يتطلب تضلّعا باللغة العربية وأساليبها وبيانها حتى يتبين للناظر جمال نظم القرآن وترتيب كلماته وتناسب أجزائه، قال السيوطي: "وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك، وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط."² وهذا الترابط والاتصال هو ما يجعل الكلام كلّ كلمة واحدة، متّسقة منتظمة المباني متألّفة المعاني.

ولا شك أن هذا البعد في تعليل الإعجاز كان ماثلا لدى عبد القاهر وهو يرسي نظرية النظم، حيث قاده التأمل إلى أن فنون الكلام والأساليب تتفاوت بحسب تلك القدرة على إحداث التناسب بين الأجزاء، وأن شأن الكلام في ذلك شأن كل فنّ جميل، فـ"سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش؛ فكما أنّك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخيّر والتدبّر في أنفاس الأصباغ، وفي مواقعها، وفي مقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها إلى ما لم يتهدّد إليه صاحبه... كذلك حال الشاعر والشاعر في توحيهما معاني النحو ووجوهه."³

وهكذا هي معاني القرآن الكريم وألفاظه؛ غاية في التلاؤم والالتحام، وقمة في التناسب والانسجام، وهو سرّ الإعجاز الذي تحدّى به أرباب البلاغة والبيان. وسنتبيّن ذلك في ما يأتي من فصول البحث.

¹ السيوطي جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي،

بيروت (د، ت) 65/1

² السيوطي، الإتقان 56/1

³ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106

الباب الأول

التناسب السياقي

في القرآن الكريم

عرفنا أن التناسب أساس الإعجاز في القرآن الكريم، وأنه يبحث في العلاقات المختلفة الظاهرة والخفية بين أجزاء النص، وتمثّل هذه العلاقات وجوهاً شتى من التناسب بين الآيات والسور وأجزاء الخطاب القرآني كلّها، في المستويات المختلفة الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والنصّية.

وسنحاول رصد أهمّ مستويات التناسب السياقي انطلاقاً من اجتهادات العلماء والمفسّرين وإسهاماتهم في هذا المجال، وسنبداً بالتناسب الصوتي لنتناول بعده باقي المستويات تباعاً.

الفصل الأول

التناسب الصوتي

إذا كانت اللغة بأصلها أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، كما قال ابن جني، فإن كل ظاهرة تتصل باللغة لا بدّ أن يشكّل الصوت أساسها ومنطلقها، والتناسب هو إحدى هذه الظواهر.

ونقصد بالتناسب الصوتي ذلك الانسجام الذي يحصل بين الأصوات بعضها مع بعض، أو بينها وبين السياق الواردة فيه والمعنى الذي تعبر عنه، فلا ريب أنّه "حين تجتمع الكلمات في الجمل والعبارات، تكتسب جرسا موسيقيا آخر زيادة على ما كان لها من موسيقى فردية، وذلك مثل تشابه بعض الكلمات في الوزن، أو في الموقع أو تعاقب كلمتين متشابهتين في الوزن والرنين، أو التساوي بين فقرتين أو جملتين في عدد الكلمات أو في وزن كل منهما، أو في تماثل الكلمتين الأخيرتين، أو في التشابه الذي يبرز في فقرات متكافئة".¹

ومعلوم أن لكل لغة موسيقاها وإيقاعها النابع من خصائصها الصوتية ونظامها التركيبي، وأن اللغات تتفاوت حظوظها من الموسيقى والإيقاع تبعا لاختلاف تلك الخصائص والأنظمة.

ويكاد الدارسون يجمعون ————— قديما وحديثا ————— على أن العربية في هذا الشأن تعدّ اللغة المثلى بما تميّزت به من ميزان صوتي دقيق وموسيقى لا تخطئها أذن السامع المرهف السمع.

ونريد أن نقف على هذه الحقيقة من خلال استعراض أهم الخصائص الصوتية التي تميّزت بها اللغة العربية.

أولا: الخصائص الصوتية للغة العربية

من أبرز الخصائص الصوتية التي تميّز بها اللغة العربية:

¹ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 216

- توزع حروفها في أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات؛ حيث تتدرّج وتتوزّع مخارجها ما بين الشفتين من جهة وأقصى الحلق من جهة أخرى، بينما قد نجد في لغات أخرى غير العربية حروفاً أكثر عدداً، ولكنّ مخارجها محصورة في نطاق أضيق، وفي مدرج أقصر، فنجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين وما والاها من الفم والخيشوم في اللغات الكثيرة الغنة، أو متزاحمة في جهة الحلق، وفي كلتا الحالتين ضيق في الأفق الصوتي واختلال في الميزان الصوتي، وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الحروف.

- التوازن والانسجام بين الأصوات العربية؛ وذلك أن العرب يُراعون في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزّعها فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي، كتجنّبهم جمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال، والجيم مع القاف والطاء والطاء والغين والصاد، والحاء مع الهاء قبل العين، والحاء قبل الهاء، والنون قبل الراء، واللام قبل الشين، وقد تنبّه إلى ذلك علماء اللغة كالجاحظ وابن جنّي.

- ثبات أصوات الحروف على مدى العصور والأجيال؛ فهي لم تتغيّر ولم تتبدّل منذ أربعة عشر قرناً على الأقلّ، أو منذ العصر الجاهلي الذي أعقبه ظهور الإسلام، ولم يُعرف مثل هذا الثبات في حروف لغة من لغات العالم في مثل هذا اليقين والجزم، كما عرف في العربية.

- الوظيفية البيانية لحروفها؛ حيث إنّ لحروف العربية وظيفة بيانية وقيمة تعبيرية وإيحاء خاصاً؛ فهذه الحروف إنّ لم تكن تدلّ دلالة قاطعة على المعنى فإنّها تدلّ دلالة اتجاه وإيحاء، وتثير في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى ويوجّه إليه ويوحى به.

فإذا استمعت إلى إنشاد بيت البحري في وصف الذئب الجائع المرتجف بسبب البرد ظننته أمامك:

يُقَضِّضُ عَصاً فِي أَسْرَتِهَا الرَّدَى كَقَضِضَةِ الْمَقْرُورِ أَرَعْدَهُ الْبَرْدُ

فإن تكرّر القاف وتواليها خمس مرات، وتكرّر الراء ست مرات مع الحروف الأخرى يوحي بصورة الذئب في ضراوته وجوعه وارتجافه.²

ولقد تبدّت هذه الخاصيّة الموسيقية في اهتمام العرب الشديد منذ العصر الجاهلي بموسيقى الكلام، وأوزان الشعر وبحوره وقوافيه، بل إنهم "ولشدة ولعهم بالإيقاع وإدراكهم لقيمتها الجمالية والتعبيرية، لم يكتفوا باستعماله في صياغة الشعر، بل زينوا به كثيرا من أصناف كلامهم المنثور، فأكثروا فيه من التوازن والتناسب والازدواج والسجع، وغير ذلك من المحسنات التي يمكن اعتبارها من عناصر الإيقاع."³

وقد أشار الباقلاني إلى أن كلام العرب المنظوم يقوم على وجه من وجوه التناسب الصوتي بين مكوثاته فقال: "إن الطرق التي يتقيّد لها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفّ، ثم إلى أصناف الكلام المعدّل المسجّع، ثم إلى معدّل موزون غير مسجّع، ثم إلى ما يرسل إرسالا."⁴

واجتهد أحمد أبو زيد في تعليل تعلّق العربي بالإيقاع وولعه به فعزاه إلى ثلاثة عوامل هي:

1- طبيعة النفس البدوية الطروب التي تتجلّى جميع انفعالاتها في تعبير موقّع موزون، إما بيت شعر موزون، وإما فقرة مسجوعة متوازنة.

2- اعتماد العربي على السماع أكثر من اعتماده على القراءة والكتابة، وهذا من شأنه أن يجعل أذنه دقيقة التمييز بين الأصوات المختلفة شديدة الإحساس بإيقاعها، فلم

² ينظر: محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، ط5، بيروت، 1392هـ/ 1972م، ص246-263

³ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص216

⁴ الباقلاني أبو بكر محمد، إعجاز القرآن، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1993، ص35

يكن غريبا أن يأتي كلامه وفيه من السجع والتقفية ما يزيد حلاوة موسيقاه في آذان السامعين.

3- أن الكلام الموزون والمعدّل المسجوع أطول بقاء من الكلام المرسل.⁵

وقد نقل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عن عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي أنه سئل: "لم تؤثر السجع على المنشور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكنّي أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقّ بالتقيّد، وبقلّة التلف، وما تكلمت به العرب من جيّد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنشور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره".⁶

وإن نظرة سريعة في أدب العرب قبل الإسلام تطلّعنا على ألوان التناسب الصوتي التي يحفل بها، ففضلا عن الشعر والرجز، نجد هذه الظاهرة في خطبهم وأسجاعهم وحكمهم وأمثالهم.

ولمّا نزل القرآن حمل كثيرا من الخصائص الأسلوبية التي تعارفها العرب قبل الإسلام مما يتعلّق بأساليب البيان، غير أنه جاء في أعلى مرتبة من التناسب الصوتي وغير الصوتي، وفاق كل ما عده من النصوص والأجناس.

وقد نقلت كتب السير كثيرا من الأخبار المتعلقة بتأثير القرآن في سامعيه، وقصة الوليد بن المغيرة خير دليل على ذلك، حيث قال الوليد مجيبا قومه وقد ألحوا عليه أن يقول في محمد صلى الله عليه وسلم قولاً يصرف الناس عنه، قال: "وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما

⁵ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 217، 218

⁶ الجاحظ، البيان والتبيين، 287/1

يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه يعلو وما يُعلَى، وإنه ليحطمُ ما تحته.⁷

وورد في سيرة ابن هشام أن أُسَيْدَ بن حَضِير قال بعدما سمع القرآن الكريم من مصعب بن عمير: "ما أحسن هذا الكلام وأجمله."⁸

ولا شك أن هذا التأثير يتعلّق —من بين ما يتعلق به— بذلك الإيقاع الفريد الذي يُحسّ عند تلاوة آيات القرآن الكريم أو سماعها.

ولعلّ أبرز مظهر لهذا الإيقاع الفريد ناشئ عن ذلك التناسب للأصوات عند تأليفها، وهو أمر "له أسبابه الموضوعية التي يعرفها أهل صناعة الكلام، لكنّ درجة إحساسهم بجمال التناسب متفاوتة، كما تتفاوت درجة إحساسهم بما في قطعة موسيقية من جمال التناسب."⁹

وهو ما عرض له علماء البلاغة حينما تحدّثوا بإسهاب عن الفصاحة وشروطها، وباستقراء آرائهم يتّضح أن مفهوم الفصاحة مفهوم جمالي بني على التناسب بين أصوات اللفظة الواحدة، فيكون الحكم بفصاحة اللفظة هو حكم لها بالتناسب بين حروفها وأصواتها حتى تسلم من النبوّ والثقل والاستكراه.

والقرآن الكريم —وهو يمثّل أعلى درجات الفصاحة— له روعة خاصّة ورونق فريد متميّز، يبدو فيه جمال التناسب الصوتي والإيقاعي واضحا، ونظرة إلى حروف الكلمة القرآنية تبرز تناسب هذه الحروف "تناسبا طبيعيا في الهمس والجر والشدّة واللين والتفخيم والترقيق، مما يشكّل أنغاما متناسقة متناسبة، وهذه الخاصّة تعود بلا شك إلى

⁷ البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تح: عبد المعطي قلعي دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، (دت)، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبه شيئا من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان، 198/2

⁸ ابن هشام أبو محمد عبد الملك المعافري، السيرة النبوية، دار الجيل، بيروت، 1975، 59/2

⁹ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص297

طريقة اختيارها وسبكها وتناسب مخارجها، كما أن وضع الكلمة في الآية واختيار موقعها والتثامها مع جارقتها له الأثر الكبير في إعطاء هذا الجرس الخاص والإيقاع المؤثر في نفس السامع.¹⁰

ومن بين طرق النظم التي سلكها القرآن في تأليف الأصوات ما يتّصل بفصاحة الألفاظ وانسجام أصواتها، وسنعرض أهم العناصر التي عالج العلماء ضمنها ظواهر التناسب الصوتي في القرآن الكريم، ولنبدأ بتناول الموضوع عند القدماء لنورد بعد ذلك اجتهادات المحدثين.

ثانيا: التناسب الصوتي عند القدماء

تناول القدماء التناسب الصوتي ضمن مباحث عديدة كاجتناب التنافر الصوتي، والمشاكلة والتجنيس، والإتباع للمجاورة، والفاصلة.

1- اجتناب التنافر الصوتي: المتأمل في تراث القدماء المتّصل بظواهر التناسب الصوتي يجد أن اجتناب التنافر الصوتي كان مبدأ ثابتا في تعليلهم لكثير من الظواهر اللغوية وتوجيههم للأساليب القرآنية، ويمكن القول إن اجتناب التنافر الصوتي هو النظير المعادل لمبدأ التناسب والانسجام بين الأصوات.

فمن مظاهر اجتناب تنابع الأصوات المتماثلة أو المتقاربة، عدم الجمع بين ظاءين في سياق واحد، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: 61]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: 45].

قال الخطيب الإسكافي: "لم يذكر الظاهر في الآية الأولى، لتقدّم الظاء في المبتدأ بعد (لو)، والظاء تعزّ في كلام العرب، ألا ترى أنها ليست لأمة من الأمم سوى العرب، فلما احتصّت بلغتها وتجنّبت إلّا فيها، استعملت في الآية الأولى مباشرة بعد (لو) واستعملت في

¹⁰ مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار القلم، ط3، دمشق، 1426هـ/2005م، ص137

الآية الثانية جواب ما بعد (لو)...وأجريت مجرى ما استعمل من الحروف، فلم يجمع بينهما في جملتين معقودتين عقد كلام واحد، وهما ما بعد (لو) وجوابها، وحُسْنُ التأليف وقصد الحروف مُرَاعَى في الفصاحة لا يخفى على أهل البلاغة.¹¹

وقد يرد النظم القرآني باجتناب تكرار حروف الحلق في كلمتين متتابعتين، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:7]، فابن الأثير يردّ ذلك إلى أمرين: "أحدهما الخشية من مجيء نظم الكلام معييا لثقله على النطق والسمع لبشاعة تكرار لفظ التريع بغير حاجز يباعد بين اللفظين، فإنه لو قيل بعد قوله: (إلا هو رابعهم ولا أربعة)، لثقل الكلام لمجاورة لفظين فيهما أربعة أحرف من حروف الحلق هما العينان والهاءان...والأمر الثاني الذي منع من ذكر الأربعة هو تجنّب تكرار المعاني والألفاظ بغير فائدة."¹²

فنحن نرى كيف استند ابن الأثير إلى مبدأ التناسب الصوتي في تعليل مجيء النظم على صورته.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام:6] عُدِلَ عن تكرار صوت الكاف ثلاث مرات في ما هو كالكلمة الواحدة "فجاء بفعل (مكّن) متعدّيا بنفسه في قوله: (مَكَّنَّاهُمْ)، ثم جاء به متعدّيا بحرف الجر في قوله: (مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ) ولو عدّاه بنفسه هنا كما في الكلمة الأولى لتوالى حرف الكاف ثلاث مرات، ويظهر ذلك عند النطق الصحيح، لأن النون الساكنة تخفى في النطق

¹¹ الإسكافي الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله، درة التزليل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، ط1، مكة المكرمة، 1422هـ / 2001م، ص266

¹² ابن أبي الأصبع المصري، بديع القرآن، تح: حقي محمد شرف، دار نهضة مصر، ط2، القاهرة، (دت)، ص334

قبل حرف الكاف، فإذا أخفيت في قولنا: (ما لم نكنكم) اتصل صوت الكاف المشدّد بصوت الكاف الذي بعد النون، وفي ذلك تتابع صوتي ثقيل على اللسان.¹³

ومن نماذج اجتناب تكرار الصوت متتابعاً قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 10]، فقد عُدِلَ عن تكرار حرف السين ثلاث مرات على التتابع في لفظ (دسّاه) إذ "الأصل دسّسها، فأبدل من السين الأخيرة ياء، تجنّباً لتكرار الحرف الواحد"،¹⁴ وما ذلك إلا طلب لخفة الحروف ودفع لتكريرها، وإلى هذا المعنى أشار ابن الأثير حين قال: "اعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة، قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم... ولشدّة كراهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكرّرين حرفاً آخر غيره، فقالوا: أمليت الكتاب، والأصل: أمليت، فأبدلوا اللام ياء طلباً للخفة، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة، فما بالك بالألفاظ الكثيرة".¹⁵

ومن مظاهر اجتناب تتابع الحركات الثقيلة العدول عن استعمال بعض الصيغ اللفظية والصرفية تجنّباً لتتابع حركة الكسرة فيما هو كالكلمة الواحدة، كالعدول إلى صيغة جمع القلة (أنعم) في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: 112]، وقوله تعالى: ﴿شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: 121]، فسياق الآية يقتضي أن تجمع كلمة (نعمة) جمع كثرة لا جمع قلة، ولكن عدل عن ذلك لتجنّب توالي حركة الكسرة فيما هو كالكلمة الواحدة لو قيل: (بنعم الله)، فحرف الباء هو بمثابة جزء من كلمة (نعم)، وقد أشار ابن جني إلى التأثير الصوتي لحرف الجر في الكلمة التي يتصل بها فقال: "ويدلّك على امتزاج حرف الجرّ بما جرّه، أن العرب قد أجزّهما مجرى الجزء الواحد في قولهم: مرّرت بي، والمال لي،

¹³ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 302،

¹⁴ قال الزبيدي في تاج العروس (مادة دسس): "دَسَّ الشَّيْءَ يَدُسُّهُ دَسًّا وَدَسَّسَهُ وَدَسَّاهُ - الْأَخِيرَةُ عَلَى الْبَدَلِ كَرَاهِيَةِ التَّضْعِيفِ - وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" أُبْدِلَتْ بَعْضُ سِينَاتِهَا يَاءً"

¹⁵ ابن الأثير، المثل السائر، 287/1

فتسكينهم الياء في (بي) و(لي) وكونها على حرف واحد يدلّك على اعتمادهما على الباء واللام قبلهما، وأهما غير مقدّري الانفصال منهما... ولأجل ما ذكرنا من شدّة اتّصال الجارّ بالجرور ما قبح عندهم حذف الجار وتبقية جرّه بحاله.¹⁶

ويمكننا الاستئناس بقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:20] للاستدلال على أن كلمة (نعمة) جمعت جمع كثرة على (فعل) حين لم يتصل بحرف الجرّ المكسور، وهو ما يعني أن خفة الحركات شرط لفصاحة التعبير، قال ابن الأثير: "إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم يستثقل، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة، فإنه إذا توالى حركتان منها في الكلمة استثقلت، ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء."¹⁷

ولكراهة تتابع الحركات الثقيلة، تجنّبت الهمزة المضمومة بعد المكسورة من كلمتين، فقد ذكر علماء القراءات خمسة حالات لالتقاء الهمزتين المختلفتي الحركة من كلمتين، ومثّلوا لها بما وقع في القرآن الكريم، وهي:

أ- المكسورة بعد المفتوحة: مثل: قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:9]، وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة:64].

ب- المضمومة بعد المفتوحة: مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:44]، وهذا هو موضعها الوحيد في القرآن.

ج- المفتوحة بعد المضمومة: نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف:110]، وقوله تعالى: ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود:44].

¹⁶ ابن جني أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداي، دار القلم، ط1، دمشق، 1985، ص132

¹⁷ ابن الأثير، المثل السائر، 268/1

د- المفتوحة بعد المكسورة: مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51].

ه- المضمومة بعد المكسورة: مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ﴾ [النمل: 29].

والقسمة العقلية تقتضي للهمزتين المختلفتين ستة أضرب، غير أن الضرب السادس لم يقع في القرآن وهو الهمزة المكسورة بعد المضمومة، وما ورد منه كان بإضمار اللفظ ذي الهمزة المكسورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: 23]، فالأصل: وَجَدَ عَلَى الْمَاءِ أُمَّةً.¹⁸

وفي هذا دليل على استئصال هذا الضرب من التقاء الهمزتين المختلفتين في الحركة، وقد أشار ابن جنّي إلى علّة ذلك بقوله: "فأما استكراههم الخروج من كسر إلى ضم بناء لازماً، فليس ذلك شيئاً راجعاً إلى الحروف، وإنما هو استئصال منهم للخروج من ثقل إلى ما هو أثقل منه."¹⁹

وهكذا فإن توزيع الحركات وتأليف الأصوات في النظم القرآني من أكبر الشواهد على التناسب الصوتي المعجز للقرآن الكريم.

2- المشاكلة والتجنيس:

المشاكلة في اللغة هي المماثلة، وفي الاصطلاح: "هي ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته."²⁰

¹⁸ ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضبّاع، دار الكتب العلمية، (دت)، 1/ 386-388

¹⁹ ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، ص 18

²⁰ الحموي ابن حجّة تقي الدين أبو بكر علي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، ط 1، بيروت، 1987، 2/ 252

والمشاكلة والتجنيس لنوان من ألوان البديع، والمشاكلة بمفهومها العام أصل من أصول العربية، تطلب في الكلام، ويترك لأجلها ما هو قياس في الصرف أو الإعراب، ويتعمدها الفصحاء، لما لها من قيمة جمالية.²¹

وهذه القيمة الجمالية تعزى إلى ذلك التناسب الصوتي الذي يحصل باقتران الألفاظ المتشابهة أو المتماثلة، فضلا عن التناسب المعنوي.

وأهم السياقات القرآنية التي وردت فيها المشاكلة سياق المجازاة، حيث تقع الآيات في الغالب متضمنة الإشارة إلى جزاء الله تعالى على الأفعال السيئة كالاستهزاء، والخداع، والمكر والنسيان.

فمن المجازاة، التعبير بالاستهزاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 14، 15].

قال الزمخشري: "فإن قلت لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى، لأنه متعالٍ عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل... قلت: معناه: إنزال الهوان والحقارة بهم... وقيل: سُمِّي جزاء الاستهزاء باسمه،"²² وذلك لما بينهما من ملابسة، على سبيل المشاكلة والمماثلة.

ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79].

فقلد سُمِّي الله تعالى عقابه باسم الذنب الذي اقترفه الكفار في حق المؤمنين وهو السخرية، وذلك من باب المشاكلة.

²¹ ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 255

²² الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود، مكتبة العبيكان، ط 1، الرياض، 1418هـ/1998م، 185/1

ومن مشاكلة المجازاة التعبير بالخداع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]، قال أبو حيان الغرناطي: "ومعنى (وهو خادعهم) أي متزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سَمَّاها باسم الذنب.²³

وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري، حيث قال: "(وَهُوَ خَادِعُهُمْ)"، وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة.²⁴

ومن مشاكلة المجازاة التعبير بالمكر في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [العمران: 54]. قال العز بن عبد السلام: "سُخْرِيَةُ اللَّهِ واستهزاؤه ومكره وخدعه من مجاز التشبيه، ويجوز أن يكون من مجاز تسمية المسبب باسم سببه، فإن سُخْرِيَّتَهُ تعالى واستهزائه ومكره مسبب على استهزائهم ومكرهم وسخريتهم.²⁵

ومن المشاكلة التعبير بالنسيان في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف 51]، والنسيان المسند إلى الله تعالى، فُسِّرَ على أنه "يتركهم في العذاب، كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم.²⁶ وقال الزمخشري: "يفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير، لا يذكروهم به.²⁷

إن الأمثلة السابقة التي عرضناها تمثل صورا للمشاكلة في مظهرها العام، أما المظهر الخاص لها -وقد وقع كثير منه في القرآن الكريم- فهو مشاكلة التجنيس، أو ما يعرف عند البلاغيين بفنّ الجناس أو التجانس.

²³ أبو حيان الأندلسي الغرناطي محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دت)، 535/3

²⁴ الزمخشري، الكشاف 166/2

²⁵ العز بن عبد السلام بن عبد العزيز، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، المطبعة العامرة، 1313هـ، ص 109

²⁶ أبو حيان، البحر المحيط، 395/4

²⁷ الزمخشري، الكشاف، 448/2

يقوم الجناس على التكرار أو المماثلة أو المشابهة، وهو -على تنوعه- "عبارة عن اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما".²⁸

وعرفه ابن الأثير بقوله: "أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا".²⁹ وقد ربط بعض العلماء بين الجناس وبين المشترك اللفظي³⁰، وبالنظر إلى أن الجناس يعتمد على التكرار وعلى الاشتراك اللفظي، فإن البلاغيين وعلماء البيان أوردوا مصطلحات عديدة قريبة في معناها من مفهوم الجناس، كمصطلح المجاورة، والتعطف عند العسكري³¹، ومصطلح المناسبة عند الرماني³².

3- الإتيان للمجاورة:

نقصد بالإتيان جعل اللفظين متناسبين من الناحية الصوتية لتجاورهما، وذلك تحقيقا لانسجام الكلام وسهولة النطق به واستعذاب السامع له.

وقد وردت الإشارة إلى هذه الظاهرة عند كثير من علماء اللغة القدماء، من ذلك ما جاء في كتاب أدب الكتاب لابن قتيبة عن الفراء أن "العرب إذا ضمت حرفا إلى حرف، فرما أجروه على بنيته، ولو أفرد لتركوه على جهته، ومن ذلك قولهم: إني لآتيه بالعشايا والغدايا، فجمعوا (الغداة) على (غدايا) لما ضمت إلى العشايا، وأنشد للقلاح بن حباب:

هتاك أخبية ولاج أبوبة يخلط بالجد منه البرّ واللينا

²⁸ العلوي، الطراز، 301/3

²⁹ ابن الأثير، المثل السائر، 239/1

³⁰ ابن رشيق أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد عبد

القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422هـ/2001م، 47/2

³¹ العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد

البجاوي ومحمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1371هـ/1952م، ص 413

و420

³² الرماني علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد

خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ط4، القاهرة، (د ت)، ص92

فجمع الباب على (أبوبة)، إذ كان متبعا (لأحبية)، ولو أفرد لم يجز.³³

ومما ذكروا له من شواهد الحديث الشريف قوله ——— صلى الله عليه وسلم
————: "ارْجَعَنَّ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ."* فالأصل: موزورات، ولكن قيل:
(مأزورات) إتبعا للفظ مأجورات.³⁴

أما في القرآن الكريم فقد ورد الإتيان من خلال عدة ظواهر أهمها: تغيير صيغة اللفظ،
والحذف والزيادة، واختيار إحدى القراءتين، وتقابل الأوزان.

³³ ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، أدب الكاتب، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية،
ط1، صيدا-بيروت، 1423هـ/2002م، ص408

* جاء في سنن ابن ماجه: "حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُصَفَّى الْجَمْعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سَلْمَانَ عَنْ دِينَارِ أَبِي عُمَرَ عَنْ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَإِذَا نِسْوَةٌ جُلُوسٌ فَقَالَ: (مَا يُجْلِسُكُنَّ؟) قُلْنَ نَنْتَظِرُ الْجَنَازَةَ. قَالَ: (هَلْ تَغْسِلُنَّ؟) قُلْنَ: لَا، قَالَ: (هَلْ تَحْمِلُنَّ؟) قُلْنَ: لَا. قَالَ: (هَلْ تُدْلِلِينَ فِيمَنْ يُدْلِي؟) قُلْنَ: لَا. قَالَ: (فَارْجَعَنَّ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ)". ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تح: بشّار عوّاد معروف، دار الجيل، ط1، بيروت، 1418هـ/1998م، 98/3، باب: ماجاء في اتباع النساء الجنائز، رقم الحديث: 1578، رقم الباب: 50

³⁴ ينظر: ابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد بن سعيد، سر الفصاحة، تح: إبراهيم شمس الدين، كتاب -
ناشرون، ط1، لبنان، 1431هـ/2010، ص185، وابن جني، سر صناعة الإعراب، ص669

فأما تغيير صيغة اللفظ فيمكن التمثيل له بقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: 5، 6]، قال الزمخشري: "فإن قلت: ما العذر والنذر؟ وبما انتصبا؟ قلت: هما مصدران من عَذَرَ: إذا محا الإساءة، ومن أُنْذِر: إذا حوِّف على فعل.³⁵"

ومع أن مصدر (أنذر) هو (إنذار) فقد جيء به في الآية معدولا به عن أصله تحقيقا للتناسب الصوتي على سبيل الإتيان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: 8]، عدل عن المصدر الأصل وهو ﴿تَبَتَّلًا﴾ إلى تبتيلا لأسباب من بينها مراعاة التناسب الصوتي بين رؤوس الآيات المتجاورة³⁶ لأن قبلها: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 4-5]، وبعدها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 9-15].

وقد يحدث التغيير في بنية الفعل تحقيقا للتناسب الصوتي كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت: 19].

جاء في كتاب البرهان للزركشي: "الأفصح أن يقال (بدأ) ثلاثي، قال الله تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: 20]، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، فجاء به رباعيا فصيحاً لما حسنه من التناسب وهو قوله: (يُعِيدُهُ).³⁷"

فمع أن الفعل الرباعي من (بدأ) لا يكاد يستعمل في العربية، فإنه لما ناسب موضعه في السياق حسن وجاد.

³⁵ الزمخشري، الكشاف، 286/6، 287

³⁶ ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 274

³⁷ الزركشي، البرهان 66/1

وأما الإلتباع من طريق الحذف والزيادة فيمكن التمثيل له بقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195]، فالأصل أن يقال: (فلا تُنظِرُونِ)، ولكنه "اجتزأ فيه بحركة الكسر عن الياء، لسبب إيقاعي هو تماثل الفواصل، لأن أواخر الآيات في سياقها ختمت بالنون في الأسماء والأفعال"³⁸.

وهذا النوع من الحذف -وهو حذف ياء الإضافة- له أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، يحقق معظمها التناسب الصوتي بين آياته.

ومما لوحظت فيه الزيادة للإلتباع قوله تعالى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: 21]، فـ "قوله تعالى: ﴿لِيَأْتِيَنَّكَ﴾ ليس موضع قسم، لأنه عذر للهدهد، فلم يكن ليقسم على الهدهد أن يأتي بعذر، لكنه لما جاء به على إثر ما يجوز فيه القسم أجراه مجراه."³⁹ أي طلبا للتناسب الصوتي بين اللفظتين المتجاورتين.

وأما اختيار إحدى القراءتين فنقصده به مخالفة بعض أئمة القراء الأصل في قراءة ألفاظ من القرآن الكريم إذا وقعت متجاورة، فيختارون قراءة ربما خالفت الأصل عندهم حفاظا على حسن الإلتباع، ومراعاة لجانب التناسب الصوتي.

من ذلك ما خالف فيه الإمام ورش أصل القراءة في همزة (مؤذن) من قوله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 44]، إذ الأصل هو تسهيل الهمزة، ولكن ورشاً قرأها بتحقيقها، وما ذلك إلا لإلتباعها لفظ (فأذن)، تحقيقا للتناسب الصوتي بينه وبين لفظ (مؤذن).⁴⁰

ومن هذا القبيل اختيار إحدى اللغتين لحسن الإلتباع والتوافق، كالرشد والرشد، بضم الراء وتسكين الشين في الأولى، وفتحهما في الثانية.

³⁸ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 275

³⁹ الزركشي، البرهان، 371/3

⁴⁰ ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، 395/1

ففي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]، قرأ السبعة غير أبي عمرو بن العلاء (رُشْدًا) بضم الراء لتوافق رؤوس الآي قبلها وبعدها: (علماً، صبراً، خُبراً...)، ولكن القراء السبعة قرؤوا: (رَشْدًا) بفتح الراء في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا﴾ [الكهف 10]، وفي قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا﴾ [الجن: 14] لمناسبة رؤوس الآي: (عَوَجًا، حَسَنًا، أَبَدًا، وَلَدًا، كَذِبًا) في سورة الكهف، و(عَجَبًا، أَحَدًا، وَلَدًا، شَطَطًا...) في سورة الجن.⁴¹

وأما الإتيان لمقابلة الأوزان فأمثلته في القرآن الكريم عديدة، وكثيرا ما يكون التناسب الصوتي هو المقصود من مقابلة هذه الأوزان، فإذا ذكر القرآن لفظ (الضَرْ) قابله بـ (النفْع) مثل: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: 49]، و﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الفرقان: 3].

وإذا ذكر لفظ (الضراء) قابله بـ (النعماء) أو (السراء) مثل: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود: 10]، و﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: 134].

ومن ذلك مقابلة اليسر بالعسر، واليسرى بالعسرى، والحُسْنُ بالسيئة، والبشير بالندير... في باب الألفاظ المتضادة.

وفي غير هذا الباب -وهو باب المقابلة بين الألفاظ غير المتضادة- نجد أمثلة عديدة كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: 11]، وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبُنْ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: 4].

⁴¹ ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 279، 280، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر،

فنرى أن مراعاة حسن الإتياع بين تلك الألفاظ وغيرها يرافقه ذلك التناسب الصوتي والنغم الإيقاعي الذي يدل على تميز الأسلوب القرآني المعجز.

وإذا كان من علامات الفصاحة وقوة البيان عند العرب مراعاة التشاكل والتناسب بين الألفاظ والعبارات في الكلام، فإن في القرآن الكريم المثل الأعلى لهذه الفصاحة التي تراعي التلاؤم والتناسب الصوتي بين الألفاظ مقرونا بحسن الإتياع وجمال الأداء.

4 - الفاصلة:

سمى القدماء الكلمات التي تنتهي بها آيات القرآن فواصل، واختلفوا حول تسميتها سجعاً، فأجازها بعضهم وردّها آخرون، ولكن الأمر المؤكّد أن هذه الفواصل هي من أبرز مظاهر التناسب الصوتي في القرآن الكريم.

وقد اعتمد العلماء على التشاكل الصوتي بين الفواصل في عدّ آيات القرآن الكريم، فكان من مقاييسهم في عدّها تشاكل أو آخرها وتناسب أصواتها.

ولاحظ بعضهم أن قيام الفواصل على تشاكل الأصوات يجعل حروفها متعلّقا بعضها ببعض في المخارج والصفات، فقسم الرماني الفواصل قسمين:

- فواصل ذات حروف متجانسة كقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: 1، 2].

- فواصل ذات حروف متقاربة كالميم والنون في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 3، 4]، والذال والباء في قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: 1، 2]، ثم قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 2] ⁴².

وهناك مصطلحات تداولها البلاغيون ودارسو الإعجاز عبروا من خلالها عن أوجه من التناسب الصوتي للفواصل، وأهمها: التوازن أو الموازنة، والسجع، والترصيع والتوازي، والتصدير.

⁴² الرماني، النكت، ص 90

فالتوازن بتعريف الرازي هو "ما اتفقت فيه كلمته الأخيرتان في عدد الحروف، واختلفتا في الحرف الأخير"، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: 15، 16]⁴³.

أما القزويني فقد عدّ التوازن أحد أنواع السجع وسماه سجع الموازنة، وعرفه بقوله: "أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية"⁴⁴، واستشهد بالآيتين السابقتين. وجاء القزويني بمصطلح قريب من التوازن هو المماثلة، وهي أن يكون في إحدى القرينتين من الألفاظ مثل ما يقابله في الوزن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصفات: 117، 118].

وأما السجع كما عرفه القزويني فهو "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وذكر أن الأسجاع من النثر كالقوافي من الشعر."⁴⁵

وسمى العلوي تماثل الفاصلتين في الحرف السجع المطرّف، وجعل منه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 14، 13]⁴⁶.

وأما الترصيع فهو اتفاق الأوزان والحروف معا، ومفهومه في المثل السائر "أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية"⁴⁷، ومثل له ابن الأثير بقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 13، 14].

وجعل العلوي الترصيع نوعين: ترصيع كامل وترصيع ناقص، فالكامل: "هو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الأوزان

⁴³ الرازي، نهاية الإيجاز، ص 69

⁴⁴ القزويني، الإيضاح، ص 328

⁴⁵ المرجع نفسه، ص 325

⁴⁶ العلوي، الطراز، 12/3

⁴⁷ ابن الأثير، المثل السائر، 255/1

والقوافي من غير مخالفة لأحدهما للثاني في زيادة ولا نقصان، أما الترصيع الناقص فهو أن يختلف الوزن وتستوي الأعجاز.⁴⁸

وعدّ الباقلاني من الترصيع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 101، 102]⁴⁹.

إن اتفاق الأوزان والحروف الذي تناوله العلماء ضمن الترصيع عُرفَ عند بعض البلاغيين تحت مصطلحات أخرى، فقد سماه العلوي السجع المتوازي، وسماه الرازي التوازي.⁵⁰

وأما التصدير فأطلقه بعضهم على ظاهرة رد العجز على الصدر⁵¹، ويطلق في القرآن الكريم على العلاقة الماثلة بين الفاصلة وبين الآية التي تتضمنها، أو ما يطلق عليه الزركشي "اثتلاف الفواصل مع ما يدلّ عليه الكلام".⁵²

ومعنى "ما يدلّ عليه الكلام في التصدير، أن يوافق لفظ الفاصلة آخر لفظ من مادتها في صدر الآية التي تحتويها، أو يوافق أول لفظ في صدرها، أو أن توافق الفاصلة بعض كلمات الآية⁵³، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 166]، وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

⁴⁸ العلوي، الطراز، 194/2، 195

⁴⁹ الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 84، 85

⁵⁰ العلوي، الطراز، 12/3. وينظر: الرازي، نهاية الإيجاز، ص 142

⁵¹ ينظر: التبريزي الخطيب، الكافي في العروض والقوافي، تح: الحساني حسن عبد الله، مطبعة الخانجي، ط 1،

القاهرة، 1415هـ/ 1994م، ص 181

⁵² الزركشي، البرهان، 78/1

⁵³ السيوطي، الإتقان، ص 685

الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 15].

فالتصدير في الآيات السابقة تمثله كل من الثنائيات اللفظية (يشهدون - شهيدا)، و(هَبْ - الوهَّاب)، و(استغفروا - غفارا).

ولعلَّ أول ما يظهر لنا من علاقة التصدير في كل ثنائية، أنها قائمة على صفة التكرار، باعتبار الدلالة اللفظية، وهذا التكرار "يفضي ضرورة إلى سبك الكلام، وضم أجزاءه بعضها إلى بعض، وحين يقوم السبك على تشكيل منضبط، فإنه ينطوي حتما على بعد موسيقي يتجاوز الطاقة الدلالية المحدودة للكلام إلى طاقاته الإيحائية المتجددة." ⁵⁴

فالتصدير هو نوع من التكرار ذو دلالة لفظية انسجامية، تأتي فيه الفاصلة متمكنة بحيث يتناسب مردودها الصوتي والمعنوي من بداية الكلام في الآية إلى آخره. وهكذا فإن القدماء عرفوا ظواهر التناسب الصوتي وتناولوها ضمن عدة مباحث ومصطلحات كاجتناب التنافر والمشاكلة والتجنيس والإتياع والفواصل والتوازن والسجع والترصيع وغيرها.

ثالثا: التناسب الصوتي عند المحدثين:

أتضح لنا بعد استعراض جهود الدارسين القدماء في دراسة أوجه التناسب الصوتي في القرآن الكريم أن هؤلاء العلماء قصرُوا نظرهم في هذا الجانب على التناسق اللفظي، أي تناسب الأصوات بعضها مع بعض، ولم يكادوا يتطرقون إلى تناسب الأصوات مع المعاني، إذ رأيناهم "لم يتعمقوا في بحث النظم الموسيقي للقرآن، بل إنهم لم يستعملوا مصطلحات (الإيقاع) و(الموسيقى) و(النغم) و(الجرس) في دراساتهم أصلا، وذلك أنهم كانوا يشعرون بالخرج من نعت أي شيء من كتاب الله بأنه ذو جرس أو إيقاع أو موسيقى، أو بأنه

⁵⁴ عبد الباسط عيّد، علم المناسبة مدخل إلى بلاغة الخطاب، مجلة عالم الفكر، المجلد 42، العدد: 3

جانفي - مارس، 2014، ص51

مشتمل على صفة من صفات الشعر أو الغناء، وفضّلوا أن يستعملوا مصطلحات أخرى كالفضاحة، والجزالة، والفخامة، والعذوبة، والسلاسة، وصفاء الديباجة، وحسن الرصف... وآثروها على أي كلمة تُشم منها رائحة الترنّم والنغم.⁵⁵

أما المحدثون من الدارسين فلم يجدوا حرجا في تلك التسميات، بل إنّ منهم من ارتبطت نظرتهم إلى روعة القرآن وجمال نظمه بحلاوة الجرس وعذوبة الإيقاع، بما لهما من كبير الأثر في تحريك النفوس والمشاعر لتقبّل المعاني.

وأبرز من تناول هذا الجانب من المحدثين مصطفى صادق الرافعي وسيد قطب.

⁵⁵ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص242

1- الرافي:

يلخص أحد الباحثين فكرة إعجاز النظام الصوتي في القرآن الكريم عند الرافي بأنها تكمن في أمرين اثنين:

- توزيع حروف الكلمة والكلمات المجاورة لها على أعضاء النطق توزيعاً خاصاً، أو ترتيب وتوزيع الحروف ذات الصفات والمخارج الخاصة توزيعاً وترتيباً يؤدي إلى التوازن والانسجام والسهولة، مع ما يترتب على ذلك من استهواء نفسي.
- قواعد التلاوة التي تراعي المد والإدغام والإخفاء والإظهار والغن والجهر والهمس والقلقلة... إلخ، فإن مراعاة هذه القواعد يؤدي إلى نفس النتيجة أي التوازن الذي يحقق الاستهواء النفسي.⁵⁶

فإعجاز النظام الصوتي عند الرافي هو في تلك الموسيقى الناشئة عن انسجام حروف القرآن الكريم وترتيبها وتناسقها، فهذه الموسيقى هي ما أدّى إلى الاستهواء النفسي لدى العرب حين نزل فيهم القرآن، فلقد "رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسقها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعتها، فلم يفهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أئين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم كمُسيلم جَنح في خرافاته إلى ما حسبَه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها، ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها.⁵⁷

⁵⁶ محمد إبراهيم شادي، إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التميز، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، (دت)،

⁵⁷ الرافي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، تح: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت،

ومعنى هذا الكلام أن الإعجاز الصوتي للقرآن عند الرافعي لا ينحصر في تناسب الأصوات بعضها مع بعض، بل يتعداه إلى تناسب تلك الأصوات وإيجاءاتها والأثر الذي يترتب في النفس البشرية من ترتيبها وتوزيعها، وهو ما كان الرافعي شديد الاعتناء به فعده من أبرز وجوه الإعجاز، حيث إن القرآن من هذه الجهة "يغلب بنظمه كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم لتلين قلوبهم وتقتز عند سماعه... وهذه حالة مطردة يعرفها الناس جميعا، وما من أعجمي يسمع ترتيل القرآن-إن فهمه أو لم يفهمه- إلا اعترته رقة للشجي والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج في نفسه، وتجيش نفسه بها مع أنه لا يعتره من ذلك شيء إذا هو سمع الألحان العربية في الغناء والشعر".⁵⁸

ومع أن الرافعي لم يُعَنَ كثيرا بالشواهد الكاشفة عن ما ذهب إليه من أن إعجاز النظم الصوتي (أو ما سماه بلاغة النغم) هو أبرز وجوه الإعجاز القرآني، فإننا يمكن أن نورد نموذجا يتجلى فيه الحسّ المرفه لديه في معالجة ظواهر التناسب الصوتي في القرآن، وذلك قوله تعالى في سورة النجم: ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: 22]، قال الرافعي: "وفي القرآن لفظة غريبة هي أغرب ما فيه، وما حَسُنَتْ في كلام قطّ إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضيزى) من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: 22]، فإن السورة التي هي منها، وهي سورة النجم مفصّلة كلّها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنّهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلّها كأنّها تُصَوَّرُ في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى

⁵⁸ المرجع نفسه، 186/2

والتهكّم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكّنت في موضعها من الفصل.⁵⁹

من هذا التحليل يتضح لنا أن نهج الرافعي في دراسة إعجاز القرآن يستند على أساس صوتي واضح، حيث تتألف العناصر اللغوية بصورة محكمة تلائم نوع الصوت والوجه الذي ترد عليه، والغرض الذي تساق له.

2- سيد قطب:

تبرز ملامح البحث عن أوجه التناسب في النظم القرآني عند سيد قطب من خلال كتابيه: (في ظلال القرآن)، و(التصوير الفني في القرآن) الذي يعدّ من أكثر أعمال المحدثين توسّعا في هذا الباب.

يرى سيد قطب أن إدراك آفاق التصوير لا يتأتّى إلا بالتوسّع في معناه "فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور، تتملّأها العين والأذن، والحسّ والخيال، والفكر والوجدان."⁶⁰

وقد تجلّت بهذا التصوير أرقى درجات التناسق والتناسب وتحققت به أسمى مظاهر الانسجام.

ومن ألوان التناسق والتناسب القرآني التي تحدّث عنها سيد قطب ذلك الإيقاع الموسيقي الناشئ من تحيّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص.⁶¹ فهو مزيج بين إيقاعين، ظاهريّ هو تحيّر الألفاظ ونظمها، وباطنيّ هو ذلك الجوّ الخاصّ والنسق الموسيقيّ الذي يؤدّي وظيفته في تحريك النفوس من خلال السياق.

⁵⁹ الرافعي، تاريخ آداب العرب، 196/2

⁶⁰ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط7، القاهرة، 1402هـ/1982م، ص37

⁶¹ المرجع نفسه، ص87

غير أن وضوح هذا الإيقاع في القرآن وعمقه في بنائه الفني لم يدركهما العلماء تمام الإدراك، وحديثهم عنه "لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري، ولم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية، وتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى، ووظيفتها التي تؤدّيها في كلّ سياق".⁶²

ويورد سيد قطب كثيرا من الأمثلة عن ذلك التناسق في التصوير الناشئ عن التناسب بين اللفظ بإيقاعه وجرسه الذي يلقيه في الأذن والصورة التي يرسمها في الخيال.

ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38]، تسمع الأذن كلمة ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ "فيتصوّر الخيال ذلك الجسم المثقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل، إن في هذه الكلمة (طنا) على الأقل من الأثقال، ولو أنّك قلت: (ثثاقلتم) لخفّ الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقلّ برسمها".⁶³

وفي سورة هود، تحسّ أن كلمة (أَنْلِزْمُكُمُوهَا) في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلِزْمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: 28]، تحسّ أنها "تصوّر جوّ الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق، وشدّ بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدّون إليه وهم منه نافرون".⁶⁴

ويعضي سيد قطب في بيان تصوير القرآن الكريم الذي تتضافر فيه أصوات اللفظة المفردة والإيحاء الذي يرتسم في النفس، فيقول عن لفظة (كُفِّبُوا) في قوله تعالى: ﴿فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: 94، 95]، ولفظة

⁶² المرجع نفسه، ص 87

⁶³ المرجع نفسه، ص 91، 92

⁶⁴ المرجع نفسه، ص 92

(مزعزعه) في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: 96]، فكلتا الكلمتين يحدث جرسهما صوت الحركة التي تتمّ بها، ووضعها اللغوي هو الذي منحها هذه الصورة، واختيار القرآن لهما في مكانيهما هو بلا شك من بلاغة التعبير وروعة البيان والتناسب بين اللفظة وما توحيه في نفس السامع.⁶⁵

ويتجاوز سيد قطب الحديث عن ألفاظ القرآن الكريم وإيقاعها الذي يجسّد غاية التناسب والتناسق إلى الحديث عن الفواصل ونظامها المتنوّع في سور القرآن الكريم وفي السورة الواحدة، وهذا التنوّع "يختلف بالقياس إلى الفواصل بين الطول والتوسط والقصر، وهو أشبه باختلاف محور الشعر في الديوان الواحد... وقصارى ما يقال فيه: إن الفواصل تقصر غالبا في السور القصار، وأنها تتوسّط أو تطول في السور المتوسّطة والطوال، وبالقياس إلى حرف القافية، يشتدّ التماثل والتشابه في السور القصيرة ويقلّ غالبا في السور الطويلة، وتغلب قافية النون والميم وقبلهما ياء أو واو على جميع القوافي في سورة القرآن، وذلك مع تعدّد الأساليب الموسيقية، ولو تشابهت القوافي في السور المختلفة".⁶⁶

ومن الأمثلة التي ساقها سيد قطب عن تناسب الفاصلة والقافية المضمون الذي ترد في سياقه ما جاء في سورة مريم، حيث تبدأ الفاصلة بالياء الممدودة (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيًا) وفجأة يتغير هذا النسق على النحو الآتي: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)، وبعد ذلك "يتغيّر نظام الفاصلة، فتطول، ويتغير نظام القافية فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل، وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكما بعد نهاية القصة مستمداً منها، ولهجة الحكم تقتضي أسلوبا موسيقيا غير أسلوب

⁶⁵ المرجع نفسه، ص 93

⁶⁶ سيد قطب، التصوير الفني، ص 107

الاستعراض، وتقتضي إيقاعاً قويا رصينا، بدل إيقاع القصة الرخيّ المسترسل، وكأنه لهذا السبب كان التغيير.⁶⁷

ويذهب سيد قطب إلى أن تنوع موسيقى الفاصلة وإيقاعها يتبع تنوع الأجواء التي ترد فيها هذه الفاصلة، وأن ذلك الإيقاع الموسيقي يتبع نظاما خاصا وينسجم مع الجو العام بصفة مطردة.

ومن النماذج التي أوردها سيد قطب في هذا الباب سورة النازعات التي جاءت بأسلوبين موسيقيين وإيقاعين ينسجمان مع موضوعيهما تمام الانسجام، أولهما يبدأ مع مطلع السورة: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النبا: 1-4]، حيث الحركة السريعة القصيرة الموجة القوية المبني التي تنسجم مع جوٍّ مكهرب سريع النبض شديد الارتجاف، وأما ثانيهما فيبدأ مع ذكر قصة موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: 15-19]، فالحركة فيه بطيئة واثبة رخيّة الموجة متوسطة الطول، تنسجم مع الجو القصصي الذي تعبر عنه الآيات.⁶⁸

وهكذا فإن التناسب الصوتي ظاهرة ثابتة في النظم القرآني، أشار إليها القدماء واحتفى بها بعض الدارسين المحدثين الذين استكملوا بدراستهم لها بعض النقص الذي بدا لدى القدماء بتأثير تصوّرهم للنظم الذي يتقدّم فيه التركيب والتأليف والعلاقات على ذات الكلمات والأصوات.

⁶⁷ المرجع نفسه، ص 108، 109

⁶⁸ المرجع نفسه، ص 111

الفصل الثاني

التناسب الصرفي

إذا كان التناسب الصوتي يقوم على وجود علاقة بين أصوات الكلمة الواحدة والمعنى الذي ترد في سياقه، فإنّ علاقة أخرى نراها ماثلة بين أصوات الكلمات ذوات الأصل الواحد والمعاني التي تحملها، بحيث يكون كل تغيير يمسّ أصوات الكلمة الواحدة حذفاً أو زيادة أو إبدالاً أو قلباً أو غير ذلك مصحوباً بتغيير في المعنى، وهذا التغيير في أصوات الكلمة يتعلّق بالناحية الشكلية لبنيتها، وهو يندرج ضمن علم من علوم العربية يسمّى علم الصرف، وعلى ذلك يمكن تعريف التناسب الصرفي بأنه التوافق بين البنية الصرفية للكلمة والسياق الذي ترد فيه.

أولاً: الصرف في اللغة والاصطلاح

جاء في لسان العرب: "الصرف: ردّ الشيء عن وجهه، صرفه يصرفه صرفاً فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه. وقوله تعالى: (ثم انصرفوا)، أي رجعوا عن المكان الذي اجتمعوا فيه، وقيل انصرفوا عن العمل بشيء ممّا سمعوا. (صرف الله قلوبهم)، أي أضلّهم الله مجازاة على فعلهم، وصرفت الرجل عني فانصرف... والصرف أن تصرف إنساناً عن وجهه يريده إلى مصرف غير ذلك".⁶⁹

وفي معجم العين: "التصريف: اشتقاق بعض من بعض... وتصريف الرياح تصرفها من وجهه إلى وجهه ومن حال إلى حال".⁷⁰

يتّضح مما سبق أن معنى مادة (ص ر ف) هو التحوّل والتقلّب والرجوع والتغيير والارتداد وما شاكل هذه المعاني، فيكون تصريف الكلمات تقلييبها وتحويلها من صورة إلى صورة.

⁶⁹ ابن منظور، لسان العرب، مادة (صرف)

⁷⁰ الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، العين، تح: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1424هـ / 2003م، مادة (صرف)

وقد تعدّدت تعريفات علماء اللغة للصرف من الناحية الاصطلاحية، لكنها على تعدّدها تلتقي عند خيط ينتظمها، فقد عرّف ابن جني التصريف بقوله: "هو ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها." ⁷¹

وعرفه ابن عقيل (ت769هـ) بقوله: "التصريف علم يبحث فيه عن أحكام بنية الكلمة العربية، وما لحروفها من أصالة وزيادة وصحة وإعلال وشبه ذلك." ⁷²

أما ابن هشام فعرفه بأنه: "تغيير في بنية الكلمة لغرض معنوي أو لفظي، فالأول كتغيير المفرد إلى التثنية والجمع وتغيير المصدر إلى الفعل والوصف، والثاني كتغيير (قول) و(غزو) إلى (قال) و(غزا). ولهذين التغيرين أحكام كالصحة والإعلال، وتسمى تلك الأحكام علم التصريف." ⁷³

وأما الشريف الجرجاني فقد فرّق بين الصرف والتصريف فقال: "الصرف: علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال... والتصريف تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها، وعلم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلمة التي ليست بإعراب" ⁷⁴

يتّضح مما سبق أن تعريفات العلماء تتفق حول مفهوم التصريف باستثناء تعريف الجرجاني الذي جعل دلالة الصرف متضمّنة في دلالة التصريف، وهذا يعني أن مفهوم الصرف عنده أوسع وأشمل من التصريف.

⁷¹ ابن جني أبو الفتح عثمان، المنصف، إدارة إحياء التراث القديم، ط1، القاهرة، 1373هـ/ 1954، 3/1

⁷² ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك، تح: هادي حسين حمودي، دار الكتاب العربي، ط4، بيروت،

1420هـ/ 1999م، 285/2

⁷³ ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار الجيل، ط5، بيروت 1979، 364/4

⁷⁴ الجرجاني أبو الحسن علي بن محمد، التعريفات، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط2،

بيروت، 1424 هـ/ 2003م، ص63، وص136

وأما المحدثون فاختاروا مصطلح الصرف، وهو عندهم "العلم الذي تعرف به أبنية الكلمة، وما لأحرفها من أصالة أو زيادة وصحة وإعلال، وما يطرأ عليها من تغيير، إما لتبدل في المعنى أو تسهيلاً للفظ".⁷⁵

ونستنتج من كل ما سبق أن معنى الصرف هو تغيير الصيغة الأصلية للكلمة الواحدة إلى صيغ مختلفة، إما بالزيادة أو الإبدال أو الإعلال أو الإدغام أو غيرها من الظواهر، وتنشأ من هذه التغيرات معان مختلفة لهذه الصيغ كالدلالة على اسم الفاعل واسم المفعول واسم التفضيل والتثنية والجمع والتأنيث والتذكير وغير ذلك.

ويرى أحد الباحثين أن مفهوم علم الصرف عند علماء العربية القدماء "يقترّب إلى حد كبير من مفهوم المرفولوجيا عند علماء اللغة المحدثين من حيث دراسة ما يطرأ على الكلمة من زيادات، وكذلك التحولات التي تغيّر شكلها أو وظيفتها لدخول عناصر لغوية معيّنة، غير أن الاختلاف بينهما يكمن في أن علم الصرف كما وضعه علماء العربية القدماء يختص بتحليل النظام الصرفي للغة العربية وحدها أو اللغات التي تشبهها مثل بعض اللغات السامية، أما المرفولوجيا فهو أعم من ذلك، إذ يتّصل بتحليل النظام الصرفي في أيّ لغة، وقد يقترّب كلّ منهما في منهج التحليل أحياناً وإن اختلفت المصطلحات".⁷⁶

والأبنية في هذا العلم هي صيغ الكلمات التي تنشأ عن التصريف.⁷⁷ و"المراد من بناء الكلمة ووزنها وصيغتها هيئتها التي يمكن أن يشاركها فيها غيرها، وهي عدد حروفها المرتبة وحركاتها المعيّنة وسكوها، مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كلّ في موضعه،

⁷⁵ إميل بديع يعقوب، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1987، ص927

⁷⁶ ممدوح عبد الرحمن الرمالي، تطور التأليف في الدرس الصرفي، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، (د) ص18، 19

⁷⁷ ينظر: ابن عصفور الإشبيلي، المتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، الدار العربية للكتاب، ط5، ليبيا، 1403هـ/1983م، 31/1

فـ (رجُل) مثلا على هيئة وصفة يشاركه فيها (عَضُد)...وهي كونه على ثلاثة، أوّلا مفتوح، وثانيها مضموم، وأما الحرف الأخير فلا تعتبر حركته وسكونه في البناء، فـ (رجُل) و(رجلا) و(رجل) على بناء واحد، وكذا (جَمَل) على بناء (ضَرَب).¹ ولم يكن علماء العربية القدماء يفرّقون بين بنية الكلمة وصيغتها ووزنها، إذ تدلّ كلّها على شيء واحد هو هيئتها التي قد يشاركها فيها غيرها. أما بعض المحدثين فيجعلون بين الصيغة والبنية فرقا خلاصته أن الأولى محصورة في الأسماء والأفعال والصفات، أما البنية فهي شاملة لباقي مباني التقسيم، كالضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والحروف.²

2

ومن ثم فإن كل صيغة بنية، وليست كل بنية صيغة.³ وقد يجتمعان في مثل كلمة (حامد) فهي بنية بالنظر إلى عدد من الحروف ضُم بعضها إلى بعض هي الحاء والألف والميم والdal، وصيغة أيضا لأنها على وزن من الأوزان المشهورة هو (فاعل).⁴

وما يلاحظ على طبيعة الأبنية في علم الصرف أنه يلتقي فيها جانب الشكل والوزن الصرفي وعلاقاته التصريفية، وجانب آخر شديد الصلة هو الاشتقاق، ففي تصريف الكلمة الواحدة إلى أمثلة مختلفة معنى توليد ألفاظ مختلفة بمعان مختلفة تلتقي كلّها في قدر مشترك من المعنى العام، وهذه العلاقة بين علم الصرف والاشتقاق أشار إليها ابن جني حيث قال: "وينبغي أن يعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسبا قريبا واتصالا شديدا، لأن التصريف

¹ الرضي الأسترابادي محمد بن الحسن، شرح شافية ابن الحاجب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار
دار الكتب العلمية، بيروت، 1395هـ / 1975م، 2/1

² ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص133

³ ينظر: هندأوي عبد الحميد أحمد يوسف، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية،
المكتبة العصرية، بيروت، 1423هـ / 2002م، ص26

⁴ المرجع نفسه، ص26

إنما هو أن تجيء إلى الكلمة الواحدة فتصرفها على وجوه شتى، مثال ذلك أن تأتي إلى (ضرب) فتبني منه مثل (جعفر) فتقول: (ضَرَبَ)، ومثل: (قَمَطَ): (ضَرَبَ)، ومثل (درهم) (ضَرَبَ)، ومثل (عَلِمَ) ضَرَبَ، ومثل (ظُرِفَ): (ضَرَبَ)، أفلا ترى إلى تصريفك الكلمة على وجوه كثيرة؟ كذلك الاشتقاق أيضا، ألا ترى أنك تجيء إلى الضرب الذي هو المصدر، فتشتق منه الماضي فتقول: (ضَرَبَ)، ثم تشتق منه المضارع فتقول: (يضرب)، ثم نقول في اسم الفاعل: (ضارب).¹

وإذا كان علم الصرف يدرس الكلمة معزولة عن السياق، فإنه في اللغة العربية يضبط العلاقة بين أشكال الكلمات مثل: رجل ورجلان، ويأكل وتأكل ويأكلان، فالكلمات التي يتوقف اختيار بعضها في التركيب اللغوي على ما تشير إليه من دلالات توحى في ذهن المتكلم بالعدد والنوع والشخص والزمن والنسبة والتوكيد.²

وقد جعل تمام حسان صورة التعبير عن المعاني في المباني الآتية:

أ- الشخص: والمقصود به التكلم والخطاب والغيبة.

ب- العدد: والمقصود به الإفراد والتثنية والجمع.

ج- النوع: والمقصود به التذكير والتأنيث.

د- التعيين: والمقصود به التعريف والتنكير.³

ولهذه الأشكال وظيفتها النحوية في التركيب اللغوي، وهو ما يعني أن هناك ارتباطا واتصالا وثيقا بين علم الصرف وعلم النحو، يقول ابن جني: "من الواجب على من أراد

¹ ابن جني، المنصف، 3/1

² أشواق محمد النجار، دلالة اللواحق التصريفية في اللغة العربية، دار دجلة، ط1، الأردن، 2007،

ص29

³ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص137، 138

معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف، لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن تكون أصلاً لمعرفة حاله المنتقلة.¹

فعلم النحو لا يستطيع أن يستغني عن نتائج الدراسة الصرفية، لأن العلاقة بين أجزاء التركيب تتأثر بشكل الصيغة، وقد تختل إذا أبدلت صيغة بأخرى.

ومن أهم مظاهر فساد هذه العلاقة ما نراه من اختلال للتناسب أو انعدامه بين شكل الصيغة الصرفية والمعنى المدلول بها عليه.

وللقرآن الكريم منهج خاص ومتميز في استعمال الصيغ والعناصر الصرفية عموماً، ينبىء عن نظام دقيق في استخدامها بما يتناسب والأغراض التي سبقت لها، والمعاني التي وردت لتدلّ عليها.

ويتجلى التناسب الصرفي في آيات القرآن الكريم من خلال تلك المتغيرات الصرفية التي يحكمها السياق، حيث تأتي العناصر الصرفية المختلفة موافقة تمام الموافقة لسياقها الذي ترد فيه، وتعدّ الآيات المتشابهة من حيث التراكيب والألفاظ أوضح مثال لدراسة هذا الجانب من التناسب.

وستتناول ظواهر التناسب الصرفي في القرآن الكريم من خلال أهم المتغيرات الصرفية، وهي: الصيغة الصرفية، والعدد (الإفراد والتثنية والجمع)، والنوع (التذكير والتأنيث)، والتعيين (التعريف والتنكير).

ثانياً: صيغة الفعل

لبيان التناسب بين الصيغة الصرفية والسياق الواردة فيه، يمكن المقارنة بين بعض الصيغ ضمن سياقات مختلفة لآيات متشابهة التراكيب.

¹ ابن جني، المنصف، 4/1

من ذلك ما جاء في صيغتي: (أفعل) و(فعل)، ففي قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [الأعراف:64]، ورد الفعل الثلاثي بصيغة (أنجينا) على وزن (أفعلنا)، ولكنه ورد بصيغة (نجينا) على وزن (فعلنا) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [يونس:73]، وكلا الوزنين يفيدان التعدية، وقد يبدو لنا أنه يمكن استبدال أحدهما بالآخر، غير أن لهما وضعًا خاصًا في هاتين الآيتين من حيث الدلالة.

وفي إيضاح وجه الفرق بين استعمال الصيغتين ومناسبة كل منهما لسياقها ذهب ابن الزبير الثقفي إلى أن كلا الفعلين (أَنْجَيْنَا) و(نَجَّيْنَا) وافق اسم الموصول الذي ورد معه في الآية خطأ ولفظًا، فلمّا "طالت الكلمة بالألف خطأً وبالنطق بحركة الهمزة لفظًا، ناسبها الموصول الذي هو (الذين) بزيادة حروفه على حروف (من)، ولمّا قيل في الثانية (فنجيناها) بما هو أخصر في الخط ناسبه من الموصولات (من) المفرد في معنى (الذي)، وهو أخصر."¹

وذهب فاضل السامرائي في توجيه هذا الاختلاف إلى "أن القصة في الأعراف أطول مما في يونس، فإنها في الأعراف ست آيات، من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الرابعة والستين، وهي في يونس ثلاث آيات من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الثالثة والسبعين، وأن كلمة (الذين) أطول من (من)، فناسب في مقام الإطالة أن يأتي بأطول الكلمتين، وعلاوة على ذلك فإن كلمة (من) في يونس أكثر مما في الأعراف، وكلمة (الذين) في الأعراف أكثر مما في يونس."²

¹ الثقفي أحمد بن إبراهيم بن الزبير العاصمي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل، تح: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1403هـ/1982م، 531/1

² فاضل صالح السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، ط1، الشارقة - الإمارات، مكتبة التابعين، عين شمس، القاهرة، 1429هـ/2008م، ص73، وقد وردت (من) في يونس 24 مرة، وفي الأعراف 18 مرة، وورد (الذين) في الأعراف 47 مرة وفي يونس 28 مرة.

وبهذا يتضح أن لكل سياق تعبيراً خاصاً مناسباً له.

وقد يكون وجه التناسب موافقة مبنى الصيغة لمبان تقدّمت أو تأخّرت ضمن السياق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: 53]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 18]، فنجد أن اختلاف صيغتي الفعلين هنا يعلّله مجيء الأفعال قبلهما وبعدهما على وزن كلّ منهما في سورتيهما¹، ففي سورة النمل وافقت صيغة (أنجينا) ما بعدها من الصيغ في قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: 57]، وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [النمل: 58]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ [النمل: 60]، فكلّها على وزن أفعلنا، أمّا في سورة فصلت فقد وافقت صيغة (نجينا) ما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: 12]، وما بعدها وهو قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت: 25]، وكلاهما على وزن: فعّلنا.

وقريب من هذا مجيء صيغة (اتبع) على وزن (افتعل) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: 123]، ومجيء الفعل بصيغة (تبع) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: 38] على وزن (فعل).

وإنما اختار في سورة طه صيغة (اتبع) لتقع الموافقة بينها وبين ما ورد في قوله تعالى في الآية قبلها² وهو: ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ [طه: 108]، ولأن القضية كما يقول أبو يحيى زكريا: "لما بُنيت من أوّل الأمر على التأكيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ [طه: 115]، ناسب اختصاصها بالزيادة المفيدة للتأكيد."³

¹ ينظر: الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تح: عبد القادر عطا، دار

الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1406هـ / 1986م، ص143

² المرجع نفسه، ص27

³ سيد قطب، التصوير الفني، ص111

وهو توافق لطيف روعي فيه السياق لبيان التلاؤم والتناسب الحاصل بين التعبير والموضع الذي ورد فيه.

وقد تختلف صيغ الأفعال من حيث البناء للمعلوم أو البناء لما لم يسمّ فاعله، فنجدها على وزن (فعل) في موضع آخر، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87]. وما جاء في قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93].

ويعلّل الكرمانى هذا الاختلاف بأن "قوله: (طُبِعَ) محمول على رأس المائة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ [التوبة: 86]، والثاني محمول على ما تقدّم من ذكر الله تعالى مرّات، فكان اللائق: وطَبِعَ الله¹، وهو من باب التشاكل والتناسب في زمن الأفعال.

ومن مظاهر اعتبار السياق في النظم القرآني اختيار زمن الفعل المناسب لنسق الكلام وسياقه القريب، فنجده يعبر في موضع بصيغة زمنية ما، وفي موضع آخر بصيغة زمنية أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 117]، حيث أوتر الزمن المضارع في الفعل (يضلّ)، بينما اختير الزمن الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [النجم: 30].

ووجه التناسب في التعبير بصيغة المستقبل (يضلّ) في سورة الأنعام أن هذه الآية والتي قبلها تضمّنتا من الأفعال المستقبلية والإخبارية بما يكون قطعياً في المآل ما يقتضي المضارع ليناسب النظم والسياق، وأما آية سورة النجم فمبنية على مطلع السورة في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: 2، 1] فناسب ذلك مجيء الفعل بصيغة الماضي.²

¹ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 91. وينظر: ابن جماعة بدر الدين، كشف المعاني، في

متشابه المثاني، تح: محمد محمد داود، دار المنار، ط1، القاهرة، 1418هـ/1998م، ص 115

² ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 471/1

وقد يتصل بمراعاة السياق اختلاف الصيغ من حيث نوع العامل، فيرد في موضع بصيغة الفعل، وفي موضع آخر بصيغة الاسم. قال تعالى على لسان نوح: ﴿أَبْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 62] وقال تعالى على لسان هود: ﴿أَبْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68]، فاختار الفعل (أنصح) في الأولى واختار اسم الفاعل (ناصح) في الأخرى.

ويمكننا أن نتبين سر هذا الاختلاف من خلال ما جاء في السورة؛ فنجد أن الآية الأولى وافقت قوله تعالى في الآية: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُمْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 79]، فعطف هنا لفظ الماضي وهو: (أبلغتكم) على مثله وهو: (نصحت)، وعطف لفظ المستقبل وهو: (أبلغكم) على مثله وهو: (أنصح)¹، أما الآية الثانية فقد وردت بصيغة اسم الفاعل (ناصح) لتقابل بمثلها² وذلك في قوله تعالى قبلها على لسان هود: ﴿وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66].

والذي نستخلصه من الأمثلة السابقة أن اختلاف التراكيب القرآنية من حيث الصيغة لا يمكن أن يعلل من دون النظر إلى السياق الذي وردت فيه، وبملاحظة القرائن المتقدمة والمتأخرة، فإن هذه الصيغ تأتي مناسبة لسياقها أشد التناسب، وهذا من أسرار النظم القرآني.

ثالثا: العدد

نقصد بالعدد هنا اختلاف استعمال الألفاظ أفرادا وتثنية وجمعا، فقد يستعمل اللفظ مفردا في موضع ويستعمل في موضع آخر مثنى أو جمعا، وكل هذا خاضع لاعتبارات دقيقة يسلكها البيان القرآني المعجز، وقوامها التناسب الدقيق بين السياق وبين الصيغة

¹ ينظر: الكرمانلي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 76

² ينظر: المرجع نفسه، ص 76

العددية الواردة فيه، ومن هنا كان اعتماد السياق أساساً لتعليل ورود الأفراد والتنشئة والجمع، واختلاف الآيات المتشابهة الألفاظ في ذلك.

فلقد أفرده الله تعالى لفظ (الرسالة) في قصة صالح عليه السلام حيث قال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79] بينما جمعه في قصة شعيب عليه السلام حيث قال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 93].

إن تخصيص الآية الأولى باللفظ المفرد اقتضاه تقدم ذكر الناقة في السورة، فصارت كأنها رسالة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: 73]، أي رسالة من ربكم، فهذه القرينة التي تقدمت الآية هي ما اقتضى إفراد لفظ (الرسالة)، أما جمعه في الآية الثانية، فدعا إليه كثرة ما ذكره شعيب - عليه السلام - لقومه من الأوامر والنواهي وتبليغها لهم، فصارت هذه كأنها رسالات.¹

والدليل على ذلك ما جاء في قوله تعالى على لسانه عليه السلام بدءاً من الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: 179] إلى الآية ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى﴾ [الشعراء: 184].

ومن لطيف استعمال المفرد والجمع بناءً على قرائن السياق مجيء لفظ (فواكه) بالجمع في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: 19] وبالأفراد (فاكهة) في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: 73] وإنما وقع ذلك مراعاة للفظ الجنة في السورتين.² حيث استعمل مجموعاً في قوله تعالى: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [المؤمنون: 19]، فكان ما في هذه الآية هو القرينة

¹ المرجع نفسه، ص 76

² المرجع نفسه، ص 134

الدّالة على سبب الجمع فيها، بينما جاء هذا اللفظ مفرداً في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:72]، وهكذا أفرد لفظ الفاكهة حين أفرد الجنة، وجمع مع لفظ الجنات، وهو من باب التناسب العددي.

ومن الألفاظ التي استعملت بالافراد تارة وبالجمع تارة أخرى لفظ (الدار) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:78]، وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:67]، وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:94].

فلاحظ ورود لفظ الدار مفرداً في سورة الأعراف وجمعاً في سورة هود، وبالنظر في سياق كل آية نجد أنه حيث ذكر الصيحة جمع الدار، وحيث ذكر الرجفة وحدها، وذلك أنّ الصيحة من السماء، وهي تبلغ أكثر ممّا تبلغه الرجفة وهي الزلزلة التي تختصّ بجزء من الأرض، أمّا تلك، فإنّ صوتها يبلغ مساحة أكبر فلذلك وحّد مع الرجفة وجمع مع الصيحة.¹

ويرى ابن الزبير الثقفي أنّ للفظ (الرجفة) خصوصاً، فالصيحة من حيث الكلّية تُطلق على ما كان من العذاب بالرجفة وغيرها، وإذا عبّرنا بالرجفة لم يتناول لفظها إلاّ ما كان عذاباً بها، فناسب عموم الصيحة جمع الدار.²

وهكذا تطلب كل سياق لفظة من اللفظتين فتحقق بذلك التناسب بين الكلمة وبين سياقها.

ولا يقتصر الأمر في استعمال اللفظ من حيث العدد على القرائن المقالية فحسب، بل إنّ للقرائن الحالية أثراً في ذلك، ولربما تضافر النوعان وتكاملا بحيث يزيد ذلك من ظهور التناسب والتناسق بين التراكيب القرآنية وسياقاتها، وذلك كاختلاف صيغة الخطاب

¹ المرجع نفسه، ص 77

² ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1/534

لاختلاف المخاطب، إذا تقدّم دليل على ذلك من السياق ففي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود:14]، حديث عن جمع المخاطبين، بينما كان المخاطب مفرداً في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص:50]، ويرجع هذا الاختلاف بين الخطابين إلى اختلاف المخاطبين في كلّ سورة، فما في سورة هود هو خطاب للكفار، والفعل (يستجيبوا) فيها يعود إلى (مَنْ) في الآية السابقة¹: ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [هود:13]، والمعنى: فإن لم يستجب لكم من دعوتكم...، أمّا سورة القصص فالخطاب فيها للنبي صلى الله عليه وسلم، والفعل (يستجيبوا) للكفار²، والمعنى: إن لم يستجب لك الكفار...

فلاحظ هنا كيف أن سياق الحال ممثلاً في المخاطب لما كان مختلفاً بين الآيتين أثر في اختلاف بنيتهما.

وقد يكون من دواعي اختلاف الصيغ أفراداً وتثنية وجمعاً سبب من أسباب التزول، كتصريف الفعل (استمع) مع المفرد الغائب في قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) [الأنعام:25]، ومع جمع الغائبين في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس:42]. والعلة في ذلك أن ما في سورة الأنعام نزل في قوم قليلين، وهم أبو سفيان، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة وأمّية، وأبيّ بن خلف "فترّلوا مترلة الواحد، فأعيد الضمير على لفظ (من)، وما في "يونس نزل في جميع الكفار، فناسب الجمع، فأعيد الضمير على معنى (من)".³

ومن هذا الباب ما جاء في اختلاف المخاطب في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج:10] بالإفراد ممثلاً في لفظ (يداك)، وقوله

¹ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص96

² المرجع نفسه، ص96

³ الأنصارى، أبو يحيى زكريا، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تح: محمد علي الصابوني، مكتبة

رحاب، ط2، الجزائر، 1408هـ / 1988م، ص162

تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 182] بالجمع (أيديكم)، وذلك أن آية الحج نزلت في النضر بن الحارث وقيل في أبي جهل، أما آية آل عمران فنزلت في جماعة تقدّم ذكرهم من قبل في السورة وهم اليهود.¹

ومن النماذج المتعلقة بالتناسب الدقيق في استعمال صيغة الجمع والتثنية والإفراد، ما جاء في القرآن الكريم من استعمالات مختلفة للفظي (مشرق) و(مغرب)، فقد وردا بصيغة المثني في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17-18] وأما صيغة الإفراد فجاءت في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل: 09].

وأوثر صيغة الجمع في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: 40].

فأما اختصاص سورة الرحمن بصيغة المثني فيرجع إلى ذلك التناسب اللطيف والتناسق البديع، الذي بنيت عليه السورة، إذ بنيت على ذكر المثاني المزدوجات، فذكر الله تعالى فيها نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعليم، وذكر فيها سراجي العالم وهما الشمس والقمر، ثم نوعي النبات، النجم والشجر، ثم ذكرت السماء والأرض، ثم العدل والظلم... ثم الإنس والجن، ثم ذكر الله تعالى المشرقين والمغربين وبعد ذلك ذكر البحرين، الملح والعذب، ولو أننا وضعنا اللفظين مفردين أو مجموعين لبنا السمع عنه، ولشهد العقل بمنافرتة للنظم.² لأن مساق السورة هو مساق المثاني المزدوجات، وهذا الانسجام البديع بينها ناسبه تثنية لفظي المشرق والمغرب وحسن ائتلافهما معها.

¹ ينظر: الكرمان، البرهان في توجيه متشابه القرآن، 132

² ينظر: ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، المكتبة العصرية، ط1، بيروت،

1422هـ/2001م، 148/1

أما ورود اللفظين بصيغة الإفراد في سورة المزمل فلأنّ هذه الصيغة هي التي تناسب السياق، ذلك أنه لمّا تقدّم ذكر الليل وما أمر الله به فيه، وذكر النهار وما يكون منه فيه عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب -وهما مظهر الليل والنهار- فكان ذلك سببا لمجيء اللفظين مفردين، ولأنّ ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار يظهر من المشرق والليل يظهر من المغرب.¹

وأما مجيئهما بصيغتي الجمع في سورة المعارج، فلأنّهما وردا في سياق بيان سعة ربوبيّته سبحانه وتعالى وإحاطة قدرته، فذكر المشارق والمغارب لتضمّنهما انتقال الشمس التي هي إحدى آياته العظيمة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب دليل على القدرة المطلقة، ومظهر من مظاهر سعة الربوبية... فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور، وفي هذا بيان على أن القادر على ذلك قادر على أن يبدّل المخاطبين خيرا منهم، وما هو بمسبوق.²

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: 41، 40].

ومّا تقدّم، نخلص إلى أن اختلاف الصيغ بين الإفراد والثنية والجمع لم يكن إلا مؤكّدا للتناسب والانسجام التامّين الحاصلين بين الصيغة والسياق الذي وردت فيه، والذي قد ينشأ من قرائن مقالية أو قرائن حالية أو من تضافهما معا.

وهذا يدل أن الكلمة القرآنية مصطفاة بدقة متناهية، وموضوعة بإحكام في موضعها الأنسب.

رابعاً: التعيين (التعريف والتنكير)

¹ المرجع نفسه، 148 / 1

² المرجع نفسه، 149/1

يراعي القرآن الكريم في استعمال الألفاظ المعرفة والألفاظ النكرة ما يناسب السياقات والمعاني والأغراض، سواء تعلّق هذا التناسب بوحدة السورة ومقصودها، أي السياق العام لها، أم تعلّق بالسياق القريب، أم بهما معاً، والنماذج التي سنتناولها هي جزء يسير من ميدان خصب نحاول من خلاله أن نقف على خصائص النظم القرآني ودقته في استعمال اللفظ تعريفاً وتنكيراً.

فمن الألفاظ التي وردت في موضع بصورة وفي موضع آخر بصورة أخرى تعريفاً وتنكيراً، لفظة (الكذب)، حيث وقع مفعولاً به معرّفاً بـ (الـ) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [الصف: 04] بينما وقعت هذه الكلمة نكرة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93].

وسرّ تخصيص سورة الصفّ بالتعريف هو لمناسبة ما فيها من إشارة إلى ما تقدّم من قول اليهود والنصارى، وهو جعلهم البينات سحراً.¹

ففي سياق الآية قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6] فقولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ هو كذب منهم، ولما تقدّم ما دلّ عليه صار هذا (الكذب) معلوماً، ولهذا جاء معرّفاً بـ (الـ)، في حين أن "المراد في بقية المواضع أيّ كذب كان، ولذلك نكره وعطف عليه".²

ومن الأمثلة الدالة على أثر السياق في تعريف اللفظ وتنكيره ما جاء في سورة المؤمنون حيث قال تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: 41]، وقال في الآية التي بعدها: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 44].

وفي توجيه هذا التباين ووجه التناسب في اختيار المعرفة (القوم) في الآية الأولى، والنكرة (قوم) ذكر أبو يحيى الأنصاري أن التعريف ورد في سياق ذكر قوم صالح بقرينة

¹ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 184

² ابن جماعة، كشف المعاني، ص 195

قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ [المومنون: 41] فعرفهم تعريف عهد، وأما الثاني فورد منكراً لخلوه من قرينة تقتضي تعريفه، وموافقة لتنكير ما قبله وهو ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المومنون: 42].¹

فتعريف العهد يستفاد من الضمير المتصل في (أخذتهم)، لأن المعنى: وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فكان لفظ (القوم) في مقابل (الذين ظلموا) — ولهذا خصت الآية بالتعريف، أما الآية الثانية فإنَّ المعنى القريب لـ (قرونا آخرين) هو: قوماً آخرين لا عهد لنا بهم، ولهذا خصت بالتنكير.²

ومن الألفاظ التي يظهر أثر السياق في استعمالها تعريفاً وتنكيراً لفظ (الضر) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ [الزمر: 8].

ووجه التناسب بين لفظ (الضر) المعروف والموضع الذي ورد فيه من الآية الأولى هو تقدّم ما يدلّ على هذه الكلمة في الآية؛ وهو لفظ (الشر)³ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ [يونس: 11].

فلما كان الضرّ متضمناً معنى الشرّ كانت المناسبة بينهما مناسبة معنوية عرّف لأجلها لفظ (الضر).

وإذا كان تعريف اللفظ وتنكيره في الأمثلة السابقة يخضع لمراعاة السياق القريب؛ أي سياق السورة الواحدة، فإن من التناسب السياقي في القرآن الكريم ما يرجع فيه اختيار التعريف أو التنكير إلى السياق البعيد، وذلك بأن يكون إثارة صورة لفظية في سورة ما متّصلاً بأمر تضمّنته سورة أخرى غير التي وقع فيها، كلفظ (الحق) الذي ورد معرّفاً في

¹ أبو يحيى زكريا، فتح الرحمن، ص 390

² ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 135

³ المرجع نفسه، ص 92

قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: 61]، وجاء نكرة في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21]، فكلمة (الحق) في الآية الأولى، تعني أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، وهو الحق الذي أذن الله أن تُقتل النفس به.¹ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151]. وفي هذا دليل آخر على ترابط النص القرآني واتساقه، وأنه سياق متكامل يفسر بعضه بعضا.

ومما سبق يتبين لنا أن استعمال اللفظ معرّفا في موضع ما يأتي لأمر معلوم مخصّص، وهو ما يدلّ على شدّة التناسب والتلاؤم بينهما، وأمّا استعماله منكرا في موضع آخر فيأتي لما هو عامّ، ولكن هذه الاستعمالات في جميع الأحوال محكمة بالسياق خاضعة إلى قانونه.

ومن مظاهر التناسب بين اللفظ والسياق الذي ورد فيه أن يجيء اللفظ في آية معرّفا بـ (الـ)، ويُعرّف في آية أخرى بالإضافة كتعريف لفظ الدين بـ (الـ) في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11]، وتعريفه بالإضافة في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14].

وبالنظر إلى سياق كل آية نجد أن "قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْبُدْ﴾ إخبار عن المتكلم، فناسبته بالإضافة إليه وقوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ ليست إخبارا عن المتكلم، فناسبته الإخبار عنه أصالة (أُمِرْتُ) فقط، وما بعده فضلة.²

ومن ذلك أيضا لفظ "الآيات" الذي جاء معرّفا بصورتين مختلفتين في سورة النور، حيث عرّف بالإضافة في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: 59]. وورد معرّفا بـ (الـ) في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

¹ المرجع نفسه، ص30

² أبو يحيى زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص465

الآيات ﴿[النور:58]، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:61] ووجه التناسب في ذلك، أن الآيتين الثانية والثالثة تضمّنتا علامات يمكن للمرء الوقوف عليها.¹ وهي أوقات الاستئذان، قال تعالى في الآية الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَذْنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور:58]

وفي الآية الثالثة قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:61]، فكان ذكر أوقات الاستئذان في الآية السابقة وذكر إباحة دخول البيوت والإذن بالأكل فيها للأصناف المذكورين في هذه الآية آيات وعلامات يمكن تبيينها والوقوف عليها، ولهذا جاء لفظ (الآيات) معرفاً بـ (الـ) تعريف عهد.

أما الآية الأولى فلم يرد فيها ذكر علامات يمكننا الوقوف عليها، وهي علامات بلوغ الأطفال، بل تفرّد الله سبحانه بعلم ذلك، فخصّها بإضافة لفظ (الآيات) إلى نفسه.² وبذلك تضمّنت كل آية من القرائن ما كشف عن وجه المناسبة بين ورود اللفظ معرفاً بالإضافة في موضع، وبـ (الـ) التعريف في الموضعين الآخرين.

ومن دواعي اختيار اللفظ المعرف بـ (الـ) التعريف أن يكون مبنى السورة العام على ألفاظ وردت معرفة بتلك الصورة، فيجيء اللفظ المعرف موافقاً لذلك النسق، وذلك كمجيء لفظ اللعنة معرفاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر:35]، فلفظ (اللعنة) إنما وقع بـ (الـ) التعريف لأن الكلام في

¹ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص138، وابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 887/2

² ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص138. وينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص153

سورة الحجر جرى على الجنس من أول القصة، والألفاظ الواردة في السورة معرفة —
(الـ) الجنسية التي تفيد الاستغراق.¹

ومن ذلك لفظ الإنسان، ولفظ الجان، ولفظ الملائكة... وهذا هو وجه التناسب.
أما ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص:78] من تعريف
بالإضافة للفظ اللعنة وهو (لعنتي)، فإنه لمناسبة ما تقدّم فيها وهو لفظ (بيدي).² في قوله
تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75]

ونخلص إلى أن التناسب اللفظي يقوم في أساسه على السياق اللغوي، ولا يمكن تعليل
الاختلاف بين نظم آيات القرآن من حيث التعريف والتنكير أو من حيث نوع التعريف
إلا على ذلك الأساس.

خامسا: النوع (التذكير والتأنيث)

التناسب في التذكير والتأنيث هو استعمال القرآن الكريم اللفظ المذكر أو اللفظ المؤنث
في أنسب موضع وأليق سياق، وهذا على الرغم مما قد يبدو من اختلاف في الاستعمال،
لاسيما وأن مجال التمثيل متعلّق بالتراكيب القرآنية المتشابهة، وقد يتبادر إلى الذهن أن ليس
هناك قانون أو مبدأ يحكم اختيار اللفظ من حيث التذكير أو التأنيث، وأن بالإمكان وضع
اللفظ المذكر مكان المؤنث أو وضع اللفظ المؤنث بدل المذكر دون أن يؤثر ذلك في المعنى،
ولكن الدراسة التحليلية لبعض التراكيب المتشابهة والإشارات المتعلّقة بأسرار اختيار نوع
الألفاظ فيها تذكيرا وتأنيثا يفضيان بنا إلى أن النظم القرآني يمتاز كما ذكرنا بالدقة
والإحكام في استعمال الألفاظ تذكيرا وتأنيثا.

فمن المواضع التي اختلف فيها الاسم تذكيرا وتأنيثا قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90] بلفظ (ذكرى) المؤنث، وقوله تعالى:

¹ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص108

² ينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص128

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: 104] بلفظ (ذكر) المذكّر.

ووجه التناسب في ورود اللفظ مؤنثا في سورة الأنعام هو أنها تقدّم فيها ذكر لفظ (ذكرى) مؤنثا في موضعين: ¹

الأول قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

والثاني قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 69].

وبذلك كان لفظ (الذكرى) المؤنث هو الأنسب لسياق الآية.

وقد يتعلّق الاختلاف في استعمال الألفاظ بالاسم الموصول، فيأتي التركيب متضمّنا الموصول مذكرا، ويأتي التركيب النظير متضمّنا الموصول المؤنث كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: 20]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: 42].

ومردّ هذا الاختلاف في استعمال الموصول في الآيتين إلى أن كلمة (النار) في سورة السجدة "وقعت موقع الكناية لتقدّم ذكرها، والكنايات لا توصف، فوصف العذاب". ² حيث تقدّم ذكرها في سياق الآية ذاتها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: 20] يعني عذابها.

أما سورة سبأ فلم يتقدّم فيها ذكر النار، ولذلك حسُنَ وصفها هي لا وصف العذاب. ³

ومن لطيف اختلاف التذكير والتأنيث، إضافة الاسم إلى ضميرين مختلفين كإضافة لفظ (بطون) إلى الضمير المذكّر في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ

¹ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 64

² المرجع نفسه، ص 155. وينظر: يحيى أبو زكريا، فتح الرحمن، ص 455

³ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 155

لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا
لِلشَّارِبِينَ ﴿النحل: 66﴾.

وإضافته إلى الضمير المؤنث في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ
لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: 21].

وهذا الاختلاف في تذكير الضمير وتأنيثه سببه اختلاف عائد هذا الضمير في كل
منهما، فالمراد في آية النحل بعض الأنعام، وهو الإناث، والضمير يرجع إلى هذا —
(بعض) المقدّر الذي يُفهم من سياق الآية حين خصّصها بذكر اللبن الذي لا يكون
للكور، فصار تقدير الكلام: وإنّ لكم في بعض الأنعام...، أما آية المؤمنون فهي على
خلاف ذلك، إذ الضمير فيها يعود إلى الأنعام جميعا ولا يقتصر على بعضها، خاصة وأنه
عطف على قوله: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ ما يعود على كل الأنعام، إناثا وذكورا.¹ قال تعالى:
﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: 21،
[22]

وقريب من هذا ما ورد في سورة فاطر من إضافة لفظ (ألوان) إلى ضمير مؤنث في
موضعين هما قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: 27]، وقوله تعالى:
﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: 27].

ولكن هذا اللفظ أضيف إلى ضمير مذكّر في موضع ثالث هو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ
الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: 28]

ويمكننا أن نتلمّس سرّ هذا الاختلاف من خلال سياق كل تركيب، فإن الضمير يعود
في الأول إلى (ثمرات)، وفي الثاني يعود إلى (الجبال) أو إلى ما بعدها لأنها كلها أسماء مؤنثة،
أما الموضع الذي خصّ بالتذكير، فالمتبادر إلى الذهن أن يكون الكلام فيه هو ﴿مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهَا﴾ بحيث يعود الضمير إلى (الأنعام)، ولكن الضمير جاء مذكرا.

¹ المرجع نفسه، ص 114. وينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص 131-132

و بمقارنة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ نجد أن الأول تضمّن تفسيراً وتفصيلاً لقوله (مِنْ) وهو ﴿جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ﴾، بينما لم يكن الثاني كذلك، أي أنه لم يفسّر (مِنْ) التي ذكرها، فكان الضمير في هذا الموضع عائداً إلى بعض الدال عليه، ولذلك خُصّ بالتذكير.¹

يتّضح لنا أن اختيار اللفظ المذكّر أو المؤنث لم يأت عبثاً، وأن للسياق أثراً بارزاً في استعمال الألفاظ والمواضع المقدّرة لها من الآية أو النظم القرآني.

ومن النماذج المختارة في تناسب التذكير والتأنيث، أن يختلف تصريف الفعل الواحد مع المذكّر والمؤنث في تركيبين متشابهين، كما ورد ذلك في سورة هود، حيث قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: 67] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: 94]

فالفعل (أخذ) في المثال الأوّل لم ترد فيه تاء التأنيث، بينما وردت فيه في المثال الثاني. ووجه التناسب في هذا أن "تأنيث الفعل في الآية الثانية إنما حصل ليوافق ما بعدها".² وهو قوله تعالى: ﴿كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ [هود: 95]. أي أن هناك نوعاً من التجانس والتشاكل بين الفعلين (أخذت) و(بعدت)، ومراعاته هي التي اقتضت أن يرد الفعل بتاء التأنيث. ومن هذا القبيل ما جاء في سورة الممتحنة من تأنيث الفعل الناسخ (كان) في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: 4]، وتذكيره في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: 6].

وسبب هذا الاختلاف أن الآية الثانية كثر الحائل فيها بين الفعل الناسخ واسمه، فحسّن التذكير، أما الآية الأولى فإن الحائل لفظ قليل هو (لكم)، فناسب ذلك أن يأتي اللفظ مؤنثاً.³

¹ ينظر: الكرمان، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 159

² المرجع نفسه، ص 99. وينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 2/660، 661

³ ينظر: الكرمان، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 184

وبهذا يظهر أن اختلاف استعمال الألفاظ تذكيرا وتأنيثا، إنما تعلّله قرائن السياق، وذلك إما عن طريق المماثلة والمشاكلة اللفظية، وإما عن طريق المناسبة المعنوية، وأن كل لفظ مذكرا كان أو مؤنثا، إنما يناسب موضعه المختار له بدقّة.

ويتبين لنا أن توظيف الصيغ الصرفية في الآيات القرآنية يقوم على أساس الاختيار المنوط بالسياق، وأن هذا الاختيار يطلعنا على دلالات فنيّة وبلاغية تؤدّيها تلك الصيغ في سياقها القرآني الذي يلتقي فيه التناسب والإعجاز عند نقطة واحدة.

الفصل الثالث

التناسب المعجمي

يكتسي البحث في التناسب المعجمي في القرآن الكريم أهمية خاصة، ذلك أن غالبية الدراسات المتعلقة بالإعجاز القرآني انصبّت عليه، ومع ما يغلب على أعمال علماء الإعجاز الأوائل من تعميم وقلة في الأمثلة والنماذج، فإنّ الإشارات البديعة والملاحظات الدقيقة التي حوتها مؤلفاتهم تعدّ اللبنة الأولى التي انطلقت منها المؤلفات التالية، لا سيما الحديثة منها.

والتناسب المعجمي في القرآن الكريم في مفهومه هو استعمال القرآن الكريم لكلمة بعينها دون غيرها من نظائرها ومرادفاتها في موضعها الأدقّ الأنسب لها من الآية أو السورة والسياق عموماً.

وعلى الرغم مما يبدو من تقارب دلالي بين كثير من الكلمات يوحي بإمكان وضع إحداها مكان الأخرى من السياق، فإنّ البيان القرآني المعجز يأتي مثبتاً التفاوت، ومتجاوزاً بها مفهومها المعجمي العامّ من خلال تخصيص كل كلمة بموضعها الأنسب لها هي بالذات.

"وهذه الخاصية للمفردة القرآنية تسري في الآيات في تلاؤم تامّ، ولا يمكن أن نعدها تفضلاً أو ترفاً ذهنياً، كما هي الحال في كثير من الأدب، وهي (المفردة) سامية بنسبتها إلى منزلها في إطار من البيان الذي يعيه العرب خاصة."¹

تمثّل الكلمة في اللغة العربية المادّة الأصلية التي يبنى عليها المعجم اللغوي الذي "يسعى إلى تمثيل جميع المفردات المرصودة وفق حاجة المستعمل... ويهتمّ بإعطاء معلومات حول طبيعة الكلمات وأنواعها النحوية، وصيغها الخطيّة والصوتية ومعانيها واستعمالاتها،

¹ أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، ط2، سوريا، دمشق، 1419هـ/1999م، ص30

ومستوياتها اللغوية، والبحث في أصلها مرتبة بحسب المسلك التاريخي لظهورها أو بحسب نظام ترددها.²

وما يلاحظ على المعاجم اللغوية أنها تعالج معنى كلمة من خلال معنى أو معاني كلمات أخرى، وهو ما يدل لدى مستعمل اللغة على أن بين هذه الكلمات علاقة دلالية ما، ولعل أبرز العلاقات الماثلة بين الكلمات في المعاجم اللغوية هي المعروفة باسم الترادف. والترادف هو الاتحاد في المفهوم، أو هو توالي الألفاظ المفردة على شيء واحد باعتبار واحد.³

وهذا المعنى تضمّنه تعريف فخر الدين الرازي للمترادف الذي نقله السيوطي، حيث ذكر في تعريفه أنه "الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد"،⁴ كقولهم في أسماء السيف: الرداء، والخليل، والصفحة، والحسام، والمهند... وقولهم في أسماء العسل: الضرب والسوب، والورس، والشهد والجنى والرحيق... إلخ.⁵

ويعرّف المحدثون الألفاظ المترادفة بأنها "ألفاظ متّحدة المعنى، قابلة للتبادل فيما بينها في أي سياق".⁶ وهذا يعني أن للمترادفات معنى مشتركاً يمكن التعبير عنه بأي لفظ من ألفاظها.

لقد حظيت قضية الترادف - كما هو معلوم - بجدل كبير بين علماء اللغة العربية القدماء والمحدثين، حيث اختلفوا حول وقوع الترادف في العربية فكانوا فريقين: فريق يعترف به وفريق منكر له.

² ابن حويلي الأخضر ميدني، المعجمية العربية في ضوء مناهج البحث اللساني والنظريات التربوية، دار

هومة، الجزائر، 2010، ص 94، 95

³ ينظر: الجرجاني، التعريفات، ص 60

⁴ السيوطي جلال الدين، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي،

محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، (دت)، 402/1

⁵ المرجع نفسه، 402/1

⁶ ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، (دت)، ص 97

فمن الذين قالوا بوجود الترادف، الأصمعي، وأبو الحسن الرماني، وابن خالويه، وحمزة بن حسن الأصبهاني.⁷ وأورد سيوييه إشارة إلى ذلك في كتابه فقال: "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين... فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو جلس وذهب، واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو ذهب وانطلق.⁸

ومن القائلين بالترادف من المحدثين، علي الجارم، وإبراهيم أنيس، وصبحي الصالح.⁹ أما المنكرون للترادف، فمنهم أبو عليّ الفارسيّ، وأحمد بن فارس، وابن درستويه، وأبو هلال العسكري الذي أبدى رأياً واضحاً وصريحاً في الإنكار عزّزه بكتابه المشهور (الفروق في اللغة).

وقد نفى ابن فارس وقوع الترادف في اللغة، لأن الشيء إذا كثرت مسمياته كان لكل مسمّى معنى يختلف عن معنى المسمّى الآخر، وذلك نحو السيف والمهند والحسام، وكذلك الأفعال، نحو: مضى، وذهب وانطلق، وقعد وجلس، ورقد ونام.¹⁰

وقال العسكري في مقدّمة كتابه (الفروق): "الشاهد على أنّ اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أن الاسم كلمة تدلّ على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرّة واحدة فعُرف، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة، وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد، فإن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان ذلك صواباً. فهذا يدلّ على أن كلّ اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان

⁷ النادري محمد أسعد، فقه اللغة مناهله ومسائله، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، بيروت، 1425هـ / 2005م، ص299

⁸ سيوييه عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح، عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، ط3، القاهرة، 1938، 24/1

⁹ ينظر: النادري، فقه اللغة، ص303، 304

¹⁰ ينظر: الرازي أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، 1993، ص97-98

في لغة واحدة، فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا كان الثاني فضلا لا يحتاج إليه، وإلى هذا ذهب المحققون من العلماء، وإليه أشار المبرّد في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]¹¹

غير أن مذهب أبي هلال العسكري في نفي الترادف تعرّض إلى انتقاد شديد من بعض المحدثين، فإبراهيم أنيس يرى أن الكتاب خال من الشواهد والنصوص اللغوية التي تكشف عن الفروق اللغوية بين الألفاظ، حيث إن العسكري "حاول فيه جهده أن يتلمّس فروقا دقيقة بين مدلولات بعض الألفاظ المترادفة دون سند من نصوص وشواهد، وليس عمله في هذا الكتاب إلا عمل الأديب صاحب الخيال الخصب الذي يرى في الأمور ما لا يراه غيره، ويتلمّس من ظلال المعاني ما لم يخطر على ذهن أصحاب اللغة من القدماء."¹²

ويبدو أن انتقاد إبراهيم أنيس لم يقتصر على مذهب العسكري وحده، بل إننا نراه في موضع آخر من كتابه (في اللهجات العربية) منتقدا بعض القدماء - وإن لم يسمّهم بأسمائهم - في إنكارهم للترادف، فيقول "إن بعض هؤلاء الذين أنكروا الترادف كانوا من الأدباء النقاد الذين يستشفّون في الكلمات أمورا سحرية، ويتخيّلون في معانيها أشياء لا يراها غيرهم، فهم قوم شديدا الاعتزاز بألفاظ اللغة، يتبنّون الكلمات، ويرعونها رعاية كبيرة، ينقبون عمّا وراء المدلولات، ساجدين في عالم من الخيال، يصوّر لهم من دقائق المعاني وظلالها ما لا يدركه إلا هم، ولا يقف عليه إلا أمثالهم، وفي كل هذا من المبالغة والمغالاة ما يأباه اللغوي الحديث في بحث الترادف، فإذا أبعدت من المترادفات تلك الكلمات التي تحايل عليها من أثبتوا الترادف، وخلقوا بينها مماثلة، كما أنه إذا أبعدت تلك الكلمات التي

¹¹ العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الفروق في اللغة، تح: لجنة إحياء التراث العربي، الدار العربية للكتاب، ط6، ليبيا، 1403هـ/1983م، ص13، 14

¹² إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط7، القاهرة، 1992، ص217

لم ترد في نص لغوي صحيح النسبة، وجدنا أنفسنا أمام عدد معقول من المترادفات في اللغة العربية.¹³

فهذا النص -وغيره من النصوص الأخرى بما تتضمنه من انتقاد لمذهب المنكرين- فيه إشارة واضحة إلى قبول الترادف، وهذه فكرة لها سندها في كتاب (دلالة الألفاظ) حيث يقول إبراهيم أنيس: "ومهما حاول بعض الاشتقاقيين من علماء اللغة كابن دريد وابن فارس وأمثالهما أو بعض الأدباء من أصحاب الخيال الذين يتلمسون من ظلال المعاني فروقا بين مدلولات الألفاظ، أقول مهما حاول هؤلاء أو هؤلاء إنكار الترادف في ألفاظ اللغة العربية، فليس يغير هذا من الحقيقة شيئا، فالترادف قد اعترف به معظم القدماء وشهدت له النصوص.¹⁴

ولم يكتف إبراهيم أنيس بوقوع الترادف في اللغة العربية، بل صرح بوقوعه في القرآن الكريم، حيث قال: "أما الترادف فقد وقع بكثرة في ألفاظ القرآن الكريم رغم محاولة بعض المفسرين أن يتلمسوا فروقا خيالية لا وجود لها إلا في أذهانهم للتفرقة بين الألفاظ القرآنية المترادفة.¹⁵

وهذا الرأي في وقوع الترادف في القرآن الكريم لم ينفرد به إبراهيم أنيس، فصباحي الصالح يذهب إليه أيضا، فالقرآن الكريم -كما يقول- "قد نزل بلغة قريش المثالية يجري على أساليبها وطرق تعبيرها، وقد أتاح لهذه اللغة طول احتكاكها باللهجات العربية الأخرى، اقتباس مفردات تملك أحيانا نظائرها، ولا تملك منها شيئا أحيانا أخرى، حتى إذا أصبحت جزءا من محصولها اللغوي، فلا غضاضة أن يستعمل القرآن الألفاظ الجديدة المقتبسة إلى جانب الألفاظ القرشية الخالصة القديمة، وبهذا نفسّر ترادف (أقسم) و(حلف) في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [النور: 53]، وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا

¹³ إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط8، القاهرة، 1990، ص178

¹⁴ إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص215

¹⁵ المرجع نفسه، ص215

وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ [التوبة: 84]، وترادف (بعث) و(أرسل)، في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وترادف (فضّل) و(آثر) في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253] وقوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 91]، فقريش كانت تستعمل في بيئتها اللغوية أحد اللفظين في هذه الأمثلة الثلاثة، وإنما اكتسبت اللفظ الآخر من احتكاكها بلهجة أخرى لها بيئتها اللغوية المستقلة، وهكذا لم نجد مناصا عن التسليم بوجود الترادف، ولا مفرّ من الاعتراف بالفروق بين المترادفات، لكن هذه الفروق -على ما يبدو- تنوسيت فيما بعد، وأصبح من حق اللغة التي ضمتها إليها، أن تعتبرها ملكا لها، ودليلا على ثرائها، وكثرة مترادفاتهما.¹⁶

واختلاف اللهجات العربية واقتباس بعضها من بعض، وكونه سببا من أسباب الترادف أشار إليه كثير من العلماء، فابن جني يقول في خصائصه: "وكَلَّمَا كَثُرَتِ الْأَلْفَاظُ عَلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ، كَانَ ذَلِكَ أَوْلَى بِأَنْ تَكُونَ لُغَاتُ لُجَمَاعَاتٍ، اجْتَمَعَتْ لِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ."¹⁷ ولكن بعض المحدثين رأى أنّ هذا التناسي لدلالات الألفاظ الأصلية هو من الآفات التي أصابت اللغة العربية، وذلك أن متكلميها مالوا مع الزمن إلى العموم في تعبيراتهم، فغابت بذلك الدقّة في اختيار ألفاظها، وغابت معها الفروق الدقيقة بينها، يقول محمد المبارك: "ولقد أصاب العربية في عصور الانحطاط المنصرمة مرض العموم والغموض والإبهام، كما أصابت هذه الآفات التفكير نفسه، فضاعت الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتقاربة، فغدت مترادفة."¹⁸

وإذا أخذنا هذا الأمر في الحسبان فإنّ أهم ملاحظة يمكن تسجيلها عن نص صبحي الصالح ونص إبراهيم أنيس تتعلق بقضيّة الفروق بين المترادفات، فالأوّل يعترف بوجودها

¹⁶ صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، 1403هـ/1983م، ص 299

¹⁷ ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، (دت)، 374/1

¹⁸ محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص 318

ولكنّه يرى أن تناسي ما فيها أدّى إلى ترادف الألفاظ، وهو ما يفسّر إيراده لألفاظ الآيات السابقة ضمن الترادف، ويبدو أن هذه النظرة يعوزها العمق في التناول، وإذا جاز لنا أن نأخذ بها، فلا يكون ذلك إلا من باب تفسير اللفظ باللفظ تقريبا للمعنى، وليس من باب الترادف اللفظي التامّ الذي يفهم منه إمكانية استعمال أحدهما بدل الآخر في السياق.

أما إبراهيم أنيس، فإنه يرى أن الفروق التي أوردها المفسّرون بين ألفاظ القرآن الكريم هي فروق خيالية ليس لها أي أساس إلا في أذهانهم، والذي يظهر لنا أن نظرة إبراهيم أنيس إلى مسألة ترادف ألفاظ القرآن الكريم انطلقت من فكرة مسبقة ولم تكن نتيجة دراسة متأنّية، لأن هذه الفروق التي يراها خيالا لم يأت بها المفسّرون من عندهم، بل احتكموا فيها إلى السياق القرآني للوقوف على دقائق المعاني بين الألفاظ التي تبدو مترادفة، فخرجوا بقاعدة أن كل لفظة فيه تنفرد بمعنى، مهما بدا لنا في القرآن من تقارب أو تشابه أو ترادف بينها وبين غيرها، وأن لاختيارها في سياقها دون غيره أسراراً ولطائف دقيقة تؤكّد حقيقة ما في القرآن من تناسب وتلاؤم، ولذلك فإن ألفاظ القرآن التي "يظن بها الترادف ليست منه، إنما وزعت بحسب المقامات، فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام آخر".¹⁹

ويعد الراغب الأصفهاني من أول من أشار إلى ذلك، حيث قال في مقدّمة كتابه (المفردات في غريب القرآن): "...وأتبع هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل بكتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وما بينهما من الفروق على المعاني الغامضة، فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكره القلب مرة، والفؤاد مرة، والصدر مرة..."²⁰

¹⁹ ينظر: الزركشي، البرهان، 78/4

²⁰ الأصفهاني أبو القاسم حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مراجعة وتقديم: وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (دت)، ص12

وقد أشار الباقلائي إلى هذا المعنى حين تحدّث عن الفرق بين لفظتي (الصبح) و(الفجر) حيث يظن أن وضع الأولى في موضع الثانية يحسن في كل كلام، ولكن الأمر بخلاف ذلك، "فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتنزل عن مكان لا تنزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكّن فيه وتضرب بجراها، وتراها في مظانّها وتجدّها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ومرمى شرار، ونائية عن استقرار".²¹

وقد كان هذا الاتجاه هو الغالب على علماء البلاغة الذين أنكروا وجود الترادف وعدّوه في حكم المعدوم، لأنّهم رأوا اختلافات بين المترادفات تظهر عند الاستعمال، ويدعو السياق الداخلي والخارجي إلى تفضيل لفظة منها على أخرى.

وتتجلى هذه الميزة بوضوح في مفردات القرآن الكريم، وكان الدارسون يميلون إلى جهة نفي الترادف بين مفرداته، وبرزت جراء ذلك جماليات تتعلق بمناسبة المفردات للمقام وما تكتسبه بذلك من طاقة وجدانية كبرى، تقبسها من الظلال الروحية التي تحيط بها داخل النص.²²

وتبرز خصوصية هذه المفردات ضمن سياقها من خلال المقارنة بين ما يبدو منها مترادفاً، وهذا يشمل الأفعال والأسماء والحروف يقول الإمام الخطابي: "اعلم أن عمود هذه البلاغة -يعني بلاغة القرآن- التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره، جاء منه إما تبدّل في المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة؛ ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب... والأمر فيها وفي ترتيبها عند العلماء بخلاف

²¹ الباقلائي، إعجاز القرآن، ص 145

²² ينظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص 27

ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها، وإن كانتا قد تشتركان في بعضها...²³

وهكذا فإن الاتجاه العام لدى البلاغيين وعلماء البيان والدارسين لإعجاز القرآن أن استعمال المفردات ضمن سياقها يبين عن فروق بينها لا يكاد يبقى معها أثر للترادف بمعناه النظري، وسنتناول هذه المسألة من خلال نماذج من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم لنبين خصوصياتها ضمن السياق.

أولاً: التناسب في الأفعال

من مظاهر التناسب السياقي المعجمي في القرآن الكريم، أن يرد التركيب في سياق ما بفعل، ويرد في سياق آخر شبيه به بفعل قريب منه دلالياً، أو مختلف عنه تماماً، ويكون لكل استعمال علاقة بالسياق، وسنستدل على ذلك ببعض الأمثلة.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60]، وفي سورة الأعراف: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: 160].

فأوثر في الآية الأولى التعبير بلفظ (فانفجرت)، وأوثر في الثانية لفظ (فانبجست)، وقد يظهر للوهلة أن الانبجاس مرادف للانفجار، ولكنهما غير ذلك، فأية البقرة تلاها قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 60]، فلما جمع بين الأكل والشرب هنا ناسب ذلك ذكر الانفجار من بعده فكان أبلغ، ومعناه انصباب الماء بكثرة، بينما تلا آية

23 الخطابي حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف

الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ط4، القاهرة، (د ت)، ص26

الأعراف قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:160]، حيث اقتصر على لفظ الأكل، وهذا ناسبه ذكر الانبجاس، ومعناه ظهور الماء.²⁴

فلم يكن الاختلاف في التعبير باللفظ مجرد التنويع فيه، بل هو لمراعاة ما يناسب كل سياق.

ولابن الزبير الغرناطي كلام لطيف في توجيه الاختلاف بين الآيتين السابقتين حيث يقول: "إن الفعلين وإن اجتماعا في المعنى فليسا على حد سواء، بل الانبجاس ابتداء الانفجار، والانفجار بعده غاية له... وإذا تقرّر هذا فأقول: إن الواقع في (الأعراف) طلب بني إسرائيل من موسى -عليه السلام- السقيا، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ [الأعراف:160]، والوارد في البقرة طلب موسى -عليه السلام- من ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة:60]، فطلبهم ابتداء فناسبه الابتداء، وطلب موسى -عليه السلام- غاية لطلبهم لأنه واقع بعده ومرتب عليه... فقل جوابا لطلبهم، لأنه واقع بعده ومرتب عليه... فقل جوابا لطلبهم: (فانبجست). وقيل إجابة لطلبه: (فانفجرت)."²⁵

وهكذا فإن السياق هو علة استعمال الفعل (انبجست) في آية البقرة، والفعل (انفجرت) في آية الأعراف، وزال عن الذهن ما كان يبدو بينهما من ترادف.

وقد يرد فعلا مختلفان في المعنى ضمن تركيبين متشابهين، فيتوهم أن استعمالهما مجرد تنويع في التعبير، ولكننا بالتأمل في سياق كل فعل منهما نجد أن الأمر غير ذلك، ومن ذلك فعلا النهي الواردان في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة:187]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:229].

²⁴ ينظر: الكرمان، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 30

²⁵ ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 212/1، 213

فقد خصّت الآية الأولى بـ (فَلَا تَقْرُبُوهَا) لأنه تقدّم فيها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: 187]، بينما الآية الثانية تقدّم فيها قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229]، فلمّا كان الحد الأول نهيًا وهو عدم المباشرة أُمرَ بترك مقاربتة والابتعاد عنه، ولما كان الحد الثاني أمرًا، وهو بيان عدد الطلاق أمر بترك مجاوزته أو الاعتداء عليه.²⁶

وبذلك ندرك أن كل لفظ جاء في سياقه الأنسب وفي موضعه الأليق.

ومن أمثلة اختلاف الأفعال كذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَكَأَيُّ مَن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: 45]، وقوله تعالى: ﴿كَأَيُّ مَن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: 48].

فقد ذكر الإهلاك في الآية الأولى لاتصالها بقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الحج: 44]، و(أخذتهم) متضمّن معنى الإهلاك، وهو قرينة رجّحت إثارته في الآية التي تلتها، وخصّت الآية الثانية بذكر الإهلاك لتقع الموافقة بينها وبين الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: 47]، فيكون المعنى: وكأين من قرية أمهلتها ولم أعجل عليها عند استعجالها العذاب.²⁷ فنرى أن السياق القريب سواء أكان في الآية نفسها التي تتضمّن التركيب أم في آية أخرى تقدّمت عليها كفيل ببيان وجه التناسب في اختيار ألفاظ الأفعال واختلافها بين السور.

ومن اختلاف الأفعال ضمن السياقات المتشابهة ما ورد في سورتي النمل والزمر، حيث قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: 87]

²⁶ المرجع نفسه، 1/ 258 - 260

²⁷ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 133

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68]

فقال في النمل: (ففرع)، وقال في الزمر: (فصعق)، وهما فعلاّن مختلفان في المعنى، وإنما خصّت كل سورة بفعل لمقتضى استدعاه، فأية النمل وافق ما فيها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: 89]، أما آية الزمر فقد وافق ما فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، لأن (صعق) متضمّن معنى (مات).¹ فناسب كل فعل مكانه الذي وضع فيه.

ونلاحظ مما سبق أن القرائن اللغوية التي تعلّل اختلاف الأفعال المستعملة في التشابهات القرآنية إما أن تكون ضمن الآية التي ورد فيها التركيب وإما أن تكون خارجها، وهي تختلف من حيث مضمونها، فمنها ما يكون للتناسب والتماثل اللفظي بين الأفعال المستعملة في التشابهات، ومنها ما يكون للتناسب المعنوي، فيكون وجه إيراد هذا الفعل أنه يناسب فعلا آخر تضمّن معناه، ومنها ما يكون للمخالفة اللفظية والمعنوية معا.

وقد يكون روح السورة العام هو ما يدعو إلى اختيار أفعال بعينها، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 11] أوتر الفعل (أتى)، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾ [النمل: 8] استعمل الفعل (جاء)، وباستقراء سورة (طه) نجد أن ألفاظ (الأتیان) فيها أكثر منها في (النمل)، وأن ألفاظ (النجي) في سورة النمل أكثر منها في سورة (طه).²

وقريب من هذا ما جاء قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [النحل: 34]، وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا

¹ المرجع نفسه، ص 133

² المرجع نفسه، ص 30

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية:33]، وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر:48].

فقد ورد الفعل (عملوا) في الآيتين الأولى والثانية، وجاءت الآية الثالثة بالفعل (كسبوا).

وإنما خُصَّت كل آية بفعل تحقيقا للمناسبة بين ما قبلها وما بعدها، حيث وقعت آيتا النحل والجاثية بين ألفاظ العمل، ووقعت آية الزمر بين ألفاظ الكسب.¹

ففي سورة النحل قوله تعالى: ﴿فَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:28]، وقوله تعالى: ﴿وَتُوفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:111]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النحل:119]

وفي سورة الجاثية: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:28]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:29]، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية:30] وجاء في سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:24]، وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:50]، وقوله: ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:51].

ونخلص إلى أن السياق العام في كل سورة هو الذي يضيف عليها سمة تعبيرية خاصة تختار من أجلها هذه اللفظة أو تلك، وهذا من وجوه التناسب في الاستعمال القرآني للألفاظ.

ثانيا: التناسب في الأسماء

قد تختلف المتشابهات القرآنية في استعمال الأسماء بإبدال لفظ منها مكان لفظ آخر، وإذا تأملنا هذا الاختلاف وجدناه أمرا له حكمته ولا تناقض فيه، ويستند في تعليقه إلى

¹ المرجع نفسه، ص111، 112، 167

قرائن السياق، ذلك أن ألفاظ القرآن — كما ذكرنا — موضوعة كلها في الموضوع المناسب، وكل لفظ منها لا يقوم غيره مقامه.

ومن النماذج القرآنية التي يمكن الاستشهاد بها على ذلك ما جاء في قوله تعالى على لسان مريم - عليها السلام -: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: 47]، حيث استعمل لفظ (ولد)، بينما استعمل لفظ (غلام) في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [مريم: 20].

فأما استعمال لفظ (ولد) في آل عمران فيرجع إلى أن الآية تقدمها ذكر (المسيح)، أما آية (مريم) فقد تقدمها ذكر (الغلام).¹ فناسب كل لفظ مكانه.

ولفاضل السامرائي كلام دقيق في هذا السياق حيث يقول: "أما بالنسبة إلى استعمال الولد مع مريم فهو المناسب أيضا؛ ذلك أن الله بشرها بكلمة منه اسمه المسيح، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: 45]، والكلمة أعم من الغلام، فهي تصح لكل ما أراد الله أن يكون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، والولد أعم من الغلام، فالولد يقال للذكر والأنثى، والمفرد والجمع، قال تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39]، فلما بشرها بالكلمة وهي عامّة، سألت بما هو أعم من الغلام وهو الولد، فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص، ألا ترى في سورة مريم حين بشرها رسول ربها بالغلام قائلا: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19]، قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: 20] فناسب كل تعبير مكانه.² وهو تناسب معنوي في الأول، وتناسب لفظي في الثاني.

¹ المرجع نفسه، ص 45

² فاضل صالح السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، ص 30 - 32

ومن الأمثلة التي تستند في تعليل اختيار الاسم إلى قرائن سابقة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:104] حيث اختير لفظ (المؤمنين) لأنه تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:103]، بينما حُصِت سورة النمل بلفظ (المسلمين) في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:91]، لأن هذا اللفظ ورد ذكره في آية سابقة هي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل:81]، وكما نلاحظ فإن هذا التناسب قائم على المماثلة اللفظية التي اقتضت وضع كل لفظة موضعها اللائق بها.

ومن ذلك أيضا إيثار التعبير بلفظ (خيرا) في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ [النساء:149]. وإيثار التعبير بلفظ (شيئا) في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:54].

وقد ذكر في توجيه هذا الاختلاف أن اللفظ (خيرا) هو لفظ خاص، واللفظ (شيئا) لفظ عام، فكان اختيار لفظ (الخير) في سورة النساء لأنه بإزاء (السوء) الوارد في قوله تعالى قبلها: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء:148]، فاقتضت هذه المقابلة هنا أن يُجعل (الخير) بإزاء (السوء).¹ وهو من باب التناسب القائم على المخالفة اللفظية.

وأما كلمة (شيء) فإنها ناسبت السياق أيضا، حيث وقع بعد آية الأحزاب قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:60] الذي اقتضى العموم، وأعم الأسماء لفظ (شيء)، كذلك فإن

¹ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص54

هذه الكلمة ناسبت ما وقع بعدها في الآية ذاتها¹ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 54]، وهذا من باب التناسب القائم على مبدأ المماثلة اللفظية. وتجلى هذا المبدأ في أمثلة أخرى كثيرة، كما في سورة النحل التي خُصت بالاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96] بينما خُصَّت سورة الزمر بالاسم الموصول (الذي)، وذلك أن كلتا الآيتين وافق الاسم الموصول المستعمل فيها الاسم الموصول الذي ورد قبله في آيات سبقت.²

فآية النحل تقدّم فيها ذكر الاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 95]، أما آية الزمر فتقدم فيما ذكر الاسم الموصول (الذي) في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: 35]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33]

وهكذا فإن إبدال اسم باسم في المتشابهات قوامه تحقيق التناسب والتلاؤم التام بين الاسم وموضعه، وذلك بحسب ما يقتضيه السياق.

¹ المرجع نفسه، ص 54

² المرجع نفسه، ص 38

ثالثا: التناسب في الضمائر

ونعني به استعمال الاسم ظاهرا في موضع وضميرا في موضع مشابه له، كما هو شأن الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 101].

حيث أسند فعل (الطبع) إلى ذات الله بلفظ الجلالة (الله) وهو اسم ظاهر، أما في آية يونس فقد ورد فعل (الطبع) مسندا إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: 74] ووجه التناسب بين كل من الاسم والضمير وسياقهما أن آية الأعراف تقدّم فيها ذكر (الله) بالكناية قبلها فاستدعى ذلك ذكره بالصریح في ختامها.¹ فقول: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100] ثم قيل بعدها: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 101]

أما سورة يونس فإن فعل (الطبع) فيها وافق الأفعال التي وردت فيها مسندة إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع في الآيات التي وردت قبلها، وهي كذلك مسندة إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع.² قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ [يونس: 73] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [يونس: 75]. ومن ذلك أن يرد اسم (إن) اسما صريحا في تركيب وضميرا في تركيب مشابه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: 31]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27].

¹ المرجع نفسه، ص 80

² المرجع نفسه، ص 80. وينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص 108

وسبب هذا الاختلاف أن الآية الأولى تقدّمتها آية لم يذكر فيها لفظ الجلالة صريحا، ولذلك أظهره فيما بعد، أما آية (الشورى) فقد تقدّم فيها الاسم ظاهرا فخصّ بالكناية بعد ذلك في السياق نفسه.¹

ففي سورة فاطر تقدّم قوله تعالى: ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:30]، وفي آية (الشورى): ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:27]، فوافق كلّ لفظ بصيغته موضعه الأنسب به، وهذا التناسب كما نرى قائم على مبدأ المخالفة، وهي أن يُظهر الاسم إذا تقدم في السياق إضماره، ويُضمّر إذا تقدم إظهاره، لأن الضمير يستند إلى ما يذكر قبله أو بعده مما يفسّره.

وقد يكون التناسب في إبدال اسم بضمير مبني على مبدأ المماثلة كإظهار المضاف إليه وإضماره، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر:61]، ورد المضاف إليه اسما ظاهرا (أكثر الناس)، بينما ورد ضميرا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:60]. ووجه الإظهار في الآية الأولى أن المضاف إليه (الناس) ورد ظاهرا في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:57]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:59]، أما علّة الإضمار في الآية الثانية فهي ورود الآية قبلها بالإضمار في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:55].

وقد يكون تناسب استعمال الألفاظ الظاهرة والمضمرة متصلا بترتيب السور في المصحف، وذلك كورود المفعول به ضميرا متصلا في جملة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ﴾ [الأعراف:82]، ووروده اسما ظاهرا في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ

¹ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص159

مِنْ قَرَيْتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:56]، فسبب هذا الاختلاف في استعمال اللفظ ظاهراً ومضمراً أن ما في سورة الأعراف كناية فسرها ما في السورة التي بعدها،¹ فترتيب السورتين في المصحف مناسب للإضمار في الأولى والإظهار في الأخرى.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف:123]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه:71]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الشعراء:49].

فالفاعل في الآية الأولى اسم ظاهر هو (فرعون)، وهو ضمير في الآيتين الآخرين، ووجه التناسب في ذلك أن سورة الأعراف متقدمة على سورتي (طه) و(الشعراء)، فلذلك صرح بالاسم في الأولى، وكنى به في الآخرين.²

وهذا يدل على أن السورة القرآنية قد تكون سياقاً لغيرها من السور، فيقع التناسب والتلاؤم فيما بينها، مما يؤكد أن القرآن الكريم نص واحد يفسر بعضه بعضاً.

وقد يكون الداعي إلى إضمار الاسم أو إظهاره هو اختلاف المخصوص بالخطاب، ففي قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:4] أضمّر الاسم المجرور العائد إلى ذات الله تعالى، بينما أظهر في قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [هود:4]، وذلك أن الخطاب في الآية الأولى للمؤمنين والكافرين جميعاً، أما الخطاب في الآية الثانية فهو للكفار وحسب³، لأن الآية الأولى جاء فيها قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:4]، أما الآية الأخرى فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:3].

¹ المرجع نفسه، ص79

² المرجع نفسه، ص83

³ المرجع نفسه، ص92

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: 8]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: 10]، فقد أُبدل الضمير في (كم) بلفظ (مؤمن) لأن المقصودين من الخطاب في الآية الأولى هم الكفار، أما المقصودون في الآية الثانية فهيهم اليهود.

ومن خلال ما سبق نخلص إلى أن إظهار الاسم وإضماره يجد تعليله من القرائن السياقية المقالية أو الحالية، والثابت في كل ذلك أن هناك تناسبا بين الاسم والسياق الوارد فيه.

رابعا: التناسب في الفواصل

تنتهي الآية القرآنية بفاصلة تنسجم موسيقيا مع باقي فواصل الآي الأخرى في السورة، ولهذا الفاصلة قيمة خاصة لأنها "عنصر يؤدي وظيفة مزدوجة في نظم الآية، فهو من ناحية يتصل بالمعنى ويتممه، ومن ناحية أخرى يتصل بنظام الفواصل وينسّقها".¹ وإذا كانت الألفاظ القرآنية المفردة قد اختيرت لسر من أسرار التناسب السياقي، فإن هذا الأمر يتجلى أكثر في فواصل الآي، وهي "أولى بالعناية لأنها تجمع بين الوظيفتين المعنوية والإيقاعية، وبلاغة الكلام تقتضي أن يراعى في اختيارها أن تكون قادرة على الوفاء بحق المعنى، وحق التناسب الإيقاعي في آن واحد".² وهذه ميزة واضحة في القرآن الكريم.

والفاصلة من الكلمات التي قد يقع الاختلاف في استعمالها لا سيما ما يتعلق بالآيات المتشابهة في السورة الواحدة أو في سور مختلفة، حيث تحتّم الآية بلفظ، وتختّم مثلتها بلفظ مختلف، سواء أكان هذا اللفظ فعلا أم اسما.

¹ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 352

² المرجع نفسه، ص 356، 357

وإذا كان الانسجام الموسيقي أو الصوتي ممّا قد يؤثر في نوع الألفاظ الفواصل، فإن السياق بصفة عامّة من شأنه أن يفسّر الاختلاف بين هذه الألفاظ على نحو تتكشف معه أسرار التناسب والانسجام بينها وبين سياقاتها.

ففي سورة الحشر مثلاً جاءت الفاصلتان مختلفتين في تركيبين متشابهين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: 13]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14].

ولا شك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم موسيقياً وخواتم الآيات الأخرى في هذه السورة، لكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي ختمت بها كل آية؛ ذلك أن الفاصلة الأولى متصلة بقوله تعالى قبلها: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: 13]، والمعنى أن خوف هؤلاء المنافقين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشد من خوفهم من الله تعالى، فهم يرون ظاهر الشيء من دون باطنه فلا يفقهون، والفقه معرفة الظاهر والباطن،¹ فناسب ذلك نفى الفقه عنهم، ونفى فهمهم وانسلاخهم عن النظر والتدبر والتوفيق.²

أما الفاصلة الثانية فمتصلة بقوله تعالى قبلها: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: 14]، أي أنهم "لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا".³ فهم لا يثبتون على شيء، وليس عندهم قانون يقفون عنده ويرتبطون إليه، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، والعقل مشتق من قولهم: عقلت البعير إذا ربطته بعقال وهو الحبل، فلما نفى عنهم الارتباط مع وصفهم بشتات القلوب أخبر الله تعالى أن سبب ذلك أنهم لا يعقلون،⁴ فناسب هذه الفاصلة الآية التي ختمت بها.

¹ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 183

² ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1077/2

³ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 183

⁴ ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1078/2

ومما اختلفت فيه الفاصلة باختلاف السياق قوله تعالى في سورة (المنافقون): ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:7]، وقوله في الآية بعدها: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:8].

فختم الآية الأولى — (لا يفقهون)، وختم الثانية — (لا يعلمون)، وبالنظر إلى ما تقدم كل آية، نجد أن الفاصلة (لا يفقهون) متصلة المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون:7]، وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة وفقه، وهذان ليسا من صفات المنافقين،¹ فافتضى ذلك وصفهم بنفي الفقه عنهم، أما الفاصلة (لا يعلمون) فمتصلة بقوله تعالى في ذات الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:8]، والمنافقون لا يعلمون أن الله معزّ لأوليائه ومذلّ لأعدائه²، فناسب ذلك وصفهم بنفي العلم عنهم، فكانت كل فاصلة أنسب لموضعها وأوفق لنسقتها.

ومن النماذج التي تعلّق فيها معنى الفاصلة بآيات غير آيتها التي وردت فيها ما جاء في سورتي التكوير والانفطار في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:6]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار:3]

وقد اجتهد ابن الزبير الثقفي في توجيه هذا الاختلاف فذهب إلى أن "سورة التكوير إنما خصّت بلفظ (سُجِّرَتْ) ليناسب ما جاء معه في سياقه من ألفاظ تتحد في إبراز معنى الجمع والحشر والحشد، قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا

¹ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص183

² ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1078/2

النُّفُوسُ زُوجَتْ ﴿التكوير: 1-7﴾، فتكوير الشمس، وانكدار النجوم، وحشر الوحوش، وتزويج النفوس، وتسجير البحار، كله اجتماع وائتلاف يناسب بعضه بعضا.¹

أما المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ في سورة الانفطار فهو فتح بعضها إلى بعض، واختلاط العذب بالمالح، "وإنما خُصت سورة الانفطار بلفظ الانفجار، ليناسب مطلع السورة وافتتاحها، ألا ترى في انفجار العذب إلى المالح، والمالح إلى العذب، وبعضها إلى بعض انفطارا يناسب انشقاق السماء وانفطارها... فانفطار السماء، وانفطار البحار، وبعثرة القبور، وانتشار النجوم، كل ذلك متناسب أوضح تناسب وأبينه."² وبذلك تكون كل فاصلة أنسب بسياقها.

ومن أمثلة الفواصل، الأسماء التي اختيرت تحقيقا للتناسب السياقي من جانب المعنى، إثثار لفظ (المبطلون) في قوله تعالى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78] ولفظ (الكافرون) في قوله تعالى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 85]، وقد وافقت كل فاصلة سياقها الذي وقعت فيه، فالأولى وهي (المبطلون) وردت في سياق الحديث عن الحق، ونقيض الحق هو الباطل، بينما وردت الأخرى (الكافرون) في سياق الحديث عن الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر³، وهو كما نرى تناسب يقوم على نوع من الصلة بين الألفاظ ضمن الحقل الدلالي نفسه.

وفي سورة المجادلة وردت الفاصلة (أليم) في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 4] بخلاف فاصلة الآية التي بعدها وهي (مهين) في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: 5]. وإنما كان هذا الاختلاف في الفاصلتين، "لأن الأول متّصل بضده وهو الإيمان، فتوعد على الكفر بالعذاب الأليم الذي هو جزاء

¹ المرجع نفسه، 1138/2

² المرجع نفسه، 1138 /2

³ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 169

الكافرين،¹ فقال في الآية: ﴿ذَلِكَ لِيُثَبِّرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وِتْلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:4]، أي أن الله قد شرع لكم الحدود، فمن التزمها ولم يتعدها فذلك المؤمن، ومن تنكّب عنها وحاد فتلك صفة الكافرين، ووصف العذاب بالإيلاام ليكون أوقع، وذلك يبين التناسب.²

أما الثاني فمتّصل بقوله تعالى: ﴿كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة:5]، "وهو الإذلال والإهانة، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال: (مهين)."³ فلما تضمّنت كل آية معنى مختلفا، ناسب ذلك أن ختمت كل منهما بالفاصلة التي توافقه.

وإذا كان السياق اللغوي يقتضي أن تختم الآية بفاصلة معيّنة، فإن في بعض عناصر سياق الحال ما يعلّل الاختلاف في فواصل الآيات المتشابهة، من ذلك تغيّر طرفي الخطاب، أي المتكلّم والمخاطب.

فمما تغيّرت فيه الفاصلة بتغيّر المتكلّم قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص:27]، وقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات:102]. فالأوّل من كلام شعيب — عليه السلام — والمعنى: من الصالحين في حسن المعاشرة والوفاء بالعهد، أما الثاني فهو من كلام إسماعيل عليه السلام.⁴ ومنه أيضا ما جاء في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:22] ففصلت الآية — (مُهْتَدُونَ)، وفصلت الآية التي بعدها — (مقتدون): ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:23]، ووجه المناسبة في هذا الاختلاف بين الفاصلتين أن الكلام في

¹ المرجع نفسه، ص182

² ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 2/ 1075

³ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص182

⁴ المرجع نفسه، ص145

الآية الأولى هو "من كلام العرب في محاجّتهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وادّعائهم أنّ آبائهم كانوا مهتدين، فنحن مهتدون... والثانية حكاية عمّن كان قبلهم من الكفار، وقد ادّعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء، فاقتضت كل آية ما خُتِمت به."¹

ومن أمثلة اختلاف الفاصلة لاختلاف المخاطب، قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52].

فلما كان الخطاب في سورة الأنبياء للكفار أمرهم بالعبادة التي هي التوحيد، فناسب ذلك أن تكون الفاصلة (فاعبدون)، أما الخطاب في سورة (المؤمنون) فهو للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين والأنبياء، وهم مأمورون بالتقوى، فناسب هذا المعنى أن تكون الفاصلة (فاتقون)،² قال ابن جماعة: "وأما قوله: (فاعبدون) فلأنه خطاب لسائر الخلق، فناسب أمرهم بالعبادة والتوحيد ودين الحق، وقوله تعالى: (فاتقون) خطاب للرسول، فناسب الأمر بالتقوى."³

وقد يكون اختلاف الفاصلة لاختلاف سبب التزول كما في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 18]، وفي الآية التي بعدها: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18].

وسر هذا الاختلاف أن الأولى نزلت في النصارى حين قالوا: (إن الله هو المسيح بن مريم)، أما الثانية فنزلت في اليهود والنصارى معا حين قالوا: إنهم أبناء الله وأحباؤه.⁴

¹ المرجع نفسه، ص 145

² الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 130-131

³ ابن جماعة، كشف المعاني، ص 146

⁴ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 56

أما اختلاف الفواصل لاختلاف المقصود بالخطاب فكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، وقوله تعالى بعده: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

فاختلفت الفواصل لاختلاف من نزلت فيهم آياتها، ف_____ "...الأولى
نزلت في أحكام المسلمين، والثانية في أحكام اليهود، والثالثة في أحكام النصارى."¹
وبهذا يتأكد لدينا أن فاصلة الآية ترتبط بسياقها وتتناسب مع المعنى الذي تتضمنه، وهو
تناسب مطّرد في القرآن الكريم، ولذلك فإن كل تغيير للفاصلة من شأنه أن يخل بالمعنى
ويفسد النظم.

خامسا: التناسب في الحروف

من الكلمات التي اختلف استعمالها بحسب السياق، حروف المعاني على اختلافها، وأكثر ما جاء منها حروف العطف كاستعمال (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]. واستعمال (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 85].

وهذا الاختلاف بين الحرفين له علة يمكن إدراكها من السياق، فالآية الأولى جاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة 54]، حيث ورد الفعل فيه بلفظ المستقبل المتضمن لمعنى الشرط، أي إن يكن منهم ذلك فجزاؤهم هو (فلا تعجبك أموالهم) بالفاء المتضمنة لمعنى الجزاء.²

¹ المرجع نفسه، ص 58، 59

² ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، ص 594

أما الآية الثانية فتقدمها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 85]، وهو "بلفظ الماضي ومعناه، والماضي لا يتضمن معنى الشرط، ولا يقع من الميَّت فعل، فكان الواو أحسن.¹

فالسباق الذي تقدّم كل آية وما تضمّنه من معنى هو ما استدعى استعمال الفاء في الموضع الأول والواو في الموضع الثاني، وهذا من التناسب المعنوي.

وقد يكون التناسب لفظيا إذا كان السبب الداعي إليه لفظيا، كاستعمال الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 21]، لأن هذه الآية تقدمها قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتِكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19]، وهي آية عطف بعضها على بعض بالواو.²

أما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 17] فقد استعملت الفاء للعطف، لأنها جاءت عقب قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16]، حيث كان العطف بالفاء.³

ومن قبيل التناسب اللفظي ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: 9] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44].

¹ الكرمانلي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 88

² المرجع نفسه، ص 61

³ المرجع نفسه، ص 61

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: 21]

حيث ورد الاستفهام بالهمزة التي تليها الواو، بخلاف الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: 82]، فقد ورد بالهمزة التي تليها الفاء، وبالنظر إلى ما سبق كل آية من الآيات الثلاث السابقة، نجد أن آية الروم تقدمها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الروم: 8]، وتلاها: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضِ﴾ [الروم: 9]، وآية فاطر تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: 44]، أما آية غافر الأولى فتقدمها ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [غافر: 20] وهي كلها بالواو، والأخرى تقدمها ﴿فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: 81]، وتلاها ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: 82]، فناسبها مجيء الاستفهام بالهمزة التي تليها الفاء.

ومن نماذج الاختلاف في استعمال حروف العطف، أن يرد النظم القرآني مرةً بالحرف (ثم) كما في قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: 11]، وفي مرات أخرى يرد بحرف الفاء كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، وقوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: 36]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: 69]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42].

فقد خُصَّت سورة الأنعام بـ (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي، وأما باقي السور فكان العطف فيها بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب.

وسبب التخصيص في هذه السورة أنه تقدّم فيها ذكر القرون في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [الأنعام:6]، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6]، أي أن السير والنظر في هذه السورة كلٌّ مأمورٌ به على حدة، فكان استعمال (ثم) هنا أولى، أما سائر السور الأخرى فلم يتقدّم مثله فيها، فحسُن العطف بالفاء.¹

فالعطف — (ثم) يقتضي مهلة زمنية، أما العطف بالفاء فلا يقتضي ذلك، ولما تضمّنت آية الأنعام من هذه المهلة ما دلّت عليه القرائن المذكورة في الآية السادسة ناسب ذلك مجيء العطف بـ (ثم).

ومن مظاهر الاختلاف في استعمال الحروف ما يتعلّق بحروف الجر، حيث تختلف التراكيب القرآنية المتشابهة فيما بينها في تخصيص كل تركيب أو آية بحرف جرّ معيّن، ولا شك أن لهذا التخصيص أسبابه ودواعيه التي يمكن تلمسها من السياق.

من ذلك ما جاء من اختلاف في استعمال حرفي الجر (اللام) و(إلى) في موضعين متشابهين هما قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:2] وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان:29] فمع أن القياس في سورة لقمان أن يقال: (لأجل مسمّى) فإنه لما تقدّم فيها ما يوافقه التركيب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان:22]، ناسب ذلك دخول (إلى) فيه.²

وذهب ابن جماعة إلى أن دخول (إلى) في آية لقمان إنما حصل ليوافق ما قبله وما بعده، فلما "تقدّم هنا ذكر البعث والنشور بقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعُثُكُمْ﴾ [لقمان:28]،

¹ المرجع نفسه، ص60. وينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص93

² ينظر: الكرمان، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص103، 104

وبعدها (وَآخِشُوا يَوْمًا) [لقمان:33]، ناسب ذلك مجيء (إلى) الدالة على انتهاء الغاية، لأن القيامة غاية جريان ذلك.³

ومن هذا ما جاء من اختلاف في استعمال حرفي الجر (اللام) و(على) في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت:8]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان:15].

فالمصدر المؤول (أن وما دخلت عليه) في الآية الأولى وقع اسما مجرورا بحرف اللام، بينما وقع في الآية الثانية مجرورا بحرف الجر (على)، وهذا الاختلاف بينهما إنما يعين على إدراك سرّه ما ورد في السياق من القرائن، فما في سورة العنكبوت ناسب ما كان قبله لفظاً،⁴ وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهِدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت:6]، حيث إن الاسم الواقع بعد الفعل (يجاهد) هنا مجرور باللام، وهو ما اقتضى استعمال اللام في الآية بعدها، وليس في سورة لقمان مثل ذلك.

والذي يستنتج من الأمثلة السابقة أن قرائن السياق اللغوي تسهم بوضوح في إبراز التناسب بين الحرف المستعمل وموضعه من السياق، وقد يكون هذا التناسب معنوياً أو لفظياً تبعاً للسبب الداعي إليه، ومن شأن قرائن السياق أن تسهم في بيان التناسب بين الحرف وموضعه في الآية.

وقد يسهم في إبراز التناسب والتلاؤم بين الحرف وسياقه ما يصحبه من قرائن السياق المقامي أو سياق الحال، وأكثر ما جاء منها يتعلق بالمخاطب، ومن أمثلته ما جاء من استعمال الواو و(ثم) في قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمٍ

³ ابن جماعة، كشف المعاني، ص166

⁴ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص148

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» [التوبة: 94]، وفي قوله تعالى: ﴿فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» [التوبة: 105].

فسبب هذا الاختلاف في استعمال الحرفين، أن الآية الأولى تَضَمَّنَتْ وعيدا لأنها
تتحدّث عن المنافقين، فكان استعمال (ثم) التي تفيد التراخي إشارة إلى أن هذا الوعيد لن
ينالهم عقابه في الدنيا وإنما سيتأخر، أما الآية التي بعدها فإنها حديث عن طائفة من
المؤمنين، فكان قوله (سترّدون) يتضمّن وعدا، وهذا من شأنه أن يكون جزاؤه قريبا في
الدنيا والآخرة لذلك جاء بالواو.⁵

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ
عَنْهَا» [الكهف: 57] حيث اقترن الفعل (أعرض) بالفاء التي تفيد التعقيب، بخلاف ما في
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا» [السجدة: 22] حيث
ورد بعد حرف العطف (ثم) الذي يفيد التراخي.

ومجيء الفعل مقترنا بالفاء يرجع إلى كون المخاطبين في سورة الكهف غير المخاطبين
في سورة السجدة، فالمخاطبون في الأولى هم الأحياء من الكفار، والإعراض كان منهم
عقيب التذكير، فناسب ذلك العطف بالفاء، ويمكن الاستدلال على كونها في هؤلاء بما
تقدّم قبل في الآية، وهو ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ» [الكهف: 56]، أما السورة
الثانية فهي في الأموات من الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو
رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» [السجدة: 22]، والمعنى أنهم ذكروا مرة بعد أخرى، وزمانا بعد
زمان، ثم كان الإعراض منهم عن التذكير بالموت،⁶ لذلك كان حرف العطف (ثم) هو
الأنسب لهذا الموضع.

⁵ المرجع نفسه، ص 91. وينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1/598-600

⁶ ينظر: الكرمان، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 121

ومن أمثلة اختلاف استعمال حرف الجر لاختلاف المخاطبين قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: 136] حيث نجد أن حرف الجر المستعمل هو (إلى)، بينما استعمل حرف الجر (على) في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: 84].

وسرّ ذلك أن ما في (البقرة) هو خطاب للأنبياء وللأمة، والكتب منتهية إليهم جميعاً، بينما الخطاب في آل عمران للنبي صلى الله عليه وسلم، فكان الذي يليق به (على) المختص بجانب الفوق.⁷

ويمكننا أن نتميز اختلاف المخاطب من خلال سياق الآيتين، فالأولى جاءت بلفظ (قولوا) والثانية جاءت بلفظ (قل).

ومن هذا القبيل أيضاً، استعمال حرف الجر (عن) في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13]، واستعمال (من) في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 41]، فمع أن الآيتين في اليهود، فإن "الأولى في أوائل اليهود، والثانية فيمن كان في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أي حرّفوها بعد أن وضعها الله مواضعها، وعرفوها وعلموا بها زماناً.⁸ أي أن الآية الأولى تتحدّث عن أوائل اليهود الذين حرّفوا التوراة قبل زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أما الثانية فتتحدّث عن قوم من اليهود في زمن نزول الوحي، حرّفوها بعد أن وضعها الله مواضعها.

وإذا رجعنا إلى سياق الآيتين، والثانية منهما خاصة، وجدنا أن قوله تعالى: "(من بعد) يفيد أن التحريف كان بعد السماع بمدة أو بزمان، وفي هذا يقول ابن جماعة: إن "(عن) لما قرّب من الأمر، و(بعد) لما بُعد.⁹ وهو تأكيد لكلام الكرمانى السابق.

⁷ المرجع نفسه، ص 35

⁸ المرجع نفسه، ص 56

⁹ ابن جماعة، كشف المعاني، ص 87

وبالنظر إلى ما سبق فإن هناك علاقة وثيقة بين سياق الحال والسياق اللغوي، وتضافرهما هو من الحقائق التي يبنى عليها التناسب بين الحروف وسياقاتها في القرآن الكريم.

وهكذا فإن نظم الآية يتصل أشد الاتصال وأوثقه بالمعنى، وهناك تناسب مطّرد بين الفواصل وسياقاتها التي تدلّ عليها القرائن اللغوية والحالية، ويظهر هذا التناسب بالمقارنة بين التراكيب المتشابهة، ولذلك فإن كل تغيير للمعنى أو تبديل للفاصلة في الآية يُفسد النظم ويُخل بالتناسب.

الفصل الرابع

التناسب التركيبي

رأينا فيما سبق أن اختيار الألفاظ في الآيات القرآنية يخضع لأوجه مختلفة ودقيقة من التناسب، وأن المفردة القرآنية توضع في موضعها بدقة متناهية وإحكام تام، وإذا كان هذا شأن النظم القرآني مع الألفاظ المفردة وما ينطوي عليه اختيارها من أسرار تناسبية، فماذا عن التراكيب؟ وهل يمكن التماس أسرار استعمال الجمل والتراكيب في مواضعها وسياقاتها، وكيف تشكّل التراكيب المتشابهة قرائن لإدراك هذا التناسب بين التركيب وسياقه؟

يعود الفضل في عناية علماء البلاغة والإعجاز بالتراكيب وأحوالها ووظائفها البيانية إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي أسّس دعائم نظريته في النظم على معاني النحو، حيث عالج التراكيب التي جرت العادة أن تُدرس في النحو من الوجهة الفنيّة البلاغية، فكان النظم الذي رسّخ مفهومه بلاغةً نحوية أو نحواً بلاغياً، يقول عبد القاهر الجرجاني: "ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها".¹⁰

تناول عبد القاهر في كتابه (دلائل الإعجاز) وجوها كثيرة عالج من خلالها أحوال التراكيب وظواهرها مما يتعلّق بالتقديم والتأخير، والتنكير والتعريف، والحذف والزيادة، والفصل والوصل، والإظهار والإضمار وغير ذلك.

وقد أدرك الجرجاني ما تتميز به الجملة العربية من مرونة في التركيب وسعة في إمكانات الترتيب، ودعاه هذا الأمر إلى أن يربط مزيّة النظم بحسن الاختيار من بين الوجوه الكثيرة المحتملة للتركيب العربي، ذلك أن "الاختيار كلمة تؤذن أن يتوفّر لك غير وجه من وجوه

¹⁰ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 101

القول، وغير طريقة من طرائق الاستعمال، وبذلك يمكن لاختيارك أن يفضل اختيار غيرك فيكون لك مزية عليه.¹¹

وإذا كان النظم استثمارا لإمكانات النحو اللامتناهية، فإنه -مثل النحو- ذو طاقات إبداعية لا حصر لها، وهو في حقيقته نظوم متنوعة متجددة، يكون فيها باب خلق التراكيب والأساليب وابتكارها مفتوحا أبدا.¹²

وحين سار الدرس البلاغي أشواطا بعد ذلك نحو الاكتمال والضبط والتفريع، لم يكد يخرج عما كان بدأه الجرجاني بشأن علم المعاني وأحوال التراكيب والقوانين التي تضبطها، كل ذلك وفق قاعدة التناسب بين التركيب وسياقه، وهو ما عبر عنه البلاغيون بقولهم: (لكل مقام مقال).

لقد جعل عبد القاهر الفروق المعنوية بين التراكيب من دلائل الإعجاز، وأناط فصاحة الكلام بخصائص التراكيب، إذا كان كل عنصر من عناصر الجملة في الموضع الذي يناسب مقتضى الحال، وتقتضيه صورة المعنى في النفس.

وإذا كان النظم في مستوياته الصرفية والمعجمية اختيارا للألفاظ والصيغ بما يحقق التناسب بين مكونات النص، أو بين النص والعوامل الخارجية ضمن سياق الكلام، فإن النظم في مستواه التركيبي هو كذلك اختيار لنمط التركيب الذي يحقق مطلب التناسب، ويكون ذلك بالمواءمة بين قوانين النحو وغرض المتكلم وحال السامع وعناصر السياق المختلفة، وهو الأمر الذي أُلح عليه الجرجاني، وكان عليه مدار كتابه (دلائل الإعجاز).

إن وجوه النحو وفروقه كثيرة يصعب ضبطها على غير المتمكن من ناصية اللغة والنحو وعلم البيان كما قال الجرجاني، ولكنه نبّه على أنّ المزية ليست بواجبة لهذه الفروق في

¹¹ محمد عمر الصماري، النحو عند عبد القاهر الجرجاني (ضمن أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني)

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، 1998، ص 18

¹² المرجع نفسه، ص 17

أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض لها المزية بحسب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض.¹³

واستغلال تلك الفروق والمواءمة بينها وبين مقاصد الكلام هما مجال اجتهد المتكلم، وإذا لم يكن للمتكلم تصرف في بنية الكلمة، فإن له مجالا واسعا في ترتيب الكلمات ضمن التراكيب بحسب ما يريد من المعاني والأغراض، وقد جعل عبد القاهر نظم الكلم كتركيب الأصابع وتأليف الصور والنقوش، فكلّ منهما يتطلّب مهارة في التأليف بين الأجزاء لإبداع صورة كلية فنية منسجمة اعتمادا على اختيار أنسب الأجزاء ووضعها في أليق المواضع، "فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى في الأصابع التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخيّر والتدبّر في أنفاس الأصابع وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إيّاها إلى ما لم يتهدّد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيّهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنّها محصول النظم".¹⁴

ويمكن أن نستخلص بعد هذا أن التناسب التركيبي هو اختيار أنسب التراكيب للسياق. ويتجلّى هذا الأمر أكثر من خلال مقارنة بعض التراكيب القرآنية المتشابهة التي تختلف أحوالها باختلاف سياقها، وذلك ببناء التركيب تقديمًا وتأخيرًا وحذفًا وذكرًا وفق ما يتطلبه السياق.

أولاً: التقديم والتأخير

ظاهرة التقديم والتأخير من الظواهر التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياق، فتقديم لفظ (أو مجموعة ألفاظ) في موضع وتأخيره في موضع آخر لا يأتي إلا لغرض في الكلام يحقق مبدأ

¹³ ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106

¹⁴ المرجع نفسه، ص 106

التناسب السياقي، وهذا الغرض تدلّ عليه قرائن قد تكون مقالية تمثل السياق اللغوي، أو تكون قرائن حالية تمثل سياق الحال أو المقام.

وفيما يأتي نعرض نماذج للتقديم والتأخير في ألفاظ المتشابهات القرآنية لتبيّن ملامح إسهام السياق في تحديد هيئة التركيب.

1 - تقديم كلمة على كلمة

من بين الحالات التي يتجلّى فيها أثر السياق في بنية التركيب، ما نجده من تقديم المفعول وتأخيره في تركيبين متشابهين، وقد وقع ذلك في سورة (المؤمنون) و(النمل) حيث قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ [المؤمنون: 83] وقال في السورة الأخرى: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [النمل: 68].

ووجه تقديم المفعول (هذا) في الأولى أنّه جاء على القياس، وذلك أنّ "الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكّد بالمنفصل، فأكد (وَعِدْنَا نَحْنُ) ثم عطف عليه (آبَاؤُنَا)، ثم ذكر المفعول وهو (هذا)، وقدم في النمل المفعول موافقة لقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَتِنَا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: 67]، لأن القياس فيه أيضا: كُنَّا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا تُرَابًا، فقدم (ترابا) ليسدّ مسدّ (نحن).¹⁵

و يرى ابن جماعة أنّه لما تقدّم في سورة (المؤمنون) ذكر آبائهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون: 81]، وهم آبائهم، ناسب ذلك تقديم المؤكّد وهو (نحن) ليعطف عليه الآباء المقدم ذكرهم، ثم تأخير المفعول الموعود لهم جميعا وهو (هذا)، أما آية (النمل) فلم يُذكر فيها الأولون، بل قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النمل: 67]، فناسب ذلك تقديم المفعول الموعود، ثم ذكر المؤكّد ليعطف عليه ثم لم يُذكر أوّلا.¹⁶

¹⁵ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 135، 136

¹⁶ ابن جماعة، كشف المعاني، ص 151

وقد يتقدّم المفعول على معطوفه في سياق ويتأخّر في سياق آخر كتقديم ذكر النفع في سورة (الأعراف)، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف:188]، ولكنّه أُخّر في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس:49].

ووجه التناسب في تقديم النفع في آية (الأعراف) أنّه وقع في سياق سؤال الكفار النبيّ - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة، وتكرّر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَاتِّكَ حَقِّيْ عَنْهَا﴾ [الأعراف:187]، أي عالم بها، وكان ظاهر السّياق يشير إلى أنّهم كانوا يظنون أن النبيّ يعلمها، فطلبوا منه تعريفهم بها وأن يخصّصهم بذلك، ولا شكّ أن العلم بالشيء فيه نفع لصاحبه، فكان تقدّم ذكر النفع إشارة إلى ما ظنّوه أنه عنده من علمها، فأعلمهم - عليه الصلاة والسلام - أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً.

وأما تأخير ذكر النفع في آية (يونس) وتقدّم الضرّ عليه فهو لمراعاة ما وقع في السياق قبله، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:48]، ذلك أن الكفار طلبوا تعجيل العذاب استهانة وتكديبا، ولم يعلموا ما في طلبهم من المحنة والمضرة العاجلة، فقال لهم النبيّ - صلى الله عليه وسلم - بأمر الله تعالى: إني لا أملك الضر والنفع لنفسي ولا لكم، فقدّم الضرّ هنا لأجل ما تقدّم من طلبهم.¹⁷

وللكرماني توجيه آخر استند فيه إلى قرائن السياق اللغوي فقال: "أكثر ما جاء في القرآن من لفظي الضرّ والنفع معاً جاء بتقدّم لفظ (الضرّ) على النفع، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أوّلاً، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً، يقوّيه قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:16]، وحيث تقدّم النّفع على الضرّ، تقدّم لسابقة لفظ تضمّن نفعاً".¹⁸

¹⁷ ينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1/ 577

¹⁸ الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 84

ويستشهد الكرمانى على ذلك بما ورد من القرائن اللغوية كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: 188].

فلما تقدّم لفظ الهداية - وهو أمر فيه نفع - على لفظ الضلال - وهو شيء ضار - وتقدم لفظ الخير - وفيه من النفع ما فيه - على لفظ السوء الذي يحمل معه الضرر، ناسب ذلك أن يتقدّم النفع على الضرر في الآية.

2 - تقديم كلمة على شبه الجملة:

مما اختلف فيه الترتيب بين الكلمة وشبه الجملة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 14] حيث تأخر الجار والمجرور عن المفعول في قوله (مواخر فيه)، بينما تقدّم في آية (فاطر) حيث قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: 12].

ووجه تأخير (الجار والمجرور) في الأولى أن الآية جاءت في سياق مبنيّ على تأخير المجرورات وحروفها عما تعلّقت به، وجرى الكلام على نسق واحد للتناسب والتشاكل، فقول: (لتأكلوا منه)، و(تستخرجوا منه)، و(مواخر فيه)، ولو قيل هنا: فيه مواخر لما ناسب ما تقدّم.

وأما سورة (فاطر) فإن آيتها مبنية على تقدّم الجار والمجرور على ما تعلّق به، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، فناسب ذلك تأخر العامل في المجرور الثاني أيضاً، ليتناسب الكلام ببناء آخره على ما بُني أوّلُه.¹⁹

ومن الكلمات التي تقدّمت على الجار والمجرور في سياق وتأخرت عنه في سياق آخر الأسماء الموصولة الواقعة صفة كما قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

¹⁹ ينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 2/ 734، 735

قَوْمِهِ ﴿[المؤمنون:24] حيث تقدّم الاسم الموصول (الذين) على الجارّ والمجرور (من قومه)، ولكنه تأخّر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ﴾ [المؤمنون:33].

ووجه ذلك أن صلة الموصول (الذين) في الآية الأولى اقتضت على الفعل والفاعل (كفروا)، فلم يكن داعٍ يستوجب التأخير، أما في الآية الثانية فليس الأمر كذلك، حيث إنّ صلة الموصول قد طالت، وهو ما أوجب تقديم الجارّ والمجرور، لأنّ في تأخيره التباساً، وفي توسّطه ركافة، فخصّ بالتقديم²⁰، وبذلك حصل التناسب وزال الالتباس.

3- تقديم شبه جملة على شبه جملة

لا يقتصر التقديم والتأخير على الألفاظ المفردة، بل إن الجمل وأشباهاها يعتريها ما يعتري الألفاظ المفردة من تقدّم وتأخّر يستدعيه السياق ويطلبه المعنى.

فقد يتقدّم شبه الجملة على شبه الجملة في تركيب، ويتأخّر عنه في تركيب مشابه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:72] حيث قدّم شبه الجملة (بأموالهم) على شبه الجملة (في سبيل الله)، وهذا خلاف قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة:20].

ووجه التناسب في آية الأنفال أن السياق قبلها تضمّن ذكر المال والفداء والغنيمة، في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال:67]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:68]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ [الأنفال 69]، فناسب هذا تقديم إنفاق الأموال في سبيل الله.²¹

²⁰ ينظر: الكرمان، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص134، 135

²¹ المرجع نفسه، ص68

أما آية التوبة فتقدم فيها شبه الجملة (في سبيل الله) على (بأموالهم) لأن ذكر الجهاد قُدِّم قبل في السورة²²، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة:16]، وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:19]، فكان تقديم الجهاد هو الذي يناسب ذلك.

وذهب ابن جماعة إلى أن سبب تقديم (في سبيل الله) هنا هو ما تقدم في السورة من ذكر افتخار المسلمين بعمارة المسجد الحرام على المجاهدين، فناسب ذلك تقديم الجهاد في سبيل الله على ذكر الأموال لأنه أهم.²³

وقد يلتمس تعليل تقدم شبه الجملة وتأخيرها من خارج السورة، كما وقع في تقديم شبه الجملة (على شيء) في سورة البقرة وتأخيرها في سورة إبراهيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة:264]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:18]، فوجه التقديم أن "الأصل ما في البقرة"²⁴ باعتبارها أولى السور في ترتيب المصحف.

وبمثل هذا وجه تقدم الجار والمحرور (به) في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:173] وتأخره في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة:3] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل:115]، وقوله تعالى: ﴿أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام:145]، فتقدمه في سورة البقرة هو الأصل "ليُعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر، وهو الذبح لغير الله، وتقديم ما هو الغرض أولى، ولهذا جاز

²² المرجع نفسه، ص86

²³ ينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص112

²⁴ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص107

تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال، والظرف على العامل فيه²⁵، وفي هذا دليل على كون القرآن نصّا واحدًا يفسّر بعضه بعضًا.

²⁵ المرجع نفسه، ص 37

4 - تقديم جملة على جملة

ما تقدمت فيه الجملة على الجملة قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: 40].

وقوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]، ففي الآية الأولى تقدمت الجملة (بلغني الكبر) على جملة (امرأتي عاقرة)، ولكن الآية الأخرى وردت بعكس الترتيب.

ووجه التناسب في تقديم ذكر الكبر في آية مريم أنه تقدم فيها ذكر الكبر في قوله تعالى: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: 4]، وتأخر ذكر المرأة في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 5]، ثم أعاد ذكرها فأخّر ذكر (الكبر) ليوافق (عتيا) ما بعده من الآيات، وهي (سويا)، و(عشيا) و(صبيا).²⁶

وإلى هذا ذهب ابن الزبير الثقفي فذكر "أنّ المعنى وإن كان في السورتين واحداً وفي قضية واحدة، فإن مقاطع آية سورة (مريم) وفواصلها استدعت ما يجري على حكمها ويناسبها... أما آية آل عمران، فلم يتقدم ما قبلها وما بعدها بمقطع مخصوص، فجرت هي على مثل ذلك."²⁷

ومن النماذج التي ورد فيها التقديم والتأخير جريا على ما عليه نسق السياق قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: 62].

فتقديم جملة (لا إله إلا هو) في الآية الأولى يحمل على ما تقدم ضمن سياقها من ذكر الشركاء والبنين والبنات في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ

²⁶ المرجع نفسه، ص 45

²⁷ ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1/ 298، 299

بَيْنَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿[الأنعام:100]﴾، فناسب ذلك تقديم الوصف بالوحدانية ونفي الشريك والولد عن الله تعالى.

وأما الآية الأخرى، فقد سبقها ذكر الخلق في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:57] ثم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:61]، فلما تقدّم ذكر الخلق الأعظم هنا، أعقب ذلك بالتنبيه على أنّه سبحانه وتعالى خالق كلّ شيء، فكان تقديم الوصف بأنه خالق كلّ شيء أولى وأنسب للسياق ووفق ما يقتضيه انتظام الكلام.²⁸

وهكذا فإن قرائن السياق اللغوي ذات أثر بارز في بنية التراكيب وما يكون ضمنها من تقديم وتأخير بين المفردات والجمل، والأمر ليس مجرد تنويع في التعبير، بل هو نسق منظم للأسلوب يقوم على تناسب دقيق وانسجام تامّ بين الكلام وسياقه.

5 - سياق الحال وعناصر المقام:

يشكّل سياق الحال بعناصره المختلفة وسيلة هامة في معرفة معاني الآيات ودلالاتها، ولذلك فإن كثيرا من بني التراكيب يستند في تحليلها إليه، وأبرز عناصر المقام التي يمكن تناول أثرها ضمن مبحث التقديم والتأخير عنصرا المخاطب وأسباب النزول.

فمن نماذج أثر المخاطب ما ورد من تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء:125]، وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة:8].

ووجه المناسبة في تقديم ذكر الجار والمجرور (لله) في الآية الأولى أنّه "متّصل بالشهادة، بدليل قوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ﴾ [النساء:135]، أي ولو أن تشهدوا

²⁸ المرجع نفسه، 468 / 1

عليهم، وفي (المائدة) منفصل ومتّصل بقوامين، والخطاب للولاة بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: 8].²⁹

فلما كان الخطاب في آية المائدة موجّهاً إلى الولاة ورد التركيب فيها بتقديم الجار والمجرور (لله)، أمّا آية (النساء) فيفهم من خلال ما تقدّم فيها من آيات أنّ الخطاب موجّه إلى فئة من الناس غير الولاة، وهم الأزواج، وبذلك كان اختلاف المخاطبين قرينة حالية، دلّت على سبب مجيء التركيب على صورته في كل سياق.

أما أسباب النزول، فلا شك أنّها -على تنوّعها- تعين على فهم الآيات وتوجيه بنية التراكيب، فكانت معرفتها ضرورية للوقوف على أسرار بني التراكيب القرآنية بشكل عام، والمتشابهات منها بشكل خاص.

ومن نماذج ذلك ما جاء من تقديم وتأخير بين لفظ المغفرة والعذاب، فـ "القاعدة في الأسلوب القرآني، حيثما ورد ذكر الرحمة والعذاب أنّ يقدّم ذكر الرحمة ويؤخّر ذكر العذاب، وخرج عن هذه القاعدة مراعاة لما يناسب السياق في مواضع³⁰، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 40].

فوجه تقديم العذاب في هذه الآية أنّها وردت في سياق ذكر حكم قطاع الطريق والمحاريين والسّراق، وعذاب هؤلاء يقع في الدنيا، فكان تقديم العذاب هو الذي يناسب ذلك.³¹

ونلاحظ أنّ سبب النزول هنا تعلّق بحكم شرعي هو إقامة الحدّ على السارق.

²⁹ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 54

³⁰ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 200

³¹ المرجع نفسه، ص 200. وينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 43

وقد يتعلّق سبب النزول بأمر تشريعي فيكون علّة للتقديم والتأخير كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: 120] حيث وقع لفظ (هدى الله) اسماً لـ (إن) بينما وقع خبراً لها في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73].

ووجه التناسب بين اسم إن (هدى الله) وموضعه في الآية الأولى أنّ الهدى في سورة البقرة "معناه القبلة، لأن الآية نزلت في تحويل القبلة، وتقديره: قل إن قبلة الله هي الكعبة"³²، أما في سورة آل عمران فإن معناه هو الدين، والتقدير: قل إن دين الله الإسلام.³³

وقد يتّصل سبب النزول بسؤال نزلت الآيات جواباً له فيرد التقديم والتأخير في التراكيب بما يناسب ذلك، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: 89] تأخّر قوله: (في هذا القرآن) عن قوله: (للناس)، ولكنه وقع بخلاف ذلك في سورة الكهف (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) [الكهف: 54].

ومع ما يمكن أن يبدو من كون هذا الاختلاف تنويع وتصرف في الكلام فحسب، فإن معرفة سبب النزول يبين أن الأمر محكوم بقرائن السياق، فتقديم قوله: (في هذا القرآن) على قوله: (للناس) في سورة الكهف إنما حصل لأن ذكر القرآن فيها كان جلّ الغرض، فاليهود سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قصّة أصحاب الكهف، وعن قصّة ذي القرنين فكان جوابه لهم وحياً من الله أوحاه إليهم في القرآن، لذلك تقدّم لفظه في هذا الموضع.³⁴

³² الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 47، 48

³³ المرجع نفسه، ص 47، ينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص 63

³⁴ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 117

ويتبين لنا من خلال الأمثلة السابقة، أن التقديم والتأخير بين التراكيب له غاية معنوية تطلبها السياق العام، وأن كلّ لفظ أخذ مكانه المناسب ضمن التركيب للتعبير عن المعنى المراد.

ثانيا: الحذف والذكر

الحذف والذكر من الظواهر التي يتجلى فيها أثر السياق بوضوح، فحذف جزء من الخطاب في سياق وذكره في سياق مشابه لا يكون إلا محققا لوجه من أوجه التناسب بين هيئة التركيب ونسق السياق، سواء أكان العنصر المحذوف حرفا، أم كلمة، أم شبه كلمة، أم جملة.

وسنحاول من خلال النماذج الآتية اكتشاف الصلة بين ظاهرتي الحذف والذكر والسياق بنوعيه، اللغوي وغير اللغوي.

1 - حذف حرف:

من نماذج حذف الحرف، حذف لام التوكيد في موضع وذكرها في موضع آخر، كما جاء في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27] وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: 31].

فالخبر في الآية الثانية ذكر مقترنا باللام، خلافا للآية الأولى، وبالنظر إلى سياق الآيات في كل سورة، نجد أن اقتران اللام بالخبر في آية (فاطر) وخلوّه منها في آية (الشورى) كان موافقا لما ورد في سياق الآيتين، فحيث حذفت اللام وافقت حذفها في الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 34]، أي أن التمام النظم كان في الحالين متحققا، وأن الحذف والذكر إنما وقعا بما يوافق السياق.

وقد يكون السياق الذي يحذف من أجله الحرف في موضع ويذكر في موضع آخر هو الآية ذاتها كحرف الجرّ (الباء) الذي حُذف من لفظتي (الزبر) و(الكتاب) في قوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184]، بينما تكرر ذكره معهما في قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: 25]. ووجه الحذف في الآية الأولى أن الكلام فيها مبني على الاختصار، والفعل فيها مبني للمجهول،

وهو لا يحتاج إلى ذكر الفاعل ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: 184]، كما أن لفظ الماضي في الشرط أخفّ، فهذه القرائن كلّها اقتضت حذف الباءات في الآية، أما الآية الأخرى، فقد وقع فيها خلاف ذلك تماما، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: 25]، فالشرط فيها بلفظ المستقبل، والفعل مبني للمعلوم، والفاعل مذكور معه، فوافق ذلك ذكر الباءات ليكون كلّه على نسق واحد، على سبيل المجانسة والمشاكلة.³⁵

ومن أمثلة حذف حرف الجرّ وذكره مراعاة للسياق ما جاء في سورتي (النحل) و(الحج)، حيث قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: 70]، وفي سورة الحج: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: 5].

ف قيل في الآية الأولى: (بعد علم) بحذف (من)، وقيل في الثانية: (من بعد علم) بذكره. ووجه الذكر في الآية الثانية أن هذا الحرف تكرر في سياقها عدة مرات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ [الحج: 5]، فقد تكرر الحرف (من) في هذه الآية في ستة مواضع: الخمسة منها قبل قوله (من بعد علم) وكلّها أفادت معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله (من بعد علم)؛ إذ النظم مع سقوطها ملتئم، والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمه،

³⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص 49، 50

فاستدعاها سياق الآية للتناسب في النظم³⁶، أما آية (النحل) فلم يكن داعٍ يستدعيها من المعنى ولا من التناسب في النظم فحذفت.³⁷

ويرى الكرمانى أنّ الحديث عن الخلق في كلتا الآيتين كان بصورتين مختلفتين، وهو الدّاعي إلى الحذف أو الذكر؛ ففي سورة (النحل) كان الحديث مجملاً، وهو في سورة (الحج) مفصّل، "فاقتضى الإجمال الحذف والتفصيل الإثبات، فجاء في كلّ سورة بما اقتضاه الحال"³⁸.

ويصدق هذا التعليل من الكرمانى على ما جاء في سورتي (البقرة) و(الأعراف) من حذف لحرف العطف (الواو) وذكر له في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 58]، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 161] فزيادة واو العطف في (وسنزيد) إنّما وقعت لأن المتقدّم قبل، قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 40]، وتعداد النعم يستدعي تفصيلها شيئاً بعد شيء، فناسب ذلك العطف بالواو ليجري على ما تقدّم من تعداد تلك النعم وضروب الإنعام بالعفو عن الزلات والامتنان بضروب الإحسان، أما (الأعراف) فلم يرد قبلها ما ورد في سورة البقرة.³⁹

وقد يكون ترتيب السور من دواعي الحذف أو الذكر في التراكيب القرآنية، مما يدل على أن القرآن نص واحد، ففي قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: 23] ذكر

³⁶ ينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 2/ 748، 749

³⁷ ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 205

³⁸ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 49، 50

³⁹ ينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل 1/ 207، 208

حرف الجر (من)، ولكنه حذف من سورة (يونس) في قوله تعالى ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس:38]، ووجه ذلك أنه "لما كانت هذه السورة [يعني البقرة] سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة حسن دخول (من) فيها ليعلم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره، وغيرها من السور لو دخلها (من) لكان التحدي واقعا على بعض السور دون بعض".⁴⁰

فالقرآن هو سياق واحد يحيل بعضه على بعض، أسلوبه متماسك الأجزاء، منسجم المقاطع بما يجعله نصا متكاملا متناسب الأجزاء، سواء أكان ذلك بالتمائل بين التراكيب أم بالمخالفة بينها.

ومن الحروف التي وقع حذفها في موضع وذكرها في موضع آخر تحقيقا للتناسب حرف (الفاء)، حيث ذكر في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:135]، بينما هو محذوف في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود:93]، فأما ذكره في آية الأنعام فهو متعلق بما ورد في ذات الآية، حيث تقدمها قوله: (قل)، فأمرهم أمر وعيد بقوله: (اعملوا)، أي اعملوا فستجزون، أما سورة (هود) فليس فيها قوله: (قل)، فصارت جملة (سوف تعلمون) استثناء للكلام.⁴¹

وفي كلام ابن الزبير مزيد توضيح، حيث يرى أن آية (الأنعام) لما افتتحت بأمر الله تعالى نبيه -عليه السلام- بوعيدهم في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ قَوِيَّ فيها تقدير معنى الشرط المنجز تقديره في الأوامر، لافتتاحها بأمره تعالى نبيه عليه السلام، ثم أمره -عليه السلام- لهم في قوله: (اعملوا)، فاعتضد ما يستدعي الجوابية

⁴⁰ الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص25

⁴¹ المرجع نفسه، ص51

بالفاء، فوردت في الجواب المبني على الشرط المقدّر بعد هذا الأمر، أما آية هود فهي إخبار للنبي -صلى الله عليه وسلم-، لذلك ضعف فيها تقدير الشرط فلم تدخل الفاء.⁴²

وبذلك حصل بين كل آية وأسلوبها تناسب معنوي التأم معه النظم وتناسبت أجزاءه. ومن أمثلة هذا التناسب كذلك ما ورد من ذكر الحرف (أن) وحذفه في موضوعين متشابهين وهما: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: 33]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ [هود: 77]، فقد اتّصل (أن) بـ (لَمَّا) فدلّ على أنّ الجواب وقع في الحال من غير تراخ⁴³، وكان قوله تعالى: ﴿سَيِّءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: 33]، قرينةً حسنً بها ذكر (أن)، أمّا حذفه في سورة (هود)، فقد وقع لأنّ الجواب فيها اتّصل به كلامٌ بعد كلام⁴⁴، إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: 81]، فكلام الرسل جاء بعد طول حديث عن قوم لوط في هذه السورة، بخلاف ما وقع في سورة (العنكبوت)، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: 33].

وهكذا نجد أن للنظم القرآني في استعمال الحروف ذكرا وحذفا نظاما ونسقا يتعلق بالسياق، والثابت في ذكر الحرف وحذفه هو تحقيق مبدأ التناسب السياقي، وقد برزت هذه الحقيقة بمقارنة طائفة من الآيات المتشابهة في التركيب والمختلفة في بعض جزئيات النظم.

⁴² ينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1/ 477

⁴³ الكرماي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 141، 142

⁴⁴ ينظر: أبو يحيى زكريا، فتح الرحمن، ص 418، 419

2- حذف كلمة:

قد تكون الكلمة المحذوفة اسما ظاهراً، وقد تكون ضميراً، من ذلك كلمة (حُسناً) الواقعة تمييزاً في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت:8]، فقد حذفت في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان:14].

وبيان وجه التناسب في ذكر هذه الكلمة وحذفها، أنّها ذُكِرتُ في سورة العنكبوت لأنّه تقدّم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:07]، ولما كان برّ الوالدين من أحسن الأعمال ناسب ذكر الإحسان إليهما.⁴⁵ أما حذف الكلمة في سورة لقمان، فلأنّه تقدّمها قوله تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:14]، الذي تضمّن معنى الإحسان، فقام هذا المعنى مقام ما حُذِف.⁴⁶ وقد يقع الحذف والذكر في المفعول به كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء:41]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾ [الأعراف:113].

ووجه ذكر هذا اللفظ في سورة الأعراف أنّها الأولى في ترتيب المصحف بالنسبة إلى سورة الشعراء التي حذفت منها،⁴⁷ وذلك من مظاهر التناسب والتماسك النصي في القرآن الكريم.

وقد يكون الحذف والذكر في الضمائر كالضمير المنفصل (هو) الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:62]، وحذف في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان:30].

⁴⁵ ينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص161

⁴⁶ ينظر الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص147. وينظر: ابن جماعة، كشف المعاني،

ص161، 162

⁴⁷ ينظر الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص81

ويعزى هذا الاختلاف إلى أنه "لما تقدم في سورة الحج ذكر الله سبحانه وذكر الشيطان أكدّهما، فإنه خبر وقع بين خبرين، ولم يتقدم في لقمان ذكر الشيطان، فأكدّ ذكر الله تعالى وأهمّل ذكر الشيطان".⁴⁸

ذلك أنه ذكر الشيطان في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج 53، 52]، فلما تضمنت هاتان الآيتان القرينة المذكورة، ناسب ذلك ذكر الضمير (هو) من آية (الحج).

وقريب من هذا ذكر الضمير المنفصل (هم) في سورة (النحل) في قوله تعالى: ﴿أَفَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: 72] وحذفه في سورة (العنكبوت) في قوله تعالى: ﴿أَفَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: 67]. وتوجيه هذا الاختلاف أن ما في سورة النحل اتصل بقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: 72]، وكان في الآية التفات من المخاطب إلى الغائب، وحتى لا يلتبس هذا بذاك، ولا تلتبس التاء بالياء، كان التقييد بالضمير (هم)، بخلاف ما في سورة (العنكبوت)، فإنه اتصل بآيات استمرت على الغيبة فيها كلّها، فلم يكن من داعٍ إلى التقييد.⁴⁹

⁴⁸ المرجع نفسه، ص 134

⁴⁹ المرجع نفسه، ص 114

3 - حذف شبه الجملة

من نماذج حذف شبه الجملة ما ورد في قوله تعالى من سورة الروم: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: 46] حيث حُذِفَ الجار والمجرور (فيه) بعد لفظ الفاعل (الفلك)، وذكر في سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: 12].

وبالنظر إلى سياق كل آية نجد أن آية (الروم) تقدّم فيها ذكر الرياح فكان تقدير الكلام: لتجري الفلك بالرياح بأمر الله تعالى، أمّا آية العنكبوت فقد تقدّم فيها ذكر البحر، فكان تقدير الكلام هو: لتجري الفلك في البحر بأمر الله.⁵⁰

فلا يمكن إذن أن يكون الحذف حيث كان الذكر، إذ إن لكل منهما سياقه الذي استدعاه، فجاء الحذف مناسباً للسياق الأول، وناسب الذكر السياق الثاني.

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت: 62] ذكر الجار والمجرور (له)، ولكنه حذف في قوله تعالى من سورة القصص: ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: 82].

ووجه المناسبة بين الجار والمجرور (له) وسياقه في الآية الأولى، أن تقدير الكلام فيها هو: الله يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده أحياناً ويقدر له أحياناً، أي أن الرزق يتسع مرة ويضيق أخرى، وذلك أنه اتّصل بقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: 60]، وفيه عموم، ولذلك فصله بقوله: (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ)، والضمير في شبه الجملة (له) يعود إلى (من) في هذه الآية.⁵¹

⁵⁰ المرجع نفسه، ص 153

⁵¹ المرجع نفسه، ص 149، 150

أما آية القصص "فتقدّمها قصة قارون، فناسب الحال الثاني، أنّه ييسط الرزق لمن يشاء مطلقاً لا لكرامته كقارون، ويقبضه عمّن يشاء لا لهوانه كالأنبياء الفقراء منهم".⁵²
وبهذا يتبيّن لنا سرّ الاختلاف بين التركيبين، فكلّ منهما ناسب خصوصية السياق، وهو من خصائص النظم القرآني.

وقد يكون تعليل الحذف والذكر في التراكيب اعتماداً على ترتيب السور القرآنية، ففي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام، 5] ذكر الجار والمجرور (بالحق) وما بعده، وحذف في سورة (الشعراء) من قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: 6]؛ وبيان ذلك أن سورة (الأنعام) متقدّمة في ترتيب المصحف على سورة (الشعراء) فدلّ تقييد التكذيب فيها بقوله: (بالحق) على ما حذف في آية (الأنعام) فلم يذكر فيها هذا التقييد.⁵³

ومن هذا القبيل، حذف الجار والمجرور (منه) وذكره في سورتي (النساء) و(المائدة)، في قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: 43]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: 6]، وسرّ ذلك أنّ ذكر (منه) في آية (المائدة) فيه زيادة بيان، فاختصّت هذه السورة بذلك لتأخّرها في الترتيب الثابت في المصحف، إذ البيان يتأخّر عمّا هو بيان له⁵⁴، ففي سورة (النساء) ورد ذكر بعض أحكام الوضوء والتيمّم، أمّا المذكور في (المائدة) فجميع أحكامها،⁵⁵ وهذه صورة أخرى من صور التّناسب المعنوي بين أجزاء النظم القرآني.

⁵² ابن جماعة، كشف المعاني، ص 163

⁵³ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 59

⁵⁴ ينظر ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1/ 344

⁵⁵ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 51، 52

4 - حذف جملة:

قد تكون الجملة المحذوفة فعلية وقد تكون اسمية، فمن الأولى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:10]، حيث حذفت الجملة الفعلية (أقبل) المذكورة في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:31]، ووجه تخصيص سورة النمل بقوله (لا تخف) أنه بُني على ذكر الخوف كلام يليق به، وهو قوله: (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، أما في سورة (القصص) فافتصر على قوله: (لا تخف)، ولم يُن عليه كلام، فذكر قبله (أقبل) ليكون في مقابلة (مدبراً)، أي: أقبل آمناً غير مدبر ولا تخف.⁵⁶ فناسبت كل جملة موضعها الأحق بها في الآية.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التغابن:9]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الطلاق:11].

فلاحظ أن جملة جواب الشرط (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) المذكورة في الآية الأولى، حذفت في الآية الثانية، وسبب ذكرها في سورة التغابن أنها ناسبت ما ورد في سياق آيات سبقتها في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتَنْبُؤَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:6،7]، فهاتان الآيتان تضمنتا إنكار الكفار لهداية الرسل، وإنكارهم للبعث، وكلها من السيئات، لذلك ذكر في

⁵⁶ المرجع نفسه، ص163

الآية قوله: (يُكَفِّرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)، بينما لم يأت ذكر هذه السيئات في سورة الطلاق، فجاء في كل سورة بما يوافقها.⁵⁷

ومن أمثلة الجملة الاسمية الدائرة بين الحذف والذكر ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84].

فجملة (وما أوتي) ذكرت في سورة (البقرة) لكنّها حذفت في سورة (آل عمران) لأن ذكر الأنبياء و(الإيتاء) قد تقدّم في هذه السورة، وهو ما أغنى عن إعادة ذكره أي الإيتاء،⁵⁸ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: 81]، وليس في سورة (البقرة) ما يُغني عن ذكره فلم تحذف الجملة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 173]، ذكرت الجملة الاسمية (فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)، بينما حُذفت هذه الجملة في سورتي (الأنعام) و(النحل)، يقول الكرمانلي: "لما قال في الموضع الأول: (فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) صريحاً كان نفي الإثم في غيره تضميناً، لأن قوله: (غَفُورٌ رَحِيمٌ) يدلّ على أنه لا إثم عليه."⁵⁹ والظاهر أن الذكر صراحة كان في سورة البقرة بعدها أولى السور، أما السورتان

⁵⁷ المرجع نفسه، ص 185

⁵⁸ المرجع نفسه، ص 35

⁵⁹ المرجع نفسه، ص 47

الأخريان فتأتيان بعدها في ترتيب المصحف، مما يعني أن مراعاة ترتيب السور في المصحف هو من معايير بيان أوجه التناسب في القرآن الكريم.

ونستخلص مما سبق أن قرائن السياق اللغوي على اختلافها هي من أسس بيان التناسب بين التراكيب وسياقاتها من حيث ما يعتري هذه التراكيب من حذف أو ذكر.

5 - سياق الحال وعناصر المقام:

تتعدد عناصر المقام التي تعلل الحذف والذكر في الآيات، فنجد منها المخاطب وأسباب التزول والموقف.

ومن أمثلة التراكيب التي اختلفت في ما بينها حذفاً وذكرًا بحسب اختلاف المخاطب ما جاء في سورة الزمر، حيث قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: 71].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: 73] فنلاحظ أن الآية الأولى وردت فيها جملة (حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابها) من دون (واو)، ووردت في الآية الأخرى بذكر (الواو)، وهي واو الحال، أي: جاؤوها وقد فتحت أبوابها.⁶⁰

وبتأمل سياق كل آية نجد أن الخطاب في الأولى هو عن الكفار، وهم يأتون جهنم وبابها مغلق، حتى إذا وقفوا عنده فتح في وجوههم فجأة ليكون ذلك أشد عليهم، فناسب هذا المعنى حذف الواو من الآية، أما الخطاب في الآية التي بعدها فهو عن المؤمنين المتقين الذين يأتون الجنة وقد فُتحت أبوابها لهم قبل مجيئهم إليها استعدادا لاستقبالهم، فيكون ذلك إكراما لهم وإدخالاً للسرور على قلوبهم، فناسب هذا المعنى ذكر (الواو) وإثباتها.⁶¹

⁶⁰ المرجع نفسه، ص 168

⁶¹ ينظر: ابن جماعة، كشف المعاني، ص 176، 177. وينظر: أبو يحيى زكريا، فتح الرحمن، ص 498،

ومن اختلاف المخاطبين ما يؤدي إلى حذف كلمة في موضع وذكرها في موضع مشابه، كما في سورة (الحجر) حيث قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 74]، فذكرت ههنا كلمة (إخوانا)، ولكن حذفت في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ النَّهَارُ﴾ [الأعراف: 43].

وبيان ذلك أن المقصودين بالخطاب في سورة (الحجر) هم أصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- أمّا المقصودون به في سورة (الأعراف) فهم المؤمنون عموماً.⁶² فكان الحذف في موضعه أنسب، كما كان الذكر بموضعه أوفق.

وقد يكون المحذوف والمذكور في موضعين متشابهين هو شبه الجملة من الجار والمجرور كما في قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ [المجادلة: 2]، حيث ذكر هنا شبه الجملة (منكم)، وحذف في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: 3].

ووجه مناسبة كل خطاب لسياقه "أنّ الأوّل خطابٌ للعرب، وكان طلاقهم في الجاهلية الظّهار، فقيّده بقوله: (منكم)، وبقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُنَّ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: 2]، ثم بيّن أحكام الظّهار للناس عامّة فعطف عليه فقال: (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ)، فجاء في كلّ آية ما اقتضاه المعنى."⁶³

ومن النماذج القرآنية التي اختلفت بنيتها لاختلاف سبب التزول حذفاً وذكرها، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: 127]، فنلاحظ إثبات نون (تكن) في سورة (النمل)، وإسقاطها في سورة (النحل).

⁶² ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 108

⁶³ المرجع نفسه، ص 182

وقد ذكر في تخصيص سورة (النحل) بالحذف أن "الآية نزلت تسلياً للنبي -صلى الله عليه وسلم- حين قُتل عمُّه حمزة ومثَّلَ به، فقال -عليه الصلاة والسلام- "لأفعلن بهم ولأصنعن"، فأنزل الله: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:126]، فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التَّسْلِي، وجاء في (النمل) على القياس لأنَّ الحزن هنا دون الحزن هناك.⁶⁴ فبما اختلف سبب التزول في الآيتين اختلفت هيئة التركيبين بينهما فناسب كل سبب منهما صورة من صورتَي التركيب.

ومن أمثلة حذف شبه الجملة وذكره في موضعين لاختلاف سبب التزول، قوله تعالى في سورة (الفتح): ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح:11]، حيث ذكر شبه الجملة (لكم)، بينما حذف في سورة (المائدة) في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:17]، وذلك أن الآية الأولى نزلت في قوم بأعيانهم وهم المخلفون، وقد سبق ذكرهم في الآية نفسها، أمَّا ما في المائدة فهو عام.⁶⁵

وقد ذهب ابن الزبير الثقفي إلى أن سورة المائدة نزلت في النصارى، أمَّا سورة الفتح فترلت في المتخلفين عن غزوة الحديبية.⁶⁶

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:126]، وقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:10]، نلاحظ أن الآية الأولى لم يل لفظ الجلالة فيها الناسخ مع اسمه (إنَّ

⁶⁴ المرجع نفسه، ص115

⁶⁵ المرجع نفسه، ص176

⁶⁶ ينظر: ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 1/ 381-382

الله)، ولكنه ورد في الآية الثانية، لأن ما في سورة الأنفال قد نزل في قصة بدر، وهي سابقة على ما في سورة آل عمران، فإنّها نزلت في قصة أحد، وأخبر هناك بأن الله عزيز حكيم، وجعلته في هذه صفة، لأنّ الخبر قد سبق.⁶⁷

وكما تختلف التشابهات لاختلاف المخاطبين وأسباب التزول فإنّ الموقف -كما ذكرنا- يمكن أن يكون سببا في تعليل الحذف أو الذكر في التشابهات، ونقصد بالموقف الهيئة التي يكون عليها المتكلّم أو المخاطب، وما يكون من حالهما في أثناء توجيه الخطاب. ومن الأمثلة على ذلك، قوله تعالى في قصة إبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:70]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:85].

فكلتا الآيتين تضمّنت استفهاماً، غير أنّ الاستفهام في الأولى ورد بـ (ما) وفي الثانية ورد بـ (ماذا)، وعلة هذا الاختلاف أن (ما) هي لمجرد الاستفهام، أمّا (ماذا) ففيها مبالغة تضمّنت معنى التوبيخ.⁶⁸

ويمكن استيضاح ذلك من خلال السياق، فلما كان الموقف في الأول هو مجرد استفهام من إبراهيم -عليه السلام- عن حقيقة المعبود الذي يعبد قومه، كان جوابهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ [الشعراء:71]، أما الموقف في سورة الصافات فلم يكن استفهاماً وحسب، بل كان فيه توبيخ لهم، لأنّ إبراهيم باستفهامه هنا يعلم حقيقة معبودهم، لذلك ضم إلى توبيخهم الإنكار عليهم فقال: ﴿أَنفَكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات، 86-87].⁶⁹

وبهذا يتبيّن لنا سرّ الاختلاف، ووجه التناسب بين كل موقف والتركيب الذي سبق له.

⁶⁷ ينظر: الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص 48، 49

⁶⁸ المرجع نفسه، ص 140، 141

⁶⁹ المرجع نفسه، ص 140، 141

ومن ذلك أيضا ما جاء في قصة موسى -عليه السلام- على لسان الخضر في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف 72]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 75].

فالآية الأولى حذف فيها شبه الجملة (لك)، أما الآية التي بعدها فجاء مذكورا فيها، ووجه ذلك أن إنكار الخضر على موسى -عليه السلام- في المرة الثانية كان أشدّ وأكثر⁷⁰، فـ"الخضر قصد بالأولى تذكير موسى -عليه السلام- بما شرط عليه فخاطبه بلطف وأدب معه، وفي الثانية كرّر موسى الإنكار فشدد الخضر عليه، وأكد القول بقوله: (لك) لأن كاف الخطاب أبلغ في التنبيه"⁷¹ أي أن موقف الإنكار في الأولى أقلّ شدة فناسبه الحذف، ولكنه في الثانية أشدّ وأقوى فناسبه إثبات كاف الخطاب زيادة في الإنكار وقوة العتاب.

ونستخلص أن بنية التراكيب القرآنية تناسب السياقات التي ترد فيها تناسبا تاما، وهو ما يرسخ مفهوم النظم المعجز كما استقرّ لدى البلاغيين وعلماء البيان منذ عبد القاهر الجرجاني، وقد برزت هذه الحقيقة في أهمّ ظاهرتين تعتريان التراكيب وهما ظاهرة التقديم وظاهرة الحذف، حيث مكنت المقارنة بين التراكيب المتشابهة من الوقوف على هذه الحقيقة بجلاء.

⁷⁰ المرجع نفسه، ص 140، 122

⁷¹ ابن جماعة، كشف المعاني، ص 125

الفصل الخامس

التناسب النصّي

لقد كان اعتقاد علماء القرآن بتوقيفية ترتيب الآيات والسور دافعا لبحثهم عن أسرار ترتيبها، ومناسبات اقترانها، فلذلك "انطلقوا في دراساتهم من الإيمان بأن التناسب في القرآن حقيقة جوهرية، وأن "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".⁷² وذهبوا إلى تلمس مظاهر التناسب والانسجام، من خلال البحث عن أوجه التعلق والارتباط بين آيات القرآن وسوره، وأدى ذلك إلى ظهور علم المناسبة.

وتذكر لنا كتب علوم القرآن أن علم المناسبة نشأ على يد الشيخ الإمام أبي بكر النيسابوري (ت 324هـ)، فقد نقل الزركشي عن أبي الحسن الشهرستاني (ت 672 هـ)، قوله: " أول من أظهر ببغداد علم المناسبة - ولم تكن سمعناه من غيره - هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (ت 324هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة".⁷³

وذهب البقاعي (ت 885هـ) إلى أن أسرار هذا العلم كانت معروفة لدى الصحابة والتابعين و"كان أفاضل السلف يعرفون هذا بما في سليقتهم من أفانين العربية، ودقيق مناهج الفكر البشرية، ولطيف النوازع العقلية، ثم تناقص هذا العلم حتى انعجم على الناس، وصار إلى حد الغرابة لغيره من الفنون".⁷⁴

⁷² الرّازي محمد فخر الدين، تفسير الفخر، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، ط1،

بيروت، 1401هـ/1981م، 65/10

⁷³ الرزكشي، البرهان، 36/1

⁷⁴ البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تح: عبد

السميع محمد أحمد حسن، مكتبة المعارف، ط1، الرياض، 1408هـ/1987م، 103/1

ومما يمكن عدّه إرهابات لهذا العلم في عهد الصحابة ما يروى من ختم بعض الصحابة لبعض الآيات حين تنزل قبل أن يسمع آخرها.⁷⁵ من ذلك ما ذكره السيوطي (ت911هـ) من أن زيد بن ثابت قال: "أملئ عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون:12]، فقال معاذ بن جبل: (فتبارك الله أحسن الخالقين)، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له معاذ: "ممّ ضحكت يا رسول الله؟ قال: بها ختمت."⁷⁶

وروي أن أعرابيا لم يكن يقرأ القرآن سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَإِنْ زُلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:209]، فأبدله بأن قال: (فاعلموا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، فقال الأعرابي: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلّل، لأنه إغراء عليه.⁷⁷

وجاء عن الأصمعي (ت216هـ) أنه كان يقرأ سورة المائدة ومعه أعرابي، فقرأ الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:38]، قال: "فقرأت: (والله غفور رحيم) سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: (والله غفور رحيم)، ثم انتبهت فقلت: (والله

⁷⁵ ينظر: السيوطي، الإتيقان، ص680

⁷⁶ حدثنا عبد الرحمن بن عمرو أبو زرعة، قال: نا آدم بن أبي إياس، قال: نا شيبان، عن جابر، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت قال: أملئ عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ إلى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ بن جبل: "فتبارك الله أحسن الخالقين"، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال له معاذ: ممّ ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها خُيِّمَتْ»؛ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. * لا يروى هذا الحديث عن زيد بن ثابت إلا بهذا الإسناد، تفرد به: آدم». الطبراني الحافظ أبو سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ/1995م، 56/5، باب: من اسمه عبد الرحمن، رقم الحديث: 4657، صفحة الباب: 52

⁷⁷ ينظر: السيوطي، الإتيقان، ص681

عزيز حكيم)، فقال: الآن أصبت، فقلت: كيف عرفت؟ قال: يا هذا، عزيز حكيم فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع.⁷⁸

وذكر الزركشي أن أول من صنّف المناسبات هو أبو جعفر بن إبراهيم الغرناطي (ت 708هـ) الذي ألف كتابه (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)، ثم جاء بعده كمال الدين محمد عبد الواحد الزمّلكاني (ت 727هـ) صاحب كتاب (البرهان في إعجاز القرآن). وأن للإمام فخر الدين الرازي (ت 606هـ) في تفسيره (مفاتيح الغيب) الشيء الكثير عن المناسبة،⁷⁹ حيث تلمّسها بين أجزاء الآية الواحدة، وبين الآيتين وبين المقاطع وبين خواتيم السور ومطالعها، وبين مطلع السورة وخاتمة السورة السابقة، قال الرازي في بيان اهتمامه بعلم المناسبة وبلطائفه في سياق حديثه عن سورة البقرة: "من تأمل في لطائف نظم هذه السورة وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعلّ الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلّا أني رأيت جمهور المفسّرين معرضين عن هذه اللّطائف، غير متبهرين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلّا كما قيل:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ صَوْرَتَهُ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغَرِ⁸⁰

وتحدّث الرازي عن الوحدة الموضوعية في السور القرآنية، وعمّم هذا الحكم على القرآن كلّّه، فذكر أن "القرآن كلّّه كالسورة الواحدة لا تتّصل بعضها ببعض".⁸¹

وعقد الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) فصلا عن التناسب عنوانه: معرفة المناسبات بين الآيات، فعرّف المناسبة وذكر أهم العلماء والمفسّرين الذين اشتغلوا بها، وأفاض في الحديث عن وجوه التناسب المختلفة، كارتباط الآيات بعضها ببعض، وارتباط

⁷⁸ الرازي، مفاتيح الغيب، 11 / 236

⁷⁹ ينظر: الزركشي، البرهان، 1 / 35 و 39

⁸⁰ الرازي، مفاتيح الغيب، 7 / 139، والبيت ينسب إلى العرجي (ولم أقف عليه في ديوانه)

⁸¹ مفاتيح الغيب، 30 / 214

السور بما قبلها وما سيقّت له، ومناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة التي قبلها، وتناسب مقاطع الفواصل في السورة، قال: "من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً... وهو مبنيّ على أن ترتيب السور توقيفيّ... وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبلها، ثم هو قد يخفى تارة ويظهر أخرى." ⁸²

ولعلّ أشهر من وضع تفسيراً كاملاً حاول فيه استلهاً نظرية المناسبة كما عرفت لدى الأقدمين هو البقاعي في تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) الذي حاول فيه بحث وجوه الارتباط بين الآيات والسور المتعاقبة، وقد اتّهم بأنه أخذ ما فيه من أبي الحسن عليّ بن أحمد التحجّبي الحرّالي المغربي (ت 637هـ)، قال المناوي في (الكواكب الدرية) في ترجمة الحرّالي: "وصنّف تفسيراً ملاًه بحقائقه، ودقائق فكره، ونتائج قريحته، وأبدى فيه من مناسبات الآيات والسور ما يبهّر العقول، وتحار فيه الفحول، وهو رأس مال البقاعيّ، ولولاه ما راح ولا جاء، ولكنّه لم يتمّ، ومن حيث وقف وقف حال البقاعي في مناسباته." ⁸³

والظاهر أن من أسباب هذا الاتّهام ما ورد في عبارة للبقاعي قال فيها: "وانتفعت في هذا الكتاب بتفسير على وجه كليّ للإمام الرّبّاني أبي الحسن عليّ بن أحمد بن الحسن الحرّالي المغربيّ نزّل حمّاه من بلاد الشام، سمّاه: (مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المتزلّ)." ⁸⁴

⁸² الزركشي، البرهان 36/1 و38

⁸³ المناوي عبد الرؤوف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تح: عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (دت)، 465/2

⁸⁴ البقاعي، نظم الدرر 10/1

ولكن صاحب (كشف الظنون) يرى أن تفسير البقاعي "هو كتاب لم يسبقه إليه أحد، جمع من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول." ⁸⁵

ومهما يكن من أمر، فإن تفسير "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" يعدّ أكثر التفاسير بسطا وتفصيلا لموضوع المناسبات القرآنية؛ حيث تتبّعها بين جل آيات القرآن الكريم وسوره.

وقد ذهب البقاعي في تفسيره إلى أنّ معرفة مقصود السورة يعين على تعرّف علم المناسبة، فهذا العلم "تتوقّف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم غاية في النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو." ⁸⁶

ورأى البقاعي أن "اسم كل سورة مترجم عن مقصودها... ومقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمّاه، عنوانه الدالّ إجمالا على تفصيل ما فيه." ⁸⁷

أما السيوطي، فله في هذا العلم مؤلّفات عديدة، منها كتاب (تناسق الدرر في تناسب السور)، وقد ذكر في مقدّمته أنه جزء من كتاب آخر له يسمى (أسرار التنزيل)، قال: "وكتابي الذي صنعت في أسرار التنزيل... جامع لمناسبات السور والآيات؛ مع ما تضمّن من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخصتُ منه مناسبات السور خاصّة في جزء لطيف سمّيته (تناسق الدرر في تناسب السور)." ⁸⁸

⁸⁵ خليفة حاجي مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دت)، 2/ 1961

⁸⁶ البقاعي، نظم الدرر، 6/1

⁸⁷ المرجع نفسه، 19/1

⁸⁸ السيوطي، الإتقان، ص 693

وللسيوطي كتاب (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، خصصه لبيان المناسبة بين مطلع السور وخواتيمها، وكتاب (قطف الأزهار في كشف الأسرار)، إضافة إلى كتاب (الإتقان في علوم القرآن) الذي ضمّه بابا سمّاه (في مناسبة الآيات والسور) تحدّث فيه عن هذا العلم وأقوال العلماء فيه، وأنواع التناسب ووجوهها في آيات القرآن وسوره، كتناسب المقاطع والمطالع، وتناسب الحروف المقطّعة مع السور التي بدئت بها، ومناسبة أسماء السور لمقاصدها.

وللسيوطي كتاب آخر يسمى (معترك الأقران في إعجاز القرآن) أورد فيه ما جاء في الإتقان عن علم المناسبة.

والملاحظ على التصانيف السابقة أن اتجاهاتها في بحث المناسبات في القرآن الكريم لا تكاد تخرج عن ثلاثة أوجه للمناسبة هي: المناسبة فيما بين الآيات، والمناسبة فيما بين السور، والمناسبة فيما بين الآيات والسور، وقد حاول العلماء من خلال هذه الأوجه الكشف عن أسرار التناسب بين الآيات والسور، وأسرار ترتيبها، وكلها مباحث تدور حول ترابط النص القرآني وانسجامه وتناسب أجزائه.

لقد تعدّدت أقوال المفسرين والعلماء حول ظاهرة الترابط في النظم القرآني، لكنها تلتقي عند محور واحد هو أن هذا الترابط والاتساق مظهر من مظاهر التناسب، ودلالة من دلائل بلاغة القرآن وإعجازه، ولا يقتصر الأمر على آية من آياته أو سورة من سوره، بل إنه "كلّه تناسب، لا تنافر فيه ولا تباين".¹ وهو على كثرته وطوله متناسب في الفصاحة،² الفصاحة،² والموازنة بينه وبين شعر الشعراء المفلّحين تفضي إلى أن "القرآن كلّّه في الطبقة

¹ ابن القيم، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص 87

² الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 36

العليا من التلاؤم... والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكّلما كان أعدل كان أشد تلاؤما.¹

غير أن الإحساس بهذا التلاؤم والارتباط ليس على درجة واحدة لدى الناس، بل إن بعضهم أشدّ إحساسا بذلك وأكثر فطنة له من بعض.²

وتعميم الحكم بهذه الصفة على القرآن بأسره مردّه إلى ذلك التأليف البديع بين سوره وآياته وحروفه، وحتى في السورة الواحدة، والآية الواحدة، بل وفي المفردة الواحدة.

ومن جملة الخصائص التي ينفرد بها النظم القرآني وحدة السورة، وقد أشار إليها غير واحد من المفسّرين، وأوضحوا ما في الآيات من تناسب في إطار هذه الوحدة، فـ"إنّه" من الثابت أن لكل سورة هدفا خاصا ومقصدا محددا وشخصية منفردة، والمعاني الجزئية والوحدات الصغرى وأساليب التعبير ومفردات التركيب تتّجه كلّها لخدمة هدف السورة، وتتأثر في صياغتها بروحها.³ وهذه الروح التركيبية هي التي تميّز القرآن عن غيره على الرغم من تعدّد أساليبه وأغراضه، كالقصص والمواعظ والحكم، وضرب الأمثال والجدل والتشريع وما إلى ذلك.⁴

وقد تحدّث العلماء بإسهاب عن وحدة السورة في القرآن وعرضوا بعض مظاهر التناسب التي تجمع بين أجزائها، ويمكن إجمالها في العناصر الآتية:

- التناسب بين آيات السورة وموضوعها.
- التناسب بين مطلع السورة وختامها.
- التناسب بين السور المتوالية في المصحف.

¹ الرماي، النكت، ص 88

² ينظر: المرجع نفسه، ص 88

³ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 171

⁴ ينظر: الرافي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ط 8، مصر، 1424هـ/

2004م، ص 169

والتناسب القرآني أو علم مناسبات القرآن هو السبيل إلى معرفة علل ترتيب أجزائه وارتباطها، وهو السبيل كذلك إلى تحقيق المطابقة بين الكلام وما يقتضيه الحال، ويقوم هذا كله على معرفة مقاصد السور، وذلك بمعرفة مقاصد جميع جملها وأجزائها.¹

وقد فطن المفسرون إلى أن أنواعا من العلاقات تفسّر ظاهرة التناسب والاتساق في النظم القرآني، يقول السيوطي: "المناسبة في اللغة كالمشاكل والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى رابط بينها عام أو خاص أو عقلي أو حسّي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدّين ونحوه، وفائدته جعل أجزاء الكلام آخذا بعضها بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله كحال البناء المحكم المتلائم الأجزاء."²

وهذه العلاقات تربط بين السور كما تربط بين الآيات في السورة الواحدة، بل إنها لتصل حتى بين أحرف الكلمة الواحدة، حيث "نجد في تراكيب حروف الآيات وتآلفها، تناسقا عجيبا وتناسبا وطيدا شديدا كتناسق الآيات وتناسبها وترايط السور وانسجامها وتكاملها."³ ولذلك "فإن تغيير حرف بحرف أو كلمة بكلمة، أو أي تغيير في تركيب الآية يغير المعنى تغييرا قد لا يفهم معه شيء من المراد، وهذا ما ينبئ عن ترابط وتلاحم دونه كل ترابط."⁴

أولا: التناسب بين مطلع السورة وموضوعها

¹ البقاعي، نظم الدرر، 6/1

² السيوطي، الإتقان، ص 108. وينظر: معترك الأقران، 1/ 57

³ محمد العيد رتيمة، دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر،

1992، ص 287

⁴ المرجع نفسه، ص 287

رصد المفسرون علاقات مختلفة بين الآيات والسور بعد إدراكهم لخاصية الترابط والاتساق في النص القرآني، كما رصدوا علاقات مختلفة بين الآيات وبين العناصر داخل السورة نفسها.

وتناسق الآيات ضمن السورة نفسها، وضمن القرآن الكريم كله يعرف بطريق النظر في الغرض الذي سبقت له السورة، وما يحتاج إليه ذلك الغرض من مقدمات... فهذا هو الأمر الكلي المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن.¹

وقد أشار كثير من العلماء والمفسرين إلى أهمية مطلع السورة وموضوعها العام، ورأوا أن تعدد المواضيع لا يذهب بالخيط الذي ينتظم الآيات فيها، يقول سيد قطب: "إن لكل سورة من سور القرآن شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حيّ مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيس أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاص، ولها جوّ خاص يظل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسب بينها وفق هذا الجو، ولها إيقاع موسيقيّ خاص..."² وبذلك تغدو السورة لحمة واحدة متماسكة الأجزاء مترابطة العناصر.

ومن نماذج التناسب بين موضوع السور وفاتحتها سورة النساء، فقد ذكر العلماء أنها لما تضمنت أحكام الأنساب التي بين الناس، والأحكام المتعلقة بالنساء والميراث بالتفصيل افتتحت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، فتضمنت الآية المفتتح بها ما يناسب موضوع السورة

¹ ينظر: السيوطي، معترك الأقران، 62/1، والإتقان، 2/ 110

² سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، ط5، بيروت، 1967م، 28/1

من أحكام النكاح وحرماته وأحكام النساء، والمواريث المتعلقة بالأرحام، وابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم، ثم خلق حواء منه.¹

وهذا التناسب بين مطلع السورة وموضوعها يصوّر التماسك النصّي، ويكشف العلاقات الداخلية التي تربط بين عناصره.

وكذلك الشأن في سورة مريم التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿كَهَيْعِصْ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً﴾ [مريم: 2، 1]، حيث جاء لفظ (ذكر) مضافاً إلى الرحمة، وفيه إشارة إلى أنّ التذكير من مقاصد السورة، وقد ورد فيها الأمر بالتذكير عدّة مرات²، قال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ [مريم: 41]، وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ [مريم: 51]، وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [مريم: 54]، وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم: 65].

والأمثلة التي تبرز التناسب القائم بين أغراض السور وبين فواتحها كثيرة، وهذا التناسب منه ما يظهر، ومنه ما يخفى ويدقّ، ولا يستخرج إلا بالتدبّر.

وإذا كان النظر في سياق السورة الواحدة يعين على التماس وجه التناسب والترابط بين مطلعها وموضوعها، فإنه يعين كذلك على التماس التناسب الحاصل بين آياتها وموضوعها، وإذا كانت السورة القرآنية تشكّل مع مطلعها وحدة مترابطة متناسقة، فإن آياتها لا تقل ترابطاً وتلاحماً لا سيما مع إدراك معانيها الجزئية المتناسبة وغرض السورة أو موضوعها العام، ولا يدرك هذا الأمر إلا من خلال تأمل العلاقات المختلفة التي تربط بينها جميعاً، يقول السيوطي متحدّثاً عن تلاحم الآيات في سورة البقرة والنساء والمائدة: "وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك، وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن

¹ ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 60

² المرجع نفسه، ص 61

بإتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط.¹ ويشير السيوطي في موضع آخر إلى أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة محكوم بالتناسب فيقول عن سورة البقرة: "ومن تفكّر في لطائف هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أنّ القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته."²

إن بين الآيات المتوالية في السورة الواحدة وجها للمناسبة يعلّل ترتيبها واتّساقها وارتباطها بموضوعها العام، بحيث لا يمكن إنكار هذا التناسب والارتباط، يقول الزركشي: "قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تترىلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكون مرتبة سورته كلّها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعدّدة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقا، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة... والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملّة لما قبلها أو مستقلّة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جمّ."³

فالتناسب إذاً بين الآيات في السورة الواحدة حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وهذا التناسب دليل على البناء القرآني المعجز في تعبيره ونظمه وترتيبه.

ثانيا: التناسب بين مطلع السورة وختامها

إذا كان التناسب بين فاتحة السورة ومضمونها، وبين الآيات في السورة الواحدة من مظاهر وحدة السورة القرآنية، فإن بين أيدينا مظهرا آخر يتجلّى في مناسبة مطالع السور لخواتيمها، فـ "القضية وإن اشتملت على جمل، فبعضها متعلّق ببعض، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن ردّ آخر الكلام على أوّله، وأوّلّه إلى

¹ السيوطي، الإتقان، 109/2

² السيوطي، معترك الأقران، 56/1

³ الزركشي، البرهان، 37/1

آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرّق النظر في أجزائه فلا يصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض¹، بل ينظر إليها بوصفها بنية واحدة تتسم بسمات الترابط والانسجام والتناسق والتماسك والالتزام القائم على التناسب والتلاؤم.

وأمثلة التناسب بين مطالع السور وخواتيمها كثيرة في القرآن الكريم، وقد أفرد السيوطي لهذا الموضوع كتابا سماه: (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، كما نجد له إشارات كثيرة لذلك عند علماء القرآن والمفسرين.

ومن نماذج هذا التناسب ما جاء في سورة القصص التي بدئت بقصة موسى ونصرته وقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: 17] وخروجه من وطنه ونصرته، وإسعافه بالمكالمة، وختمها بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن لا يكون ظهيرا للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]²، وقد تقدّم في مطلع السورة وعد الله تعالى لأمر موسى برّد ابنها إليها بعد إلقائه في اليمّ، قال تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

وفي سورة (المؤمنون) لحظ الزمخشري تناسبا بين فاتحتها وخاتمتها قائما على التقابل بالإيجاب والسلب، فقد جاء في فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1] وورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117]³.

¹ الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن أبي موسى اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الشريعة، تح: عبد الله دراز، دار الفكر العربي، ط3، مصر، 1395هـ/ 1975م، 413/3

² الزركشي، البرهان، 185/1، 186

³ ينظر: الزمخشري، الكشاف، 4/ 254

وافتتحت سورة القلم بقوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم 1، 2، 3]، وختمها بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 51، 52]¹.

وهكذا، فإن فاعلية التناسب تتحقق كذلك بالنظر إلى أوجه العلاقات التي تربط بين أوائل السور وخواتمها.

وكما تنبه المفسرون إلى التناسب القائم بين مطالع السور ومواضيعها والأغراض التي سيقت لها، فقد اكتشفوا أن ثمة تناسبا وترابطا بين خاتمة السورة وموضوعها، أو بينها وبين ما تناولته من المعاني والأغراض، وأوضح مثال على ذلك ما ختمت به سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 285، 286].

فهذه الخاتمة تمثل تلخيصا وافيا شاملا لما ورد في السورة يتناسب وموضوعاتها ومقاصدها وأهدافها؛ فقد بدئت السورة بذكر أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب ويقىمون الصلاة... والذين يؤمنون بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وبما أنزل من قبله، وفي ثنايا السورة وردت إشارات إلى الإيمان بالرسول جميعا، وختمت بما يناسب ذلك في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾، كما تضمنت السورة تكاليف كثيرة

¹ ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 66

وتشريعات مختلفة للأمة المسلمة، وناسب ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

وفي السورة أيضا بعض قصص بني إسرائيل وما كان من جحودهم لنعم الله تعالى، وما كلفهم من كفارات إلى غير ذلك، وتأتي الخاتمة مقابلة هذا الموقف السلبي بموقف إيجابي تضمّنه الدعاء الخاشع على ألسنة المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا...﴾¹

وختمت سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، وهي خاتمة مناسبة لـ "محور السورة الأصيل، وموضوعاتها البارزة، ويتسق معها كلّ الاتّساق، فهو نداء للمؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، وسياق السورة حافل بذكر الصبر، وبذكر التقوى، وبالندوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستسلام لدعاة الهزيمة والبلبلّة، وتضمّن تفصيلا عن غزوة أحد، والدروس التي تستخلص منها، ومن ثمّ ختمت بالندوة إلى الصبر والمصابرة والمرابطة."²

وهكذا فإن بين موضوعات السور وبين خواتيمها تناسبا وتعالقا شديدا، ويمكن القول إن ما تحتّم به السورة يكون كالتلخيص والإجمال للمعاني الواردة فيها.

ثالثا: التناسب بين السور المتوالية

تناسب السور المتوالية في المصحف هو مظهر آخر من مظاهر التناسب النصي في القرآن الكريم، وهو أخص من التناسب القائم بين السور المختلفة المتباعدة في المصحف، كما يتجاوز علاقة الإجمال والتفصيل التي حفلت بها هذه السور إلى علاقات أخرى أدقّ تربط السور المتوالية، وهي علاقات تجمع بين كل سورتين متواليتين.

¹ ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 498/1

² أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 67

وإذا كان دارسو التناسب قد نصّوا على أنه "ينبغي في كلّ آية أن يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها..."¹ فإن هذا الأمر صالح فيما بين السور أيضا، حيث يطلب وجه اتّصالها بما قبلها وما بعدها.

ومعلوم أن ترتيب آيات القرآن وسوره أمر توقيفي بإجماع العلماء، ويطلبنا في هذا المجال كتاب (تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور) للسيوطي، وهو نفسه كتاب (أسرار ترتيب القرآن)، وقد تناول فيه وجوها مختلفة لبيان مناسبات ترتيب الآيات والسور في المصحف، ومنها مناسبات ترتيب الآيات واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها، ومنها مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سبقت له، ومناسبة أوّلها لآخرها، ومناسبة الفواصل للآي التي ختمت بها، ومناسبة السور لموضعها، ومناسبة أسمائها لها، وبيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها، إضافة إلى بيان ما اشتمل عليه القرآن من أساليب في البلاغة ومن محسنات بديعية وما إلى ذلك.²

وقد أشار الزركشي في كتاب (البرهان) إلى قضية التوقيف في ترتيب سور المصحف فقال: "لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم، أحدها: بحسب الحروف كما في الحواميم، وثانيها لموافقة أول سورة لآخر ما قبلها كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة، وثالثها للوزن في اللفظ كآخر (تَبَّتْ) وأول (الإخلاص)، ورابعها: لمشاكلة جملة السورة لجملة الأخرى مثل (والضحى) و(ألم نشرح)."³

فالترتيب بحسب الزركشي يجلي تماسك النص القرآني، ويكشف عن علاقاته الداخلية ووجوه ترابطه وتناسبه، وإلى هذا أشار السيوطي حين قال: "قد ظهر لي بحمد الله وجوه من هذه المناسبات، أحدها: أن القاعدة التي استقرّ بها القرآن أن كلّ سورة تفصيل لإجمال

¹ الزركشي، البرهان، 36 / 1

² ينظر: السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، تح: عبد القادر عطا ومرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة، (دت)، ص 38، 39

³ الزركشي، البرهان، 260 / 1

ما قبلها وشرح له، وإطناب لإيجازه، وقد استقرّ معي ذلك في غالب سور القرآن طويلها وقصيرها.¹

والقاعدة في فهم المعنى القرآني إذن، أن يكون فهم اللاحق في السورة مستندا إلى فهم ما في السورة التي قبلها، ولا يحصل هذا إلا إذا كانت المناسبة قائمة بينهما بحيث تكون السورتان لحمة متماسكة غير قابلة للتجزئ، وهذا الأمر عامّ وشامل في كل سور القرآن؛ ولذلك لم يكن مناسبا النظر إلى القرآن بنظرة تجزئية تركّز على جانب منه، وتهمل جانبا آخر، لأنها جوانب يجرّ بعضها بعضا.²

وأول مثال يطالعنا عن التناسب بين السور المتوالية في المصحف يتعلّق بسورتي الفاتحة والبقرة، قال الزركشي: "سورة الفاتحة تضمّنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الإسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية، وسورة البقرة تضمّنت قواعد الدين."³

وزاد السيوطي هذه المسألة تفصيلا وإيضاحا وهو يبيّن أوجه التناسب والارتباط بين سورة الفاتحة والبقرة فقال: "وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة، فقله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 1] تفصيله ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدّة آيات ومن الدعاء في قوله: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]، وبالشكر في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 286].

¹ السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص 56

² ينظر: محمد الغزالي، كيف تتعامل مع القرآن، دار نهضة، ط 7، مصر، 2005، ص 72، 73

³ الزركشي، البرهان، 1/ 260، 261

وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] تفصيله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:21،22].

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة:3] قد أوماً إليه بقوله في قصة آدم: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4] تفصيله ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع، ومنه قوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة:284]، والدين في الفاتحة الحساب في البقرة.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:5] مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل...

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] شامل لعلم الأخلاق، وقد ذكر منها في هذه السورة الجَمَّ الغفير من التوبة، والصبر، والشكر، والرضى والتفويض، والذكر، والمراقبة والخوف، وإلانة القول، وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] إلى آخره، تفصيله ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء، ومن حاد عنهم من النصارى، ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبله إبراهيم، فهي من صراط الذين أنعم عليهم، وقد حاد عنها اليهود والنصارى معا، ولذلك قال في قصتها: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:142] تنبيها على أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه.¹

و إذا كان السيوطي قد جعل البقرة تفصيلا لما ورد مجملا في سورة الفاتحة، فإن من العلماء من جعل القرآن كله تفصيلا لما ورد في هذه السورة، وذلك انطلاقا من أن القرآن بجميع سوره كلام واحد متناسب الأجزاء من البداية إلى النهاية، فقد نقل برهان الدين

¹ السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص56

البقاعي عن أحد شيوخه -وهو أبو الحسن الحرّالي- أن سورة الفاتحة هي أمّ القرآن: "لأن القرآن جميعه مفصّل من مجملها؛ فالآيات الثلاث الأولى شاملة لكلّ معنى تضمّنته الأسماء الحسنى والصفات العلى، فكلّ ما في القرآن من ذلك فهو مفصّل من جوامعها، والآيات الثلاث الآخر من قوله: (اهدنا) شاملة لكل ما يحيط بأمر الخلق في الوصول إلى الله والتحيز إلى رحمته والانقطاع دون ذلك، فكل ما في القرآن منه، فمن تفصيل جوامع هذه.¹"

ومن الأمثلة الدالة على أن كلّ سورة إنما هي شرح وتفصيل لإجمال ما في السورة التي قبلها، ما جاء في سورتي البقرة وآل عمران أيضا؛ فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه، وقال في آل عمران: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: 3]، وذلك بسط وإطناب لنفي الرّيب عنه، ومنها أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجمّلا، وقسمه هنا إلى آيات محكمات متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله، ومنها أنه قال في البقرة (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ) [البقرة: 247]، وقال في آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26] فزاد إطنابا وتفصيلا ومنها أنه حذّر من الربا في البقرة، ولم يزد على لفظ الربا إيجازا وزاد في آل عمران قوله: ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: 130]، وذلك بيان وبسط، ومنها أنه قال في البقرة: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]، وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالا، وفصله في آل عمران بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]، وزاد بيان شرط الوجوب بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 97].

¹ البقاعي، نظم الدرر، 1/ 52، 53

ومنها أنه قال في البقرة في أهل الكتاب: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ [البقرة: 83] فأجل القليل وفصله في آل عمران بقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113].

ومنها أنه قال في البقرة: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: 139] فدلّ بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضا لا تصرّحا وكذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إهمام، وأتى في آل عمران بصريح البيان فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فقوله: (كُنْتُمْ) أصرح في قدم ذلك من (جعلناكم)، ثم زاد وجه الخيرية بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110] ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة: 188] وبسط الوعيد في آل عمران بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77]، وصدّره بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: 75] فهذه عدة مواضع وقعت في البقرة مجملة، وفي آل عمران تفصيلها.¹

الوجه الثاني أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحادا وتلاحما متأكدا، لما تقدّم من أن البقرة بمثلة إزالة الشبهة، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب، وتصديقه للكتب قبله، والهدى إلى الصراط المستقيم، وتكرّرت في آل عمران آية: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ﴾ [البقرة: 136] بكماها، ولذلك أيضا ذكر في آل عمران ما هو تال لما ذكر في البقرة، أو لازم له، فذكر في البقرة خلق الناس، وذكر في

¹ السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص 63

آل عمران تصويرهم في الأرحام، وذكر في البقرة مبدأ خلق آدم، وذكر في آل عمران مبدأ خلق أولاده، وألطف من ذلك أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، وذكر في آل عمران نظيره في الخلق من غير أب، وهو عيسى عليه السلام، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصت البقرة بآدم، لأنها أول السور، وآدم أول في الوجود وسابق، ولأنها الأصل، وآل عمران كالفرع والتممة لها، فكانت مختصة بالإعراب والبيان، ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتخوا بقصة آدم، لتثبيتها في أذهانهم، فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشبهها من جنسها، ولأن قصة عيسى قيس على قصة آدم في قوله: (كَمَثَلِ آدَمَ)، والمقيس عليه لابد أن يكون معلوما، لتتم الحجة بالقياس، فكانت قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقدم.¹

ومن وجوه تلازم السورتين: أنه قال في البقرة في صفة النار: (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)، ولم يقل في الجنة: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معا، وقال ذلك في آخر آل عمران في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133] فكان السورتين بمتزلة سورة واحدة، وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها.²

ومن بين دلائل التناسب بين السور المتوالية مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها، قال الزركشي: "وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها... كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء، كما قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75]، وكافتتاح سورة فاطر بالحمد أيضا فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ

¹ السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص 63-68

² المرجع نفسه، ص 63-68

وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴿سبأ:54﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:45]¹.

ومن ذلك أيضا: "افتتاح سورة الحديد بالتسييح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به، وكافتتاح البقرة بقوله: ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:2،1]، إشارة إلى الصراط في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة... وتأمل ارتباط سورة (إيلاف قريش) بسورة الفيل حتى قال الأخفش: اتصالها بها من باب قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:8]².

وهكذا تتجلى لنا في علاقة فواتح السور بخواتيم ما قبلها، وفي ما بين السور المتوالية من إجمال وتفصيل صورة واضحة عن التناسب بين السور المتوالية.

ومن صور هذا التناسب، المناسبة بين أسماء السور المتوالية كما في النجم والقمر، يقول السيوطي: "لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية، لما بين النجم والقمر من الملازمة، ونظيره توالي الشمس والليل والضحى وقبلها سورة الفجر"³ للمناسبة التي بينها، فلفظا النجم والقمر هما ضمن حقل دلالي واحد، كما أن ألفاظ الشمس والليل والضحى والفجر هي ضمن حقل دلالي واحد أيضا، وهو ما ناسب تواليها.

وقد لاحظ السيوطي أن سورة الفجر يشترك اسمها دلاليا مع أسماء السور المذكورة، وقد فصل بينها وبينها بسورة البلد، فعلل ذلك بوجه آخر من التناسب وضحه

¹ الزركشي، البرهان، 38/1

² المرجع نفسه، 38/1

³ السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص135

بقوله: "فُصِلَتْ بِسُورَةِ الْبَلَدِ لِنَكْتَةِ أَهْمٍ...لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب التزول إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وأكد في المناسبة، ثم إن سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد، فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، أراد الفريقين في سورة البلد على سبيل الفذلكة، فقوله في الشمس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:9] هم أصحاب الميمنة في سورة البلد، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:10] في الشمس، هم أصحاب المشأمة في سورة البلد.¹

ونخلص ممّا تقدّم إلى أن التناسب النصّي تتفاوت اعتباراته وتتعدّد جوانبه، فإذا تخلف باعتبار ما في جانب منه وجب التماسه في جانب آخر بناءً على اعتبار آخر.

¹ المرجع نفسه، ص 159

الباب الثاني

مستويات التناسب

السياقي

في تفسير ابن عاشور

تمهيد

مُحَمَّد الطاهر بن عاشور

وتفسير التحرير والتنوير

محمد الطاهر بن عاشور ومؤلفاته

اسمه ونسبه:

هو الإمام الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد عاشور، وأمه هي فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بن محمد بن محمد بوعتور.¹

تعود أسرة آل عاشور إلى الشيخ العالم محمد بن عاشور الأول، الذي ولد في مدينة (سلا) بالمغرب، وتوفي بتونس سنة 1110هـ. برزت في هذه الأسرة آثار العلم والتدوين العميق، بالإضافة إلى تولي أفرادها مناصب دينية عليا، ومن أبرز الشخصيات التي كان لها الأثر الأكبر في شيخنا الإمام: جدّه لأبيه وجدّه لأمّه؛ محمد الطاهر بن عاشور الجدّ، وتلميذه محمد العزيز بوعتور.

فالشيخ محمد الطاهر الجدّ شخصيّة علميّة عاليّة في عصره وبلده، وتولّى أعلى المناصب الدّينية، وكان له إنتاج ثريّ من المؤلّفات الدّينية واللّغوية، وتلاميذ نجباء تلقّوا عنه. ولد سنة 1230هـ، وتقلّد مناصب القضاء والإفتاء والتعليم بجامع الزيتونة الأكبر، والإشراف على الأوقاف الخيرية والعضوية بمجلس الشورى وغيرها، وله همّة في التدريس والتصنيف.²

وله مصنّفات مطبوعة؛ منها حاشية على قطر الندى، وشرح على بردة البوصيري، ومصنّفات مخطوطة وهي الأكثر، منها: حاشية على المحلّي على جمع الجوامع، وأخرى على ابن سعيد الأشموني، وتعليقات على شرح مسلم وغيرها.³

¹ محمد الحبيب بن الخوجّة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر: محمد الطاهر بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس، 2008م، 1/147

² ينظر: الغالي بلقاسم، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، حياته وآثاره، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 1417هـ/1996م، ص 35

³ ينظر: المرجع نفسه، ص35، وينظر: دائرة المعارف التونسية، الكراس 1994/4، المجمع التونسي للعلوم

أما الشيخ محمد العزيز بوعتور المصلح الوزير فهو الجد الآخر، تقلد المناصب العالية وكان آخرها تقلده الوزارة الكبرى (درجة رئيس الوزراء)، وتبوأ مهمة إصلاح التعليم في تونس ولا سيما الزيتونة، وقد ورث الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عن جده الوزير خزانة كتبه ومخطوطاته النفيسة التي عكف عليها وأمعن في قراءتها.⁴

مولده ونشأته:

ولد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بالمرسى، وهي ضاحية جميلة من الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية، تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عشرين كيلومترا عن مدينة تونس، وكانت ولادته في بيت جده لأمه الشيخ محمد العزيز بوعتور في شهر جمادى الأولى عام ستة وتسعين ومائتين وألف هجري (1296هـ)، الموافق لشهر سبتمبر عام تسعة وسبعين وثمانمائة وألف ميلادي (1879م).⁵

نشأ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في رحاب العلم، وخُصّ منذ نشأته بعناية فائقة من أبيه وجده، فأقبل في السنة السادسة من عمره على تعلّم القرآن الكريم بمسجد سيدي أبي حديد المجاور لبيتهم بنهج الباشا بتونس، فحفظه ورثله على الشيخ المقرئ محمد الخياري، وحفظ مجموعة من المتون العلمية، كمتن الآجرومية في النحو، وابن عاشر في الفقه المالكي، والرسالة، والقطر، ونحوها مما كان يُعنى المؤدّبون بتلقيه لتلامذتهم الصغار.

وفي سنّ الرابعة عشر التحق الشاب محمد الطاهر بن عاشور بجامعة الزيتونة لطلب العلم، فدرس علوم النحو والصرف والبلاغة والمنطق من جهة، وعلوم المقاصد كتفسير القرآن والقراءات والحديث ومصطلح الحديث والكلام وأصول الفقه والفقه والفرائض من جهة

والآداب والفنون (بيت الحكمة)، قرطاج، تونس، ص 49

⁴ ينظر: محمد الحبيب بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تح: حمادي الساحلي والجيلالي الحاج بن يحيى، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1986م، 422-439

⁵ ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، ص 37

أخرى، وقد شهد له شيوخه بتفوّقه ونبوغه فيها، وبقدرته الفائقة على احتواء موضوعاتها وتعمّق أسرارها، سجّلوا ذلك في دفتر شهادته، كلٌّ في المادّة التي درّسها له.⁶

أولياته:

انفرد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بأولّيات سبق بها غيره تتم عن علمه وفضله وعظم شخصيته، ورفيع مكانته؛ فهو:

- أوّل من فسّر القرآن كاملا في إفريقيا، على نمط التفسير التحليلي، وذلك في كتابه (التحرير والتنوير).
- وأوّل من جمع بين منصبي شيخ الإسلام المالكي، وشيخ الجامع الأعظم (الزيتونة).
- وأوّل من سُمّي شيخا للجامع الأعظم سنة 1351هـ / 1932م، ليتولّى الإصلاحات العلمية والتّعليمية، فكان أوّل شيخ لإدارة التّعليم بجامع الزيتونة عوضا عن النظارة (الهيئة المشرفة على التّعليم) التي كانت هي المسيرة للتّعليم به.
- وأوّل من لقّب بشيخ الإسلام بتونس، وهو لقب تفخيميّ تداولته الرئاسة الشرعية بتونس منذ القرن العاشر الهجري، ولم يكن لدى المالكية بتونس هذا اللقب، وقد أُطلق على رئيس المجلس الشّرعي بصفة رسميّة عليه.
- وأوّل من تقلّد جائزة الدّولة التقديرية للدّولة التّونسية، ونال وسام الاستحقاق الثقافي سنة 1968م، وهو أعلى وسام ثقافيّ قرّرت الدّولة إسناده إلى كلّ مفكّر امتاز بإنتاجه الوافر ومؤلفاته العميقة الأبحاث، ودعوته الإصلاحية ذات الأثر البعيد المدى في مختلف الأوساط الفكرية، وحصل على جائزة رئيس الدّولة في الإسلاميات بين عامي 1972 و1973م.

⁶ ينظر: محمد الحبيب بن الخوجة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر: محمد الطاهر بن عاشور، 148/1 - 150

- وأوّل من أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة في عصرنا الحالي، بعد العزّ بن عبد السلام والشّاطبيّ.

- وأوّل من أدخل إصلاحات تعليمية وتنظيمية في الجامع الزيتوني في إطار منظومة تربويّة فكريّة، صاغها في كتابه (أليس الصبح بقريب)، كما أضاف إلى الدّراسة موادّ جديدة كالكيمياء، والفيزياء، والجبر وغيرهما، وأكثر من دروس الصّرف، ومن دروس أدب اللّغة، وشرع بنفسه في تدريس ديوان الحماسة، ولعلّه أوّل من درّس ذلك في الزيتونة.⁷

مؤلفاته:

يعدّ تفسير (التحرير والتّنوير) من أهمّ المؤلّفات التي خلفها الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور في علم التفسير، وإلى جانب ذلك، خلف عددا كبيرا من المؤلّفات بلغت حوالي أربعين كتابا في مختلف العلوم، في الحديث والفقه واللغة والأدب وغيرها. وتفصيل ذلك كما يأتي:

في الحديث النبوي الشريف:

- _____ تعليقات وتحقيق أم زرع (مخطوط).
- _____ النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح (مطبوع).
- _____ كشف المغطّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ (مطبوع).

في الفقه وأصوله:

- _____ آراء اجتهادية (مخطوط).
- _____ الأمالي على مختصر خليل (مخطوط).

⁷ ينظر: إياد خالد الطباع، محمد الطاهر بن عاشور: علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، دار القلم، ط1،

_____ حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب (التنقيح على شرح تنقيح
الفصول في الأصول) للقرافي (مطبوع).

_____ الفتاوى (مخطوط).

_____ قضايا وأحكام فقهية (مخطوط).

_____ مقاصد الشريعة الإسلامية (مطبوع).

في الدراسات الإسلامية:

_____ أصول التقدّم في الإسلام (مخطوط).

_____ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام (مطبوع).

_____ أليس الصبح بقريب: التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء
إصلاحية (مطبوع).

_____ تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة (مطبوع).

_____ نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق (مطبوع).

في اللغة والأدب:

_____ أصول الإنشاء والخطابة (مطبوع).

_____ الأمالي على دلائل الإعجاز للجرجاني (مخطوط).

_____ تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكاتب لابن
السيد البطليوسي (مخطوط).

_____ تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر المعروف بمقدّمة في النحو
(مطبوع).

_____ تحقيق وتعليق على كتاب الانتصار للجالينوس للطّيب بن زهر (مخطوط).

_____ التعليق على المطوّل بحاشية السيالكوتي (مخطوط).

_____ جمع وشرح ديوان سُحيم عبد بني الحسحاس (مخطوط).

- _____ ديوان بشار بن برد شرح وتحقيق (مطبوع).
- _____ ديوان النابغة الذبياني (مطبوع).
- _____ سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسّام النحوي - تحقيق - (مطبوع).
- _____ شرح ديوان الحماسة (مخطوط).
- _____ شرح معلقة امرئ القيس (مخطوط).
- _____ شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام (مطبوع).
- _____ غرائب الاستعمال (مطبوع).
- _____ قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المخلّق (مطبوع).
- _____ مراجعات تتعلق بكتابي معجز أحمد واللامع العيزي (مطبوع).
- _____ موجز البلاغة (مطبوع).
- _____ الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصبهاني (مطبوع).
- في التاريخ والتراجم:**
- _____ تراجم بعض الأعلام (مخطوط).
- _____ قصة المولد النبوي الشريف (مطبوع).
- _____ قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لأبي نصر الفتح بن الخاقان (مطبوع).
- _____ كتاب تاريخ العرب (مخطوط)
- وإضافة إلى ماسبق، فإنّ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور العديد من المقالات المنشورة في الكثير من المجلّات والصحف والدوريات مثل: (السعادة العظمى)، و(النهضة)، و(الزهرة)، و(الوزير)، و(العصر الجديد)، و(العمل الصباح)، و(الهداية الإسلامية) في

تونس. و(هدي الإسلام)، و(الرسالة)، و(مجلة مجمع اللغة العربية)، و(مصباح الشرق)، و(مجلة المنار)، و(الهداية الإسلامية) في القاهرة. و(مجلة اجمع العلمي العربي) في دمشق.⁸

زوج و أولاده:

تزوج الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ابنة نقيب الأشراف بتونس؛ محمد محسن. وكان له ثلاثة بنين، هم: العلامة البحر محمد الفاضل بن عاشور، والسيدان الجليلان: عبد الملك وزين العابدين رحمهم الله، وبتان.⁹

وفاته:

توفي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في يوم الأحد الثالث عشر من رجب عام ثلاثة وتسعين وثلاثمائة وألف هجري، الموافق للثاني عشر من شهر أوت عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف ميلادي عن عمر يناهز سبعا وتسعين عاما¹⁰، بعد حياة حافلة بالنشاط والتأليف والجهاد في سبيل الإصلاح.

تفسير التحرير والتنوير:

يحمل تفسير ابن عاشور عنوان: (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد)، والاسم المختصر له والمعروف به هو: (تفسير التحرير والتنوير)،

⁸ ينظر: إياد خالد الطباع، محمد الطاهر بن عاشور: علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، ص 95- 155

⁹ محمد الحبيب بن الخوجة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر: محمد الطاهر بن عاشور، 1/162، 163

¹⁰ ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، ص 68

أو(التحرير والتنوير)، وهو يوافق الاسم الذي ارتضاه المؤلف وذكر لفظه في مقدّمة الكتاب، وهو: (التحرير والتنوير من التفسير).¹¹

وأوّل ما طُبِع من هذا التفسير: جزء (عمّ) و(سبّح) بتونس سنة 1956، ونُشرت مقدّماته العشر مستقلّة، وهي تتّصل بعلوم القرآن، ونُشر المجلّدان الأوّلان منه بالقاهرة سنتي 1965، و1966، ثمّ طُبِع كاملاً ابتداءً من سنة 1968 بتونس، وهو في خمسة عشر مجلّداً، بها تفسير ثلاثين جزءاً بتجزئة القرآن.¹²

¹¹ ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 8/1، 9

¹² ينظر: محمد الحبيب بن الخوجة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر: محمد الطاهر بن عاشور، 313 / 1

مناسبة تأليفه ومدّته:

ذكر الأستاذ إياد خالد الطّباع أنّ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور أول من فسّر القرآن كاملاً في إفريقيا، بتفسيره (التحرير والتنوير)، وإفريقيا اسم يشمل البلاد التونسية وما حولها، وتحديدًا ما بين برقة وطنجة، وقد يطلقها البعض على القيروان كونها كانت مقر الإمارة، وقد سبقه إلى ذلك يحيى بن سلام القيرواني (ت/ 200هـ — 815م) الذي صنّف كتاب (التصاريّف) وهو تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، أي: في الوجوه والنظائر، غير أن التفسير الكامل للقرآن الكريم كان على يد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، فقد ادّخر الله هذا الفضل له ليتّوجه به.¹³

كان تأليف ابن عاشور لتفسير (التحرير والتنوير) عن أمنية راودته، وتلهّفت نفسه إليها مراراً، غير أنّ تولّي القضاء ثمّ الإفتاء زادا في تباعدها، إلى أن منّ الله عليه وعقد العزم على تحقيقها. قال الشيخ واصفاً هذه الحال: "وفيما أنا بين إقدام وإحجام أتخيل هذا الحقل مرّة القتاد وأخرى الثمام، إذا أنا بألمي قد خيل إليّ أنه تباعد أو انقضى، إذ قدر أن تُسند إليّ خطّة القضاء، فبقيت متلهّفاً ولات حين مناص، وأضمرت تحقيق هاته الأمنية متى أجمل الله الخلاص، وكنت أحادث بذلك الأصحاب والإخوان، وأضرب المثل بأبي الوليد بن رشد في كتاب البيان، ولم أزل كلّما مضت مدة يزداد التّمني وأرجو إنجازها، إلى أن أوشك أن تمضي عليه مدة الحيازة فإذا الله قد منّ بالنقلة إلى خطّة الفتيا، وأصبحت الهمة مصروفة إلى ما تنصرف إليه الهمم العليا، فتحولّ إلى الرّجاء ذلك اليأس، وطمعت أن أكون ممن أوتي الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها الناس. هنالك عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمرته، واستعنت بالله تعالى واستخرته، وعلمت أن ما يهول من توقّع كلّ أو

¹³ ينظر: إياد خالد الطّباع، محمد الطاهر ابن عاشور: علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، ص78

غلط لا ينبغي أن يحول بيني وبين نسج هذا النّمت، إذا بذلت الوسع من الاجتهاد، وتوحيّت طرق الصّواب والسّداد.¹⁴

وقال يصف طول المدّة التي ألّف فيها هذا الكتاب وما انتابه فيها من أحوال التّشاط والفتور: "وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف، فكانت مدّة تأليفه تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر، وهي حقبة لم تخل من أشغال صارفة ومؤلّفات أخرى أفناها وارفة، ومنازع بقريحة شاربة طورا وطورا غارقة، وما خلا ذلك من تشتّت بال، وتطوّر أحوال، ممّالم تخل عن الشكاية منه الأجيال، ولا كفران لله، فإنّ نعمه عليّ أوفى، ومكايل فضله عليّ لا تطفف ولا تكفا، وأرجو منه تعالى لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصّة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور، وكان تمامه بمترلي ببلد المرسى شرقي مدينة تونس.¹⁵

وتفسير التّحرير والتّنوير يعد في الجملة تفسيراً بلاغياً بيانياً لغوياً عقلاً لا يغفل المأثور ويهتمّ بالقراءات، حفّ بضرّوب من التّأويل والفهم لمقاصد الشريعة ما يعزّ وجوده في غيره، ويتفرّد به عن سواه، وطريقة مؤلّفه فيه أن يذكر مقطعاً من السّورة ثم يشرع في تفسيره مبتدئاً بذكر المناسبة، ثم يتناول لغويّات المقطع، ثم التفسير الإجمالي، ويتعرّض فيه للقراءات والفقهيّات... وهو يقدّم عرضاً تفصيلياً لما في السّورة ويتحدّث عن ارتباط آياتها وتناسبها،¹⁶ فهو لم يغادر سورة إلا بيّن ما أحيط بها من أغراضها، لئلا يكون النّاطر في تفسير القرآن - كما يقول ابن عاشور - مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جملته، كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجّب عنه روائع جماله.¹⁷

ومما قاله المصنّف في تقديمه لكتابه: "وقد اهتمت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال واهتمت أيضا ببيان تناسب اتصال

¹⁴ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 6/1

¹⁵ ينظر: المرجع نفسه، 30/ 636، 637

¹⁶ ينظر: عبد الناصر محمد رزق، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا (أطروحة دكتوراه)، جامعة

الأزهر، القاهرة، 1420 هـ - 1999 م، ص 833

¹⁷ ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 8/1

الآي بعضها ببعض".¹⁸ وقال: "واهتمت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبطٍ وتحقيقٍ، مما خلت عن ضبطٍ كثيرٍ منه قواميسُ اللغة".¹⁹

وهكذا فإن تفسير التحرير والتنوير هو أحد التفاسير المتميزة التي جمعت بين عمق التحليل والاستفادة من التراث التفسيري، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يمثل حصاد عشرات السنين التي قضاهم مؤلفه في تصنيفه فحسب، بل يمثل فوق ذلك حصاد قرون من جهود الأجيال في التفسير والتأويل والاستنباط والتحليل.

¹⁸ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 8/1

¹⁹ المرجع نفسه، 8/1

الفصل الأول

التناسب الصوتي

اهتم ابن عاشور بتحليل الظواهر الصوتية من خلال مباحث عديدة عاجلها في تفسيره، ويدلّ اهتمامه ببحث هذه الظواهر على إدراك منه لقيمتها في إكساب النص سمات تؤكد تناسبه وتبرز إعجازه.

وفي ما يأتي عرض لأهم مباحث التناسب الصوتي في القرآن الكريم كما بدت في تفسير ابن عاشور، وقد وقفنا منها على الفاصلة والجناس والمشاكلة والاتزان.

أولاً: الفاصلة

إذا كان التناسب الصوتي هو ذلك الانسجام الذي يحصل بين الأصوات بعضها مع بعض، أو بينها وبين السياق الواردة فيه والمعنى الذي تعبّر عنه، فإن الفاصلة تمثل أبرز مظهر لهذا التناسب، وقد لحظنا في تفسير التحرير والتنوير أن التناسب الصوتي للفاصلة قد يكون مقصوراً على الجانب الصوتي، وقد يكون مقروناً بالإشارة إلى مراعاة المعنى.

فمن أمثلة مراعاة الفواصل صوتياً، العدول عن لفظ مفرد إلى جمعه كما في لفظ (الحمير) في قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19]، يقول ابن عاشور: "وإنما أوتر لفظ الجمع لأن كلمة الحمير أسعد بالفواصل؛ لأنّ من محاسن الفواصل والأسجاع أن تجري على أحكام القوافي، والقافية المؤسسة بالواو أو الياء لا يجوز أن يرد معها ألف تأسيس، فإنّ الفواصل المتقدمة من قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) [لقمان: 12] هي (حميد، عظيم، المصير، خبير، الأمور، فخور، الحمير)، وفواصل القرآن تعتمد كثيراً على الحركات والمدود والصيغ دون تماثل الحروف وبذلك تخالف قوافي القصائد.²⁰

²⁰ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 168/21

ومن ذلك أيضا إيثار لفظ (الأنثى) على لفظ (الإناث) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ [النجم: 27] ليناسب الفواصل (الأولى) و(يرضى) و(شيئا).²¹

وقد يكون العدول عن مصدر إلى آخر مدعاةً للتناسب الصوتي بين فواصل الآيات القرآنية، ففي قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ [عم: 28] ورد المصدر (كِذَابًا) "بكسر الكاف وتشديد الذال مصدر (كذب)، و(فِعَال) بكسر أوله وتشديد عينه مصدر (فَعَّل) مثل التفعيل، ونظائره: الْقِصَارُ؛ مصدر (قَصَرَ)، والقِضَاءُ، مصدر (قَضَى)، والخِرَاقُ، مصدر (خَرَّقَ) المضاعف، والفِسَارُ، مصدر (فَسَرَ)... وأوثر هذا المصدر هنا دون (تكذيب) لمراعاة التماثل في فواصل هذه السورة".²²

وَألف التأسيس في القوافي هي ألف مدّ تلتزم في القصيدة، ويكون بينها وبين حرف الروي حرف متحرك يلزم ذلك الموضع.²³

وقد تقتضي مراعاة الفواصل صوتيا إيثار صيغة اسمية للفاصلة لتناسب حركاتها حركات الفواصل المجاورة لها في السياق، فمصدر الجذر (ر ش د) ورد في سورة الكهف بصورتين: الأولى (رَشَدًا) في موضعين هما قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10] وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لِقُرْبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 24]، والثانية (رُشْدًا) في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66].

²¹ المرجع نفسه، 115/27

²² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 39 / 30

²³ ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، علم القافية عند القدماء والمحدثين بين النظرية والتطبيق، مؤسسة

المختار، ط1، القاهرة، 1425هـ، 2005م، ص29،

ووجه إثارة تحريك الحرفين في الموضعين الأولين أن ذلك أنسب بالكلمات الواقعة في قرائن الفواصل، كما أن ضم الراء أنسب بالقرائن المجاورة له وهي (علما، صبرا، خبرا، أمرا...) ²⁴

ويرى ابن عاشور أن حذف ياء المتكلم من آخر الفاصلة يكون في الأغلب للتناسب الصوتي بين الفواصل، كما في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ [ص:8]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء:117]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:124، 123]، والدليل على حذف ياء المتكلم في هذه الفواصل هو إبقاء الكسرة في أواخرها، وهذا الحذف حسب ابن عاشور كثير في باب الفواصل القرآنية. ²⁵

ولا شك أن الوقف على هذه الفواصل أدلّ على هذا التناسب الصوتي فيما بينهما. ويظهر التناسب الصوتي كذلك في باب التقديم، أي تقديم لفظ على لفظ تحقيقا لتناسب الفواصل، كتقديم لفظ (رؤوف) على لفظ (رحيم) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143]، حيث عني ابن عاشور بالوقوف عند هذه الآية وتحليل فواصلها بالنظر إلى أصواتها فقال: "وتقديم (رؤوف) ليقع لفظ (رحيم) فاصلة فيكون أنسب بفواصل هذه السورة لانبناء فواصلها على حرف صحيح ممدود يعقبه حرف صحيح ساكن، ووصف رؤوف معتمد ساكنه على الهمز، والهمز شبيه بحروف العلة،

²⁴ ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 267/15

²⁵ المرجع نفسه، 164/19

فالنطق به غير تامّ التمكنّ على اللسان، وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا أشبه حرف اللين فلا يتمكنّ عليه سكون الوقف.²⁶

وهذا تحليل دقيق أفاد فيه من علم الأصوات ومخارج الحروف.

وفي مواضع كثيرة يشير ابن عاشور إلى أن التناسب بين الفاصلة وموضعها قد يجمع بين جانب الصوت وجانب المعنى، كاختيار صيغة المضارع في الفاصلة (تقتلون) بدل الماضي في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]، حيث "جاء الفعل (تقتلون) بالمضارع عوضاً عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة، وهي حالة قتلهم رسلهم كقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: 9]، مع ما في صيغة (تقتلون) من مراعاة الفواصل فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم.²⁷

ومثل ذلك تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70]، يقول ابن عاشور "وتقديم المفعول في قوله: (فَرِيقًا كَذَّبُوا) لمجرد الاهتمام بالتفصيل لأنّ الكلام مسوق مساق التفصيل لأحوال رُسل بني إسرائيل باعتبار ما لاقوه من قومهم، ولأنّ في تقديم مفعول (يقتلون) رعاية على فاصلة الآي، فقدّم مفعول (كَذَّبُوا) ليكون المفعولان على وتيرة واحدة، وجيء في قوله: (يقتلون) بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار تلك الحالة الفظيعة إبلاغاً في التعجيب من شناعة فاعليها.²⁸

وفي سورة النجم مثال آخر عن هذا التناسب المزدوج، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: 24، 25]، حيث قدّم لفظ الآخرة على لفظ الأولى، قال ابن عاشور: "وإنما قدّمت الآخرة للاهتمام بها والتنبيه إلى أنها التي يجب

²⁶ ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 26 / 2

²⁷ المرجع نفسه، 14/2

²⁸ المرجع نفسه، 272/6

أن يكون اعتناء المؤمنين بها، لأن الخطاب في هذه الآية للنبيء -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين، مع ما في هذا التقديم من الرعاية للفاصلة.²⁹

ويشير ابن عاشور إلى التناسب الصوتي بعبارات تتكرر في هذا الشأن نحو قوله: لرعاية الفاصلة، أو للفاصلة، أو للرعاية على الفاصلة... إلخ.

ويعدّ تقديم المجرورات على عواملها من أكثر الأمثلة التي أوردها ابن عاشور في باب التناسب الصوتي والدلالي، وأوّل ما يتبدّى لنا حين نقرأ الآيات التي تتضمّن هذا التقديم ذلك الإيقاع المتناسب الذي تحدّثه الفواصل جرّاء التماثل الصوتي، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: 59، 57]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَمٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، فتقديم المجرورات الثلاثة على عواملها في الآية الأولى، والمجرور في الآية الأخرى إنما هو للرعاية على الفواصل مع الاهتمام بمضمونها.³⁰

فأما الرعاية على الفواصل فهو أمر واضح يتمثّل في تحقيق التناسب الصوتي بينهما، وأما الاهتمام بمضمونها فهو إشارة إلى بعض المعاني والإيحاءات التي يشي بها التقديم أو يدلّ عليها، ولعلّ من أبرز هذه المعاني، معنى الاختصاص الجامع لأغراض تقديم الجار والمجرور في العموم، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: 79]، فهذا التقديم مؤذن بالاختصاص، قال الزمخشري: "فإن قلت: تقديم الظرف في قوله تعالى: (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها، قلت:

²⁹ المرجع نفسه، 11/27

³⁰ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 69/8

الأكل منها هو الأصل الذي يعتمد عليه الناس في معاشهم، وأمّا الأكل من غيرها فكغير المعتدّ به، وكالجارى مجرى التفكّه.³¹

وقد يأتي الاختصاص الذي يفيد تقديم الجار والمجرور موحياً في بعض السياقات بشيء من التعريض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2]، يقول ابن عاشور: "وتقديم المجرور في قوله: (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) هو تعريض بالمشركين الذين لا يخصّون الله بالعبادة، ولا يفردونه بالوحدانية، بل يشركون معه أصنامهم.

ومن أمثلة اقتران التناسب الصوتي والدلالي في فواصل الآيات القرآنية، العدول عن المصدر إلى الفعل كما في قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ بَرِيْتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:41]، فإنه لم يأت مصدراً كما أتى به في قوله: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس:41] إلى الإتيان به فعلاً صلة — (ما) الموصولة للدلالة على البراءة من كل عمل يحدث في الحال والاستقبال، وأمّا العمل الماضي فلكونه قد انقضى لا يتعلق الغرض بذكر البراءة منه، ولو عبّر بالعمل لربما توهم أن المراد عمل خاص، لأن المصدر المضاف لا يعمّ، ولتجنّب إعادة اللفظ بعينه في الكلام الواحد؛ لأن جملة البيان من تمام المبيّن، ولأن هذا اللفظ أنسب بسلاسة النظم، لأن في (ما) في قوله: (مِمَّا أَعْمَلُ) من المدّ ما يجعله أسعد بمدّ النفس في آخر الآية والتهيئة للوقف على قوله: (مِمَّا تَعْمَلُونَ).³²

ومن هنا ندرك أن الفاصلة مظهر بارز من مظاهر التناسب الصوتي التي تميز بها النظم القرآني، وقد حظيت باهتمام خاص من قبل ابن عاشور، وهو اهتمام يؤكّد في ما يبدو قناعة لديه بأن الجانب الصوتي هو أحد المحاور الأساسية في النظم.

ثانياً: الجناس

³¹ الزمخشري، الكشاف، 424/3

³² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 175/11

يقوم التناسب الصوتي الذي يمثله الجنس على مبدأ المماثلة والتوافق الشكلي بين الكلمات من الناحية الصوتية مع اختلاف معانيها.

ولقد تعددت إشارات ابن عاشور إلى هذه الظاهرة، غير أن هذه الإشارات في معظمها لم تحظ بال العناية والاهتمام الكامل من الناحية الفنيّة الجماليّة، فقد كان تركيز ابن عاشور على بيان ما في الآيات القرآنية من أنواع الجنس المختلفة دون التعرّض إلى قيمتها الفنيّة في السياق، وأبرز أنواع الجنس التي رصدناها في تفسير التحرير والتنوير هي الجنس التام والجناس غير التام، وكل نوع منهما تدرج ضمنه أشكال أو وجوه مختلفة للألفاظ المتجانسة، وقد وردت الألفاظ المتجانسة من كلا النوعين أسماء وأفعالا، كما ورد الجنس بين الأفعال والأسماء، وبين الحرف والحرف.

فمن أمثلة الجنس التام بين الأسماء إشارة ابن عاشور إلى لفظ (لهب) و(لهب)³³ في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 1-3]، ولفظي (الساعة) و(ساعة) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: 55]³⁴

وكذلك الجنس التام بين لفظي (قريب) في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: 51، 50]، فقد ذهب ابن عاشور إلى أن "ليس بين كلمتي (قريب) هنا والذي في قوله: (إنه سميع قريب) ما يشبه الإيطاء في الفواصل لاختلاف الكلمتين بالحقيقة والمجاز فصار في الجمع بينهما محسن الجنس التام."³⁵

والإيطاء كما عرّفه النقاد والبلاغيون هو تكرير القافية بمعنى واحد.³⁶

³³ المرجع نفسه، 600/30

³⁴ المرجع نفسه، 128/21

³⁵ المرجع نفسه، 239/22

³⁶ ينظر: ثعلب، قواعد الشعر، ص 43

ومن أمثلة الجناس غير التام بين الأسماء، الجناس المذيل بين (مرج) و(المرجان)¹، في قوله
قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ يخرجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ
وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22، 19]، ويبدو التذييل في لفظ (المرجان) ماثلا في حرفي المدّ
والنون.

وكذلك الجناس المزدوج بين لفظي (سبأ) و(نبأ) في قوله تعالى: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَآٍ بَنِيَّ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22]، يقول ابن عاشور:
"وبين (سبأ) و(نبأ) الجناس المزدوج²، وهذا الاختلاف بين هذه الألفاظ المتجانسة يقابله
اكتلاف يقوم على تناسب صوتي حسن أكسب الكلام حسنا.

وأما الجناس بين الأفعال، فمن أمثلة نوعه الأول وهو الجناس التام ما أورده ابن عاشور
في قوله تعالى في سورة الشمس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا... فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: 14، 7]، وهو بين الفعلين الماضيين (وَمَا سَوَّاهَا) و(فَسَوَّاهَا)³.

ويشير إلى شكل من أشكال الجناس التام وهو المحرف بين (ليعلمون) و(عما يعملون)⁴
يعملون⁴ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144].

ويبدو أن معنى التحريف في الجناس التام المحرّف أن يكون عدد الحروف هو ذاته في
كلا اللفظين المتجانسين، ويكون الاختلاف في ترتيب بعض حروف اللفظين أو كليهما،
ومع ذلك فإن هناك تناسبا صوتيا واضحا بينهما، وأحيانا يطلق ابن عاشور اسم الجناس
المقلوب قلب بعض على هذا الجناس المحرّف.

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 249/27

² المرجع نفسه، 248/19

³ المرجع نفسه، 375/30

⁴ المرجع نفسه، 562/1

وهذا التحريف نجده أيضا في الجناس القريب من التام، ومعناه هنا أن يتشابه اللفظان في جميع حروفهما إلا في حرفين، مثل الجناس المحرف بين (تفرحون) و(تمرحون)¹، في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: 75]

وقد يكون معنى التحريف غير ذلك كما هو واضح من الجناس بين (استوى) و(سواهن)² في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: 29]

وقد يكتفي ابن عاشور بالإشارة إلى الجناس المحرف بقوله: "القريب من التام" كما هو الحال بين لفظي: (ينهون) و(ينأون)³ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26].

ومن الأمثلة أيضا على الأفعال المتجانسة تجانسا قريبا من التام ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: 44]. يقول ابن عاشور: "واختير (ابلعي) على ابتلعي لكونه أحصر، ولجيء حظّ التجانس بينه وبين (أقلعي) أوفر."⁴

ومنه أيضا الجناس المصحف بين الفعلين (يحسبون) و(يحسنون)⁵ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]

والجناس المصحف هو نفسه جناس الخط "وهو أن تكون صورة الكلمتين واحدة في الخط وإنما تختلفان في النطق."⁶

¹ المرجع نفسه، 203/24

² المرجع نفسه، 382/1

³ المرجع نفسه، 182/7

⁴ المرجع نفسه، 78/12

⁵ المرجع نفسه، 45/16

⁶ المرجع نفسه، 254/19

ومن نماذج الجناس بين الأفعال والأسماء التي أشار إليها ابن عاشور، الجناس المحرف بين (الشاكرين) و(تشركون)¹، في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنْجَأْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 64، 63]، والجناس المذيل بين (قال) وبين (القالين) -ويسمى مطرفاً²- في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: 168].

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: 43] اكتفى ابن عاشور بذكر الجناس بين (أقم) و(القيم)³.

أما الجناس بين الحرف والحرف، فإن أكثر الأمثلة التي أوردها ابن عاشور فيه تتعلق بالحرف (من)، من ذلك إشارته إلى الجناس التام بين (من) الأولى و(من) الثانية في قوله تعالى: ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ﴾ [الروم: 28]، فـ " (مِنْ) " في قوله (مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) تبعيضية، و(مِنْ) في قوله (مِنْ شُرَكَاءَ) زائدة مؤكدة لمعنى النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري. فالجمع بين هذه الحروف في كلام واحد من قبيل الجناس التام.⁴

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [يس: 28] بين ابن عاشور ما فيه من جناس بقوله: "و(مِنْ) في قوله: (مِنْ جُنْدٍ) مؤكدة لعموم (جُنْدٍ) في سياق النفي، و(مِنْ) في قوله: (مِنْ السَّمَاءِ) ابتدائية، وفي الإتيان بحرف (مِنْ) ثلاث مرات مع اختلاف المعنى مُحسِّن الجناس.⁵ وهو من قبيل الجناس التام.

¹ المرجع نفسه، 134/11

² المرجع نفسه، 180/19

³ المرجع نفسه، 114/21

⁴ المرجع نفسه، 85/ 21

⁵ المرجع نفسه، 5/23

ومن ذلك أيضا الجناس التام بين (منه) و(منه)¹، في قوله تعالى: ﴿لَا خِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ
ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 45، 46].

وبهذا يمكن القول إن الجناس من أهمّ ظواهر التناسب السياقي الصوتي في القرآن الكريم، وقد بدا هذا واضحا في تفسير ابن عاشور من خلال الأمثلة الكثيرة التي تناولها بالتحليل وأشار إلى أثرها الجمالي الناتج عن خاصيتها التناسبية.

ثالثا: المشاكلة:

المشاكلة وجه آخر من وجوه الانسجام الصوتي، له قيمته الفنية في التناسب السياقي ضمن الآيات القرآنية كما أن له قيمته الدلالية وأثره النفسي والفني.

والمشاكلة شبيهة بالجناس من حيث تكرير الأصوات غير أن الاختلاف بينهما يكمن في أن الألفاظ المتجانسة تختلف فيما بينها من حيث المعنى، أما الألفاظ المتشاكلة فمعناها المعجمي واحد، ولكن المعنى الذي يؤدّيه كل لفظ في السياق يختلف عن معنى اللفظ الآخر، وهذا هو جوهر المشاكلة، ومن تعريفاتها: "ذكر الشيء بغير لفظه اعتمادا على معموله أو عامله"²، أي أن اللفظ المشاكل يقع في صحبة اللفظ المشاكل، وقد وقع من ذلك في القرآن الكريم نماذج كثيرة أشار إليها ابن عاشور في تفسيره، ومنها المشاكلة في الأفعال والمشاكلة في الأسماء والمشاكلة في الحروف.

وتظهر نماذج المشاكلة في الأفعال في صور مختلفة أبرزها أن تطلق صفة من صفات الله تعالى على فعل من أفعال العباد، أو العكس من ذلك، أي أن يقام فعل من أفعال العباد مقام صفة لله تعالى.

¹ المرجع نفسه، 144/29

² الجرجاني محمد بن علي، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1423هـ / 2002م، ص213

فمن أمثلة الصورة الأولى قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: 119]، يقول ابن عاشور: "وأما الرضى في قوله: (ورضوا عنه) فهو كناية عن كونهم نالهم من إحسان الله ما لا مطلب لهم فوقه كقول أبي بكر في حديث الغار: "فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتَ"، وقول مخزّمة حين أعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قَبَاءً: "رَضِيَ مَخْرَمَةً". وزاده حُسْنُ وقع هنا ما فيه من المشاكلة.¹، فقد أقام الرضى عن الله منهم مقام ما نالوه من الفرح والفوز والظفر بأرفع درجات النعيم على سبيل المشاكلة، فجاء لفظا الرضى متوافقين صوتيا معبرين بقوة عن تناسب صوتي بديع وانسجام معنوي دقيق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، فقد ذكر ابن عاشور أن فيها استعارة²، ولم يصرح بما فيها من مشاكلة، ولكنه ذكر في موضع آخر من تفسيره أن "المشاكلة لا تعدو أن تكون استعارة لفظ لغير معناه، مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر، مثل اللفظ المستعار، فالمشاكلة ترجع إلى التلميح، أي إذا لم تكن لإطلاق اللفظ على المعنى المراد علاقة بين معنى اللفظ والمعنى المراد إلا محاكاة اللفظ سُمّيت مشاكلة.³"

ومن أمثلة استعارة فعل من أفعال العباد لله تعالى على سبيل المشاكلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37] — (تاب) في أصله فعل من أفعال العباد، ولكنه استعير لغير معناه لوقوعه في صحبته للمشاكلة، يقول ابن عاشور: "وأصل معنى تاب رجع ونظيره تاب بالمثلثة، ولما كانت التوبة رجوعاً من التائب إلى الطاعة ونبذاً للعصيان وكان قبولها رجوعاً من المتوب إليه إلى الرضى وحسن المعاملة وصف بذلك رجوع العصي عن العصيان ورجوع المعصي عن العقاب فقالوا تاب فلان لفلان فتاب عليه، لأنّهم ضمّنوا الثاني معنى عطف ورضى،

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 485/30

² المرجع نفسه، 84/26

³ المرجع نفسه، 238/5

فاختلاف مفادَيَّ هذا الفعل باختلاف الحرف الذي يتعدَّى به وكان أصله مبنياً على المشاكلة.¹

وما يلاحظ على هذه الصورة من صور المشاكلة، أن أفعال العباد المستعارة لله تعالى على سبيل المشاكلة يدلُّ أغلبها على معان سلبية، وما إطلاقها إلا تصوير لمعنى المعاملة بضد المقصود، ويمكن أن يطلق عليه اسم مشاكلة المجازة.² وهذه الصورة "يكثُر وقوعها في الآيات التي تضمّنت الإشارة إلى جزاء الله تعالى على الأفعال السيئة، كالاستهزاء، والخداع، والمكر، ونسيان الله وآياته في الدنيا."³

فما ورد فيه لفظ الاستهزاء للمشاكلة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15]، قال ابن عاشور: "وذكر (يستَهزئ) دليل على أن مضمون الجملة مجازة على استهزائهم."⁴ فقد سُمِّيَ الجزاء على الفعل باسم الفعل، وهذا من المشاكلة، قال الزمخشري: "فإن قلت: لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى، لأنه متعال عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67]، فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأنَّ المستهزىء غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممَّن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك. وقد كثر التهكُّم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساحرون ويضحك الضاحكون، ويجوز أن يراد به ما مر في (يخادعون) من أنه يجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر، وهو مبطن بادّخار ما يراد

¹ المرجع نفسه، 437/1

² ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 256

³ المرجع نفسه، ص 256

⁴ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 293/1

بهم، وقيل: سُمِّيَ جزاء الاستهزاء باسمه، كقوله: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 194].¹

ومن استعمال لفظ السخرية للمشاكلة قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 79]، فإنَّ "إِسْنَادَ (سخر) إلى الله تعالى على سبيل المجاز الذي حَسَّنَتْهُ المشاكلة لفعلهم، والمعنى أنَّ الله عَامَلَهُمْ معاملةً تُشَبِّه سخرية الساخر، على طريقة التمثيل، وذلك في أنَّ أمر نبيه بإجراء أحكام المسلمين على ظاهريهم زمناً ثم أمره بفضحهم".² أي جازاهم على سخريتهم.

ومن المشاكلة استعمال لفظ الخداع في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]، قال ابن عاشور: "(وهو خادعهم) فقابلهم بمثل صنيعهم، فكما كان فعلهم مع المؤمنين المتبعين أمر الله ورسوله خداعاً لله تعالى، كان إمهال الله لهم في الدنيا حتى اطمأنوا وحسبوا أنَّ حيلتهم وكيدهم راجعاً على المسلمين وأنَّ الله ليس ناصرهم، وإنذاره المؤمنين بكيدهم حتَّى لا تنطلي عليهم حيلهم، وتقديرُ أخذه إيَّاهم بأخرة، شبيهاً بفعل المخادع جزاءً وفاقاً. فإطلاق الخداع على استدراج الله إيَّاهم استعارة تمثيلية، وحسَّنَتْهَا المشاكلة؛ لأنَّ المشاكلة لا تعدو أنَّ تكون استعارة لفظ لغير معناه مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر مثل اللفظ المستعار".³

وقال الزمخشري: "(وَهُوَ خَادِعُهُمْ): وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدَّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة".⁴

¹ الزمخشري، الكشاف، 1/ 185

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 10/ 274

³ المرجع نفسه، 5/ 238

⁴ الزمخشري، الكشاف، 2/ 166

ومن المشاكلة استعمال لفظ المكر في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا اللَّهَ وَاللَّهُ خَيْرٌ
الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54]، قال ابن عاشور: "والمكر: إيقاع الضرّ بالغير خفية وتحيلًا،
وهو من الخداع ومن المدام، ولا يغتفر إلا في الحرب، ويغتنر في السياسة إذا لم يمكن اتّقاء
الضرّ إلاّ به، وأمّا إسناده إلى الله في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل
عمران: 54] فهو من المشاكلة لأنّ قبله (وَمَكْرُوا)، أي مكروا بأهل الله ورسله. والمراد
بالمكر هنا تحيل زعماء المشركين على الناس في صرفهم عن النّبي - صلى الله عليه وسلّم -
وعن متابعة الإسلام، قال مجاهد: كانوا جلسوا على كلّ عقبة ينفّرون الناس عن اتّباع
النّبي - صلى الله عليه وسلّم -".¹

فمكر الله مجازاة على مكر المشركين، وبينهما ملابسة قوية ونوع من السببية زاد في
حسنها وقوع تلك المشاكلة اللفظية، قال العز بن عبد السلام: "سخرية الله واستهزائه
ومكره وخدعه من مجاز التشبيه، ويجوز أن يكون من مجاز تسمية المسبّب باسم سببه؛ فإن
سخريته تعالى واستهزائه ومكره مسبّب على استهزائهم ومكرهم وسخريتهم".²

وقريب من المكر فعل الكيد الذي أسند إلى الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا
وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15] حيث قابل الله تعالى كيد الكفار بالجزاء الذي أطلق عليه
اسم الكيد، "والكيد: إخفاء قصد الضرّ وإظهار خلافه، فكيدهم مستعمل في حقيقته،
وأما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود
ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع
تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريد، وحسنها محسن
المشاكلة".³

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 47/8

² العز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ص 109

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 267/30

وهذا الكلام ينطبق تماما على معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42]، ف_____ (إطلاق اسم الكيد على ما يجازيهم الله به عن كيدهم من نقض غزلهم إطلاقاً على وجه المشاكلة بتشبيه إمهال الله إياهم في نعمة إلى أن يقع بهم العذاب بفعل الكائد لغيره.¹

ومن المشاكلة في فعل النسيان ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: 14]، والمعنى - كما يقول ابن عاشور - أنه بسبب إهمالكم الاستعداد لهذا اليوم سننساكم، والنسيان في قوله: (نسيناكم) مستعمل في الحرمان من الكرامة على سبيل المشاكلة.²

ويمكن أن يلحق بهذا الضرب من المشاكلة اللفظية أي مشاكلة المجازاة ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ [البقرة: 40]، فهو كلام يتضمن أسلوب الشرط (فعل الشرط وجوابه)، والجواب هو جزاء على فعل الشرط باسم فعل الشرط، فهو من قبيل مشاكلة المجازاة، وتوضيحاً لهذه المشاكلة يقول ابن عاشور: " والعهد هنا هو الالتزام للغير بمعاملة التزاماً لا يفرط فيه المعاهد حتى يفسخاه بينهما، واستعير العهد المضاف إلى ضمير الجلالة لقبول ما يكلفهم به من الدين، واستعمل مجازاً لقبول التكاليف والدخول في الدين، واستعير المضاف إلى ضمير المخاطبين للوعد على ذلك بالثواب في الآخرة والنصر في الدنيا، فلك أن تجعل كل عهد مجازاً مفرداً، استعمل العهد الأول في التكاليف، واستعمل العهد الثاني في الوعد بالثواب والنصر، واستعمل الإيفاء مع كليهما في تحقيق ما التزم به كلا الجانبين مستعاراً من ملائم المشبه به إلى ملائم المشبه ليفيد ترشيحاً لاستعارته. ولك أن تجعل المجموع استعارة تمثيلية بأن شبه الهيئة الحاصلة من قولهم لما أمرهم الله به، وأن لا

¹ المرجع نفسه، 77/27

² المرجع نفسه، 224/21

يقصروا في العمل، ومن وعد الله إياهم على ذلك بالثواب بهيئة المتعاهدين على التزام كل منهما بعمل للآخر ووفائه بعهده في عدم الإخلال به، فاستعير لهذه الهيئة الكلام المشتمل على قوله: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) وهذا أحسن، وبه يتبين وجه استعمال لفظ العهد الثاني في قوله تعالى: ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، وتقرّبه المشاكلة.¹

ومما سبق يتّضح لنا أن مشاكلة المجازاة في لغة القرآن الكريم هي مشاكلة يقع فيها الجزاء على الفعل باسم الفعل ذاته، وقد يلحق بهذه الصورة من المشاكلة أسلوب الشرط. ومن ظواهر المشاكلة اللفظية في الأفعال إثارة القرآن اللفظ المشاكل بناء على وروده في كلام سابق، وهو أسلوب آخر من أساليب التعبير الفني في القرآن الكريم الذي يجمع بين الوفاء بحق اللفظ والمعنى جميعا كقوله تعالى: ﴿فَالْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ [النحل: 87]، فبين الفعل (ألقوا) الثاني والفعل (ألقوا) الأوّل مشاكلة لفظية إذا جعلنا الإلقاء الثاني تمثيلا لحالهم بحال المحارب إذا غلب، إذ يلقي سلاحه بين يدي غالبه²، فيكون معنى الإلقاء الأوّل هو القول، أي قالوا لهم وحدّثوهم، ويكون معنى الإلقاء في الثاني هو وصف لحالهم من الذلّ والاستسلام والخنوع على طريق المشاكلة اللفظية.

ومن هذا القبيل إطلاق الفعل (سيق) على تقدمة المتقين إلى الجنة تحقيقا للمشاكلة مع الفعل ذاته حين أطلق على تقدمة الكفار إلى النار³ في قوله تعالى (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) [الزمر: 73].

ومن ذلك أيضا إطلاق لفظ (الأكل) على الانتفاع لأجل المشاكلة مع لفظ سابق، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 447/1

² المرجع نفسه، 246/14

³ المرجع نفسه، 68/24

فَكُلُّوْهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿النساء:4﴾، فقد "استعمل الأكل هنا في معنى الانتفاع الذي لا رجوع فيه لصاحب الشيء المنتفع به، أي في معنى تمام التملك. وأصل الأكل في كلامهم يستعار للاستيلاء على مال الغير استيلاء لا رجوع فيه، لأنّ الأكل أشدّ أنواع الانتفاع حائلاً بين الشيء وبين رجوعه إلى مستحقّه. ولكنّه أطلق هنا على الانتفاع لأجل المشاكلة مع قوله السابق: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:2]

ولا شكّ أن المشاكلة اللفظية في الأفعال لها موقع طيّب في النفس وأثر بالغ، وهي شبيهة بفنّ الجناس من حيث إن المتكلّم "قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطّاها، ويوهّمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفّاها"¹، ولا شكّ أن التناسب الصوتي في المشاكلة اللفظية هو أولى الأمور التي تنجذب إليها النفوس، ذلك أن "الألفاظ المتناسبة تحدث ميلاً وإصغاء إليها، ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى، ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس شوق إليه."²

ومن نماذج المشاكلة في الأسماء قوله تعالى حكاية لقول عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:116]، قال ابن عاشور: "إضافة النفس إلى الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يُطلع عليه غيره، أي ولا أعلم ما تعلمه، أي مما انفردت بعلمه، وقد حسّنه هنا المشاكلة."³

وقد تكون المشاكلة اللفظية مبنية على كلام مقدّر، فيأتي اللفظ المشاكل مناسباً للمعنى الذي سيق له، كما في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:138]، "فقوله: (صبغة الله) رد على اليهود والنصارى معاً، أما اليهود

¹ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا- بيروت،

1419هـ/ 1998م، ص10،

² السيوطي، الإتقان، 2/ 90،

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 112/7

فلأن الصبغة نشأت فيهم، وأما النصارى فلأنها سنّة مستمرّة فيهم.¹ قال الزمخشري: "وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريق المشاكلة"²، وجيء بهذا اللفظ وإن لم يكن قد تقدّم، لأن قرينة الحال التي هي سبب التزول من غمس النصارى أولادهم في الماء الأصفر، دلّت على ذلك.³

ويتبيّن لنا من خلال ما سبق أن المشاكلة اللفظية في القرآن الكريم تأخذ عدة صور؛ فقد تكون في الأفعال وقد تقع في الأسماء، كما تكون بأساليب مختلفة كأن يسمّى الجزء والعقاب باسم الذنب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 14]، وقد تكون هذه المشاكلة بين لفظين ذوي أصل واحد في اللغة للدلالة على معنيين يجمعهما تجانس صوتي، وقد تكون المشاكلة مبنية على كلام مقدّر، فيؤتى باللفظ المناسب للمعنى الذي يحقق الغرض البلاغي.

ولا شك أن هذه الصور المختلفة لا تمثل إلا جزءا يسيرا من أنواع عديدة للمشاكلة، وهي بصورها المختلفة من أسباب الربط بين أجزاء القول في القرآن الكريم والتناسب السياقي فيما بينها.

رابعا: الاتزان

من المعلوم أن علماء الإعجاز اختلفوا حول قيمة البديع في البلاغة القرآنية، فمنهم من احتفى بها ومنهم من رأى أن بلاغة القرآن هي في خصائص نظمه قبل أن تكون في ظواهر بديعه، ويعد عبد القاهر الجرجاني من أبرز العلماء الذين ذهبوا هذا المذهب الأخير، ويدلّ على ذلك قوله: "ولا يجوز أن يكون الوصف الذي بان به القرآن عن كلام الناس في ترتيب الحركات والسكنات، حتى كأنهم تحدّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زنة كلمات القرآن، وحتى كأنّ الذي بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة

¹ المرجع نفسه، 742/1

² الزمخشري، الكشف، 335/1

³ ينظر: القزويني، الإيضاح، ص 361

بجور الشعر بعضها من بعض، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في (إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر).¹

وقال في موضع آخر: "وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذي تُحدُّوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل كالذي تراه في القرآن، لأنه أيضا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن، وإنما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو، فلو لم يكن التحديّ إلّا فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك، ولم يتعدّر عليهم، وقد خيّل إلى بعضهم شيء من هذا حتى وضعوا على ما زعموا فصول كلام أواخرها كأواخر الآي...".²

غير أن نفي العوامل الصوتية وإبعادها عن ساحة الإعجاز القرآني لم يمنع مفسّرين كثيرين من الإشارة إلى ما وجدوه منها في القرآن الكريم، كالذي لاحظوه من موافقة بعض آي القرآن لأوزان بجور من الشعر، وقد سمّى بعضهم هذه الظاهرة بـ (الأتزان).

وإذا كان الأتزان عنصرا من عناصر التناسب الصوتي والإيقاعي في الشعر، فإنه جزء أصيل من بلاغة النظم القرآني وفصاحته، ووسيلة من وسائل هذا النظم وأدواته التي استخدمها للتأثير والإقناع، واجتذاب القلوب والآذان إلى الاستماع، والاسترسال في الإصغاء إلى آياته.³

ولا شك أن الاتزان في النظم المقصود هنا هو الاتزان في شكله العام، أي الذي "يشمل ما يكون بين آيتين أو أكثر من تعادل في عدد الكلمات، أو في أوزانها الصرفية والعروضية، وفي عدد المقاطع الممدودة والمقصورة، كما يشمل ما بين الكلمات من تناظر

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 387

² المرجع نفسه، ص 387

³ أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 333

في المكان، وما بين كلمتين متعاقبتين أو أكثر من تشابه في الوزن.¹ أما الاتزان الذي أشار إليه ابن عاشور فهو - كما ذكرنا - موافقة بعض الآيات لأوزان البحور الشعرية.

ومن النماذج القرآنية التي ساقها ابن عاشور على هذه الظاهرة قوله تعالى ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِلِ الْقُرْآنَ﴾ [المزمل:4]، فإذا أشبعت فتحة نون القرآن وقع في الآية محسن الاتزان بأن يكون مصراعاً من بحر الكامل أحد، دخله الإضمار مرتين.²

ومن بحر الرمل التام ما ذكره ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَابٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم:5]، حيث قال: "وفي قوله تعالى: (مسلمات) إلى قوله: (سائحات) محسن الكلام المترن، إذ يلتئم من ذلك بيت من بحر الرمل التام:

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن - فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن.³

وفي قوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْفَرَهُ﴾ [عبس:17] ذكر ابن عاشور أن فيه "محسن الاتزان؛ فإنه من بحر الرمل من عروضه الأولى المحذوفة.⁴

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْثِفَانِ اللَّهَ وَيَلِكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف:17]، قال ابن عاشور: "...واعلم أن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ محسن الاتزان؛ فإنه بوزن مصراع من الرمل، عروضه محذوفة وضربه محذوف، وفيه الخبن والقبض، ويزاد فيه الكف على قراءة غير نافع وحفص.⁵

¹ المرجع نفسه، ص 329،

² ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 255/29

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 359/18

⁴ المرجع نفسه، 119/30

⁵ المرجع نفسه، 36/26

وحاصل كلام ابن عاشور أن ما في الآية هو بوزن مجزوء الرمل وتفعيلاته:

فاعلاتن فعلاتن - فاعلاتن فعِلن.

ومما وافق بحر المجتث، وقف ابن عاشور على قوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49]، فقال: "واعلم أن في قوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي﴾ إلى (الرَّحِيم) من المحسنات البديعية محسن الاتزان إذا سكنت ياء (أني) على قراءة الجمهور بتسكينها، فإن الآية تأتي متزنة على ميزان بحر المجتث الذي لحقه الخبن في عروضه وضربه، فهو (متفعِلن فعلاتن) مرتين.¹

وقد تنبه ابن عاشور إلى أن القرآن الكريم يشتمل على جميع أوزان الشعر فقال: "إن في القرآن من جميع البحور شعرا، فمن الطويل من صحيحه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، ومن مخرومه (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) [طه: 55]، ومن بحر المديد: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: 37]، ومن بحر الوافر: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]، ومن بحر الكامل: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]، ومن بحر الهزج من مخرومه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 91]، ومن بحر الرجز: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا﴾ [الإنسان: 14]، ومن بحر الرمل: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبا: 13]، ونظيره: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: 2، 3]، ومن بحر المنسرح: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، ومن بحر الخفيف ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: 2، 1]، ومنه: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78] ونحوه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: 78]، ومن بحر المضارع من مخرومه: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: 32]، ومن بحر

¹ المرجع نفسه، 56/14

المقتضب: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة:10]، ومن بحر المتقارب: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:183].¹

والذي تجب الإشارة إليه أن الاتزان في الشعر إذا كان يتمثل في تقابل الأعاريض والأضرب، وتقابل التفاعيل فيما بينها، فإن الاتزان في آي القرآن يتميز بانصهاره من حيث هو مظهر صوتي في سياق الأداء اللفظي والتعبير المعنوي معا، وهو ما يؤكد أن التناسب اللفظي والصوتي في النظم القرآني لا ينفصل عن المعنى، "فإذا كانت نهاية مقتضى الحال في مقام من مقامات الكلام تتطلب لإيفاء حقّ الفصاحة والبلاغة ألفاظا وتركيبا ونظما فاتفق أن كان لمجموع حركاتها وسكوناتها ما كان جاريا على ميزان الشعر العربي في أعاريضه وضروبه لم يكن ذلك الكلام معدودا من الشعر لو وقع مثله في كلامهم عن غير قصد، فوقوعه في كلام البشر قد لا يتفطن إليه قائله، ولو تفتّن له لم يعسر تغييره لأنه ليس غاية ما يقتضيه الحال".²

ومجمل القول: أن ابن عاشور اهتم بتحليل الظواهر الصوتية من خلال مباحث عديدة كالفاصلة والجناس والاتزان، ويدل اهتمامه ببحث هذه الظواهر في تفسيره على إدراك منه لقيمتها في إكساب النص سمات تؤكد تناسبه، وتبرز إعجازه.

¹ المرجع نفسه، 59/13

² المرجع نفسه، 61/13

الفصل الثاني

التناسب المصرفي

ينبغي البحث في هذا الفصل على ما سبق تأصيله في الفصل الثاني من الباب الأول من أن التناسب الصرفي للنظم القرآني يطلعنا على دلالات فنية وبلاغية تؤدّيها الصيغ في سياقها، وأنّ هذه الدلالات الفنية لا يمكن التعبير عنها بغير صيغها، أي أنّ هذه الفنية ترتبط باستعمال ما هو أنسب للتعبير من الصيغ والألفاظ، وبما يوافق كل سياق من سياقات الكلام.

ولقد حفل تفسير ابن عاشور بنماذج عديدة تتعلّق بهذا الجانب من التناسب، وكثيراً ما يشير ابن عاشور في عرضه لها إلى الفرق بين استعمال اللفظ بصيغة معيّنة في موضع، واستعمال الصيغة البديلة له في موضع آخر، وسنعرض أهمّ ظواهر التناسب الصرفي والتبدلات الصيغية التي أمكن رصدها عند ابن عاشور في تفسيره.

أولاً: الصيغ

1 - صيغة الفعل

أ - الصيغة غير الزمنية

نقصد بالصيغة غير الزمنية تعيّر صيغة الفعل غير المرتبطة بزمنه بين سياق وآخر، من ذلك المخالفة بين الصيغتين (فجر وفجر) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: 90].

لاحظ ابن عاشور نوعاً من المناسبة بين قراءة الجمهور للفعل (فجر) بالتشديد وبين دلالة (الينبوع) على الكثرة، ومثل ذلك مجيء الفعل (فجر) بالتشديد مع (الأنهار) في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف: 33]، بينما لاحظ عدم التفات إلى هذه المناسبة في قراءة عاصم وحمة والكسائي وخلف بالتخفيف، حيث اكتفى بدلالة (الينبوع) في أصله على المبالغة دون تحقيق المبالغة في الفعل.

وقال في قراءة الفعل (فجر) بالتشديد: "والتفجير مصدر فجرّ بالتشديد مبالغة في الفجر وهو الشقّ باتساع، ومنه سمي فجر الصباح فجراً لأن الضوء يشق الظلمة شقاً طويلاً

عريضا، فالتفجير أشد من مطلع الفجر، وهو تشويق شديد باعتبار اتساعه، ولذلك ناسب
الينبوع هنا والنهر في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف:33]، على قراءة من
قرأها بالتشديد، وقوله تعالى: ﴿فَتَفَجَّرَ الْأَنْهَارَ﴾ [الإسراء:91]¹. أما مجيء الفعل على
صيغة (فعل) في قوله تعالى: ﴿فَتَفَجَّرَ الْأَنْهَارَ﴾ فغرضه التكثير والمبالغة.

ومن اختلاف استعمال الصيغ ذوات الأصل الواحد ما جاء من استعمال صيغتي (فعل)
و(افتعل) للفعل (كسب) في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:286]، قال ابن عاشور: "وابتدئ أولا بالمشهور الكثير، ثم
أعيد بمطاويعه، وقد تكون في اختيار الفعل الذي أصله دال على المطاوعة إشارة إلى أن
الشروع يأمر بها الشيطان، فتأتمر النفس وتطاوله، وذلك بتبغيض من الله للناس في
الذنوب، واختير الفعل الدال على اختيار النفس للحسنات، إشارة إلى أن الله يسوق إليها
الناس بالفطرة."²

وذكر الزمخشري أن في فعل المطاوعة دلالة على الاعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه
النفس، فإنها تجدد في تحصيله، لذلك عبر عن فعلها هذا بالاكْتَسَاب، ولمّا لم تكن في
باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال.³

فغلبة الشر على النفس، وجدّها في تحصيله ناسبه التعبير بصيغة المبالغة في الفعل.

ومن ذلك اختلاف استعمال صيغتي (نزل وأنزل)، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ
مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ [البقرة:23]، قال ابن عاشور: "وأتى بفعل (نزل) دون (أنزل) لأن القرآن نزل

¹ المرجع نفسه، 59/13

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 134/3

³ الزمخشري، الكشاف، 520/1

نجوما، وقد تقدّم في أول التفسير أن (فعل) يدل على التقضي شيئا فشيئا.⁴ وهذا يعني أن فعل (نزلنا) أوثّر هنا للدلالة على أن تنزيل القرآن كان تنزيلا منجّما ومفرّقا. جاء في أضواء البيان للشنقيطي: "نزل بالتضعيف يدلّ على كثرة نزوله أنجما ومنجّما، قال بعض أهل العلم: ويدلّ على ذلك قوله في أول سورة آل عمران: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران:3]، قالوا: عبّر في نزول القرآن (نزل) بالتضعيف لكثرة نزوله، وأمّا التوراة والإنجيل فقد عبّر في نزولهما — (أنزل) التي لا تدلّ على تكثير؛ لأنّهما نزلا جملة وفي وقت واحد، وبعض الآيات لم يعتبر فيه كثرة نزول القرآن كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:1].⁵ فالتضعيف في (نزل) يؤذن بقوة الفعل في كميّته أو كميّته.⁶

ومن ظواهر تنوّع الصيغ بحسب التراكيب القرآنية استعمال صيغة المبني للمعلوم في موضع والمبني للمجهول في موضع آخر كما في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:2،1]، فقد ذكر ابن عاشور: "أن هذه الآية ذكر فيها فاعل الإنزال وهو معلوم من مادّة الإنزال المشعّرة بأنه وارد من قبل العالم العلوي، ولأنّ المقام مقام الامتنان على الناس المستفاد من التعليل بقوله: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، ومن ذكر صفة الربوبية بقوله: (بإذن ربهم) بخلاف آية سورة الأعراف؛ فإنّها في مقام الطمأنينة والتصبير للنبي — عليه الصلاة والسلام — المتزلّ إليه الكتاب، فكان التعرّض لذكر

⁴ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 335/1

⁵ الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت،

1424هـ/2003م، 46/6

⁶ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 147/3

المتّزّل إليه والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام مع ما فيه من قضاء حقّ الإيجاز.⁷ قال تعالى: ﴿الْمَصِّ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 2، 1].

وبهذا يمكننا القول إن استعمال صيغة معيّنة في سياقها ضمن القرآن الكريم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمضمون السياق، كصيغتي (فَعَلَ) و(فَعَّلَ)، وصيغتي (أَفْعَلَ) و(فَعَّلَ)، وصيغتي فعل و(افتعل)، فهي صيغ ترجع كل اثنتين منها إلى أصل واحد، ولكن كل صيغة لها موضعها المناسب والدقيق، بحيث لا يمكن أن تحلّ محلّها نظيرتها.

ب- الصيغة الزمنية

يراعي النظم القرآني في اختيار أزمنة الأفعال ما يناسب المعاني والأغراض، كما يثار المضارع في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91]، قال ابن عاشور: "واختير الفعل المضارع في (يعلم) وفي (تفعلون) لدلالته على التجدد، أي كلما فعلوا فعلا فالله يعلمه."⁸

فهو عز وجل لا يخفى عليه شيء مما مضى ولا شيء حاضر ولا شيء هو آت، وكل عمل يعمل به ابن آدم فالله يعلمه، سواء أكان ذلك العمل نية أم مقصداً أم فعلاً، فالتعبير عن علم الله بصيغة المضارع يدلّ على تحقّق هذه الصفة (العلم) وتجدّدّها وتتابعها على اختلاف الظروف وتنوّع الأحوال التي يتعلّق بها فعل العباد، ولذلك جاء في (تفعلون) بصيغة المضارع، فتحقّق التناسب في نسق الآية ونظمها.

ومن هذا القبيل مجيء فعل (يسبّح) بصيغة المضارع دون الماضي في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1].

⁷ المرجع نفسه، 13/181

⁸ المرجع نفسه، 14/261

قال ابن عاشور: "وجيء بفعل التسييح مضارعا للدلالة على تجدد ذلك التسييح ودوامه... وجيء به في فواتح سور الحديد والحشر والصف بصيغة المضى للدلالة على أن التسييح قد استقرّ في قديم الأزمان، فحصل من هذا التفنّن في فواتح هذه السور كلا المعنيين زيادة على ما بيّناه من المناسبة الخاصة بسورة الجمعة، وما في هاته السورة من المناسبة بين تجدد التسييح والأمر بالعفو عن ذوي القربى والأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة والسمع والطاعة لكي لا يكتفي المؤمنون بحصول إيمانهم ليجتهدوا في تعزيزه بالأعمال الصالحة".⁹

فتعزيز الإيمان بالأعمال الصالحة منوط بالتسييح المتجدّد والعفو المستمر والتقوى الملازمة بقدر الاستطاعة، والغرض من مجيء فعل التسييح مضارعا في سورة الجمعة وفي سواها ماضيا هو "التنويه بصلاة الجمعة والتنديد على نفر قطعوا صلاتهم وخرجوا لتجارة أو لهو، فناسب أن يحكي تسييح أهل السماوات والأرض بما فيه دلالة على استمرار تسييحهم وتجده تعريضا بالذين لم يتموا صلاة الجمعة".¹⁰

وهكذا فإن لإيثار صيغة الفعل المفيدة لمعنى التجدد (يسبّح) دلالتها المناسبة لسياق هذه الآية في سورة الجمعة ودلالاتها المناسبة لسياق الآية السابقة في سورة التغابن.

وقد يكون إيثار صيغة المضارع -إضافة إلى الدلالة على تجده وتكرّره- استحضار حالته العجيبة حتى لكانّ السامع المشاهد حاضر وسامع لها كما في صيغة الفعل (نخوفهم) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 60]، قال ابن عاشور: "وجيء بصيغة المضارع في (نخوفهم) للإشارة إلى تخويف حاضر، فإن الله خوّفهم بالقحط والجوع حتى رأوا الدخان بين السماء والأرض

⁹ المرجع نفسه، 259/28

¹⁰ المرجع نفسه، 206/28

وسألوا الله كشفه، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان:15]، فذلك وغيره من التخويف الذي سبق فلم يزددهم إلا طغيانا... وقد اختير الفعل المضارع في (نُخَوِّفُهُمْ) و(يُزِيدُهُمْ) لاقتضائه تكرّر التخويف وتجدّده، وأنه كلّما تجددّ التخويف تجددّ طغيانهم وعظم.¹¹

والظاهر في الآية - كما يقدر ابن عاشور - أنها نزلت في مدة حصول بعض المخوّفات؛ فكفار قريش "قد خوّفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر، فما كان ما (أريناك) منه في منامك - يعني النبيّ - بعد الوحي إليك (إلا فتنة) لهم، حيث اتّخذوه سخرى، وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم ثم قال فيهم: (ونُخَوِّفُهُمْ) أي نخوّفهم بمخاوف الدنيا (فما يزيدهم) التخويف (إلا طغيانا كبيرا)"¹²، فالآيات المعجزات متكرّرة ومتجدّدة، تتضمّن التخويف المتكرّر والمتجدّد منها، إما بعذاب الدنيا وإما بعذاب الآخرة، ولذلك ناسب هذا المعنى مجيء الفعل (نُخَوِّفُهُمْ) بصيغة المضارع، ولما كان الله العلم الأول والآخر بقسوة قلوب الكفار وتماديهم في الطغيان ناسب هذا المعنى مجيء الفعل (يُزِيدُهُمْ) مضارعا، وبذلك ناسبت صيغة الفعل السياق والمعاني المراد تقريرها فيه.

ومن الأفعال المضارعة التي تفيد التكرّر والتجدّد فعل الكسب في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14] ف_____ "مجيء (يكسبون) بصيغة المضارع دون الماضي لإفادة تكرّر ذلك الكسب وتعدّده في الماضي".¹³ فلما كانت صيغة الفعل المضارع (يكسبون) مفيدة تجددّ الكسب والاستمرار عليه كانت الأنسب لموضعها والأوفق بموضوعها.

¹¹ المرجع نفسه، 145/15

¹² الزمخشري، الكشاف، 528/3

¹³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 198/30

وقد يكون استعمال المضارع للدلالة على تكرار حصول الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:1]، فـ "مجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرار السؤال، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد." ¹⁴ وهذا يعني أنه لو قيل: (سألوك) لفات ما أفاده الفعل من تجدد السؤال، فالسياق هو الذي يقتضي صيغة دون أخرى، فإذا ورد الفعل مضارعا فليُناسب المعنى المقصود، وهذا هو شأن النظم القرآني في جميع حالاته ومستوياته.

وقد يطلب سياق النظم القرآني استعمال صيغة الماضي إذا أريد الدلالة على تحقق حصول الفعل وحدوثه كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:87].

فصيغة الماضي في قوله (ففزع) مشعرة بتحقيق الفزع، وأنه واقع لا محالة، كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل 1]، فالمضيّ يستلزم التحقق والوقوع، والتعبير بالفعل الماضي عن المستقبل من الأساليب البلاغية الرفيعة، "وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووُجد، وإنما يُفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها" ¹⁵، فدلّ الفعل (فزع) بصيغته الماضية على تحقّقه وحصوله مع أن معناه يفيد المستقبل، وكأنه الماضي الذي حدث وتحقّق معناه فناسب صيغة الماضي المعنى المراد.

¹⁴ المرجع نفسه، 248/9

¹⁵ ابن الأثير، المثل السائر، 153/1

ويعدّ التشويق من الدلالات التي يفيدها الفعل بصيغته الماضية في السياق، ومن أمثلة ذلك إثارة الفعل (ضرب) بصيغة الماضي على المضارع في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29].

قال ابن عاشور: "ومجيء فعل (ضرب الله) بصيغة الماضي مع أن ضرب هذا المثل ما حصل إلا في زمن نزول هذه الآية، لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق إلى علم هذا المثل، فيجعل كإخبار عن أمر حصل، لأن النفوس أرغب في علمه كقول المثوب: قد قامت الصلاة، وفيه التنبيه على أنه أمر محقق الوقوع.¹⁶

فالنفس هنا تتشوّف وتتشوّق لمعرفة المثل والإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه، أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال كما قال ابن عاشور.

وقد تجتمع الدلالة على تحقق الوقوع والحصول بصيغة الماضي ودلالة التجدد والتكرّر بصيغة المضارع كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18، 19] فالآية الأولى جاء فيها فعل الإرادة مضارعاً بينما هو ماضٍ في الآية الأخرى، وعلة ذلك كما ذكر ابن عاشور أن "إرادة الناس العاجلة متكرّرة متجدّدة، وفيه تنبيه على أن أمور العاجلة متقضية زائلة، وجعل فعل إرادة الآخرة ماضياً لدلالة المضي على الرسوخ، تنبيهاً على أن خير الآخرة أولى بالإرادة، ولذلك جرّدت الجملة من (كان) ومن المضارع، وما شرط في ذلك إلا أن يسعى للآخرة سعيها وأن يكون مؤمناً.¹⁷ فاختيار الصيغة الزمنية للفعل إنما هو لمراعاة المعنى المقصود من السياق الذي يتضمّنهما، وهو من وجوه التناسب في النظم القرآني.

¹⁶ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 399/23

¹⁷ المرجع نفسه، 58/15

2- الصيغة الفعلية والصيغة الاسمية

من نماذج دقة النظم القرآني في استعمال الألفاظ ليناسب كل لفظ المعنى الذي سيق له، إيثار صيغة المضارع على الوصف (اسم المفعول) كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 51]، قال ابن عاشور: "واختير المضارع دون الوصف بأن يقال: متلوًا عليهم، لما يؤذن به المضارع من الاستمرار، فحصل من مادة (يتلى) ومن صيغة المضارع دلالة على عموم الأمكنة والأزمنة.¹⁸

فمجيء الفعل مضارعاً وافق الدلالة على استمرار هذه التلاوة وتجددها في كل مكان وكل زمان.

ومن ذلك أيضاً إيثار صيغة المضارع على اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15]، وقد جاءت هذه الصيغة في سياق الرد على ما وصف به المنافقون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14].

قال ابن عاشور: "وجيء في حكاية كلامهم بالمسند الاسمي في قولهم: (إنما نحن مستهزون) لإفادة كلامهم معنى دوام صدور الاستهزاء منهم وثباته بحيث لا يحولون عنه، وجيء في قوله: (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) لإفادة التجدد من الفعل المضارع، أي تجدد إملاء الله لهم زماناً إلى أن يأخذهم العذاب، ليعلم المسلمون أن ما عليه أهل النفاق من النعمة إنما هو إملاء وإن طال، كما قال تعالى (لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ) [آل عمران: 196].¹⁹

¹⁸ المرجع نفسه، 14/21

¹⁹ المرجع نفسه، 293/1

فنكايات الله في المنافقين، وبلاياه النازلة بهم حادثة ومتجددة (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) [التوبة: 64]، وما كان هؤلاء يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار، ونزول في شأنهم، واستشعار حذر ما يتزل فيهم، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64].²⁰

ومن هذا القبيل التعبير بصيغة المضارع في الفعل (يُسَبِّحْنَ) دون الوصف (مُسَبَّحَات) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18]، لأن في الفعل دلالة على تجدد تسبيح الجبال مع داود -عليه السلام- كلما حضر فيها، وفيه أيضا استحضر تلك الحالة الخارقة للعادة.²¹

ويعضد ما ذكره ابن عاشور "أن التسبيح إنما يكون غالبا بتكرار جملة أو أكثر يراد بها تزيه الله تعالى وتمجيده، ومعنى ذلك أن تلك الجملة ينتهي ترتيلها ثم يتجدد، وهذا هو الواقع من داود -عليه السلام- فناسب ذلك أن يكون تسبيح الجبال والطيور بصيغة تدل على التجدد كذلك".²²

ومن هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ﴾ [ص: 18، 19]، فلما كان حشر الطير أمرا دائما ناسبه الاسم الدال على الثبات والدوام، وهو اسم المفعول (محشورة).

ومن الأحوال التي يقصد استحضرها بصيغة المضارع دون اسم الفاعل ما جاء من وصف لهيئة الطيور وهي تطير في الجو، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: 19]، فدلالة التجدد في

²⁰ ينظر: الزمخشري، الكشاف 1/185

²¹ ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 23/226

²² عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصرفي، ص 119

الفعل (يقبضن) معناها "يجددن قبض أجنحتهنّ في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران"²³ فكأن صورتهما هذه حاضرة وماثلة لدى الناظر في الحال.

وقد بين ابن عاشور وجه التناسب بين صيغة المضارع في الفعل (يقبضن) والمعنى الذي سيق له، وعلة استعمال صيغة الاسم (صافات) دون صيغة الفعل (يصفن) فقال: "وجيء في وصف الطير بـ (صافات) بصيغة الاسم لأنّ الصفّ هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدالّ على الثبات."²⁴

فالأصل في الطيران هو صفّ الأجنحة، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأمّا القبض فطارئ للاستعانة به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنّهم صافات ويكون منهم القبض تارة كما يكون من السابح.²⁵

فلما دل الفعل المضارع على تجدد حالته وعلى حدوثها المستمرّ، دل الاسم على الثبات والدوام على حالة واحدة، فكأن صورتهما هذه حاضرة وماثلة لدى الناظر في الحال. وهكذا فإن إثار التعبير بصيغة الفعل المضارع على صيغة اسم الفاعل في القرآن الكريم يأتي للدلالة على تجدده، وهذا يعني أنّه لا يمكن بحال أن يحلّ الاسم محلّ الفعل في الدلالة على ذلك، وهذا من بديع التناسب بين الصيغة الصرفية وسياقها.

وقد يكون الاسم الذي تؤثر عليه صيغة الفعل المضارع هو المصدر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41]، قال ابن عاشور: "وإنما عدل عن الإتيان بالعمل مصدرا كما أتى به في قوله: (لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ) إلى الإتيان به فعلا صلة لـ (ما) الموصولة للدلالة

²³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 37/29

²⁴ المرجع نفسه، 37/29

²⁵ ينظر: الزمخشري، الكشاف، 175/6

على البراءة من كل عمل يحدث في الحال والاستقبال... ولو عبّر بالعمل لرّبما توهم أن المراد عمل خاصّ، لأنّ المصدر المضاف لا يعمّ، ولتجنّب إعادة اللفظ بعينه في الكلام الواحد، لأنّ جملة البيان من تمام الميّن، ولأنّ هذا اللفظ أنسب بسلاسة النظم، لأنّ في (ما) في قوله (مما أعمل) من المدّ ما يجعله أسعد بمدّ النفس في آخر الآية والتهيئة للوقف على قوله (مما تعملون)، ولما في (تعملون) من المدّ أيضا.²⁶

فقد أوثرت صيغة المضارع في الفعلين (أعمل) و(تعملون) لتناسب المعنى الذي سيق له الفعلان، وهو حصول الفعل في الحال، وهذا المعنى لا يتناسب وصيغة المصدر، فكان المضارع هو الأنسب لهذا الموضع.

وهكذا فإن الصيغ الاسمية أو الفعلية تختار في النظم القرآني بحسب ما يتطلبه السياق الذي تستعمل فيه، وقد أكد ابن عاشور هذا المبدأ من خلال الأمثلة والنماذج الكثيرة التي عالجها في تفسيره.

ثانيا: التعريف والتنكير

لكل من التعريف والتنكير سياقه الخاص، وهذه الظاهرة من الألوان البلاغية اللافتة في النظم القرآني، والتنويع في استخدام اللفظ تعريفا وتنكيرا في النظم القرآني مرتبط أشدّ الارتباط بالسياق، وهو الركيزة التي اعتمد عليها ابن عاشور في تحليله لنماذج تلك الظاهرة في القرآن الكريم.

فمن مواضع التعريف اللافتة قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:33]، قال ابن عاشور مبينا علة التعريف: "وجيء بالسلام هنا معرّفا باللام الدالة على الجنس مبالغة في تعلق السلام به حتى

²⁶ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 175/11

كأن جنس السلام بأجمعه عليه، وهذا مؤذن بتفضيله على يحيى؛ إذ قيل في شأنه (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ) [مريم: 15]، وذلك هو الفرق بين المعرّف بلام الجنس وبين النكرة.²⁷

وذكر الزمخشري أن هذا التعريف كان "تعريضا باللعنة على متهمي مريم عليها السلام، وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس، فإذا قال: وجنس السلام علي خاصة فقد عرّض بأنّ ضده عليكم، ونظيره في قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: 47]، يعني أن العذاب على من كذب وتولّى".²⁸ فالتعريف هنا ذو قيمة فنية وبلاغية حيث ناسب مجيء اللفظ معرّفا للمعنى المسوق له، ولو جاء اللفظ منكرا لفات القصد المراد إثباته في هذا السياق.

ومن المواضع التي أوثّر فيها استعمال اللفظ المعرّف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: 43]. حيث جاء لفظ (الأبصار) معرّفا "لأن المقصود أن البرق مقارب أن يزيل طائفة من جنس الأبصار، إذ اللام هنا لام الحقيقة كما في قوله: (أن يأكله الذئب) وقولهم: ادخل السوق، لأن الحكم على حالة البرق الشديد من حيث هي، بخلاف آية البقرة فإنها في مقام التوبيخ لهم، بأن ما شأنه أن ينتفع الناس به قد أشرف على الضرر بهم، فلذلك ذكر لفظ أبصار مضافا إلى ضميرهم، مع ما في هذا التخالف من تفنين الكلام الواحد على أفانين مختلفة حتى لا يكون الكلام معادا، وإن كان المعنى متّحدا، ولا تجد حقّ الإيجاز فائتا؛ فإن هذين الكلامين في حدّ التساوي في الحروف والنطق، وهكذا نرى بلاغة القرآن وإعجاز وحلاوة نظمه".²⁹

²⁷ المرجع نفسه، 98/16

²⁸ الزمخشري، الكشاف، 19/4

²⁹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 260/18

وآية البقرة المقصودة هي قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20]، فالتنويح الأسلوبي بتعريف لفظ (الأبصار) — (الـ) وذكره مضافا إلى الضمير في سياق مشابه تحكمه خصائص كل معنى، وخصوصية كل سياق.

وما يلاحظ في تفسير التحرير والتنوير أن اهتمام ابن عاشور بالتنكير كان أكثر من اهتمامه بالتعريف، فقد توقف كثيرا عند الألفاظ النكرة محاولا تحليلها وبيان سر ذلك اعتمادا على السياق، ولعل مرد ذلك إلى اعتباره التعريف هو الأصل، وأن التنكير هو البنية المعدول بها عن هذا الأصل.

ومن مواضع التنكير التي استوقفت ابن عاشور قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] حيث قال: "رُجَّحَ التنكير تمهيدا لوصفه بأنه من عند ربهم، فهو مغاير للهدى السابق في قوله: (هدى للمتقين) مغايرة بالاعتبار، إذ القصد التنويه هنا بشأن الهدى وتوسلا إلى إفادة تعظيم الهدى بقرينة مقام المدح، وبذكر ما يدل على التمكن، فتعين قصد التعظيم، فقوله: (من ربهم) تنويه بهذا الهدى يقتضي تعظيمه، وكل ذلك يرجع إلى تعظيم المتصفين بالتمكن منه."³⁰

فتنكير الهدى يفيد ضربا مبهما لا يُبلغ كنهه، ولا يقدر قدره، ولأنه من عند الله فإن شأنه عظيم لا يمكن الإحاطة به.³¹

فإثارة التنكير في لفظ (هدى) له دلالة الخاصة ضمن هذا السياق، حيث جاء متفردا بمكانه من حيث ملائحته للسياق والمعنى الذي سيق له.

³⁰ المرجع نفسه، 241/1

³¹ ينظر: الزمخشري، الكشاف، 159/1

ومن نماذج الألفاظ النكرة التي يدلّ تنكيرها على الإبهام وعدم المعرفة لفظ (حين) في قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 54] فـ "الكلام ظاهره المتاركة، والمقصود منه الإملاء وإنذارهم بما يستقبلهم من سوء العاقبة في وقت ما، ولذلك نكر لفظ (حين) المجعول غاية لاستدراجهم، أي زمن مبهم، كقوله: ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾ [الأعراف: 187].³² فقد أفاد التنكير أن لفظ (حين) يتضمّن الإخبار عن وقت غير معلوم إلاّ الله تعالى، فهو عند الله قريب، ويتوهمه الكافرون بعيدا لغفلتهم، وفي هذا إيذان بأنه استدراج من الله لهم لا يتفطنون إليه، فناسب هذا المعنى مجيء اللفظ نكرة.

وقريب من هذا، تنكير لفظ (عذاب) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: 88]، قال ابن عاشور: "والتعريف في قوله تعالى: ﴿فوق العذاب﴾ تعريف الجنس المعهود؛ حيث تقدّم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ [النحل: 85]، لأنّ عذاب كفرهم لمّا كان معلوما بكثرة الحديث عنه صار كالمعهود، وأما عذاب صدّهم الناس فلا يخطر بالبال، فكان مجهولا فناسبه التنكير.³³ وزاد في الجهل به وفي إبهامه اقترانه بالظرف (فوق) ليدلّ على أنّه أشدّ من الأول، ولا يعلم شدّته وفضاعته إلاّ الله تعالى.

ومن نماذج الألفاظ التي وردت نكرة في السياق القرآني وكان لتنكيرها دلالة وغرض يتصل بمناسبة السياق لفظ (نصيب) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: 201، 202]. قال ابن عاشور: "وهذا وعد من الله تعالى بإجابة دعاء المسلمين الدّاعين في تلك المواقف المباركة، إلاّ أنّه وعد بإجابة شيء ممّا دعوا به بحسب ما تقتضيه أحوالهم، وحكمة الله تعالى، وبألاّ يجرّ إلى فساد عام لا يرضاه الله تعالى، فلذلك

³² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 74/18

³³ المرجع نفسه، 249/14

نكر (نصيب)، ليصدق بالقليل والكثير، وأمّا إجابة الجميع إذا حصلت فهي أقوى وأحسن.³⁴

ومعنى القلة والكثرة لا يستشفّ من اللفظ لو جاء معرّفاً؛ ذلك أن دلالة اللفظ إذ ذاك قد حدّدت بالتعريف، فالمراد من تنكير اللفظ في السياق أن للفريق المؤمن مقداراً من الخير يكافئ مقدار عملهم، إن قليلاً قليلاً وإن كثيراً فكثيراً، فأفاد التنكير بذلك القلة والكثرة معاً.

وقد يفيد التنكير الكثرة وحدها كما استشفّ ذلك ابن عاشور من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 130]، فـ "نقص الثمرات قلة إنتاجها قلة غير معتادة لهم، فتتوّن (نقص) للتكثير، ولذلك نكر (نقص) ولم يضيف إلى (الثمرات) لئلا تفوت الدلالة على الكثرة،"³⁵ وهذا من لطائف الاستعمال البلاغي في القرآن الذي يجعل اللفظ بصيغته في الموضع الأنسب ضمن السياق.

وقد يدل تنكير اللفظ على التقليل كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 263]، فـ "تنكير (قول معروف) للتقليل، أي أقل قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى، والمعروف هو الذي يعرفه الناس، أي لا ينكرونه، فالمراد به القول الحسن، وهو ضد الأذى."³⁶

فمعنى التقليل في تنكير لفظ (قول) هو (بشيء قليل من القول الطيب الحسن ينتفع السائل المحتاج)، فاختصرت هذه الصيغة ألفاظاً كثيرة، وانطوت على خصوصية في التعبير ناسباً بها السياق.

³⁴ المرجع نفسه، 244/2

³⁵ المرجع نفسه، 63/9

³⁶ المرجع نفسه، 43/3

ومن دلالات التنكير في اللفظ أن يراد به التحقير، كما يستشف من لفظ (أصنام) في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]، فقد "اختير طريق التنكير في (أصنام) ووصفه بأنها (لهم) أي القوم، دون طريق الإضافة ليتوسل بالتنكير إلى إرادة تحقير الأصنام، وأنها مجهولة، لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة".³⁷ فدلالة التحقير في تنكير لفظ (أصنام) تتضمن تحقيرها وتحقير عابديها وجهلهم وغبائهم، وكل ما من شأنه أن يدل على هذا المعنى، ولو قيل (يعكفون على الأصنام) لكان في ذلك إعلاء من شأنها، ولما تحققت دلالة الازدراء التي أفادها التنكير.

ولكن التنكير قد يكون في بعض السياقات موحيا بنوع من التعظيم كما هو الشأن في لفظ (حياة) في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179]، فالتنكير هنا هو "للتعظيم بدلالة المقام، أي في القصاص حياة لكم أي لنفوسكم، فإن فيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل القصاص لما ارتدع الناس، لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفاً بالعقوبات... ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر كما كان عليه في الجاهلية، لأفرطوا في القتل... فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين".³⁸

وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري حين ذكر أن تنكير لفظ (حياة) بعد لفظ القصاص (المعرف) يدل على أن للبشر في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، "وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة... فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم

³⁷ المرجع نفسه، 79/9

³⁸ المرجع نفسه، 144/2

بالاقتصاص من القاتل... فكان القصاص سبب حياة نفسين.¹ فلأجل هذا كان تنكير لفظ (حياة) دالاً على التعظيم.

ومن لطائف التعبير القرآني أن وظّف هذا اللفظ بصيغته السابقة في سياق آخر ليشير به إلى دلالة مغايرة تكاد تكون مضادة للمعنى الأول، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96]، فالتنكير هنا كما يذكر ابن عاشور فيه دلالة "التنوع، أي كيفما كانت تلك الحياة".² وفي معنى التنوع طرف من التحقير؛ فـ "لا يهمهم أن تكون حياة كريمة، ولا مميّزة على الإطلاق، حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام!... ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسّون أن لهم حياة غير هذه الحياة، وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيّقها حين تحسّ النفس الإنسانية أنّها لا تتّصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة".³

وبهذا يتّضح أن التنوع الذي ذكره ابن عاشور قصد به طلبهم لأي حياة وحرصهم على الاستزادة منها، ولو لم تكن لهم فيها كرامة، ومهما تكن حقارها فهي بالنسبة إليهم خير من العدم أو العذاب بعد الممات.

ونخلص مما سبق إلى أن التعريف والتنكير يأتيان في النظم القرآني موافقين لخصوصيات السياق، وأن ثمة انسجاماً تاماً وتناسباً دقيقاً بين الألفاظ وبين سياقاتها.

ثالثاً: العدد

من مظاهر التناسب الصرفي في النظم القرآني، استخدام الصيغة العددية للفظ بما يوافق السياق ودقائق المعنى المنبثق عنه.

¹ الزمخشري، الكشاف، 373/1

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 617/1

³ سيد قطب، في ظلال القرآن، 64/1

والنماذج التي تجسّدت فيها هذه الظاهرة في القرآن الكريم كثيرة ومختلفة، استوقف بعضٌ منها ابن عاشور الذي حاول استجلاء أسرار البيان القرآني من خلالها، مستعينا في ذلك بما تملّيه القرائن السياقية من جهة، وباجتهاداته واجتهادات بعض المفسّرين من جهة ثانية.

ومن النماذج التي ذكرها ابن عاشور، استخدام القرآن للفظ (الماء) بصيغة الإفراد في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:44]، فقد "قيل (ماءك) بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأني عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت".¹

فعلى الرغم مما يبدو للناظر من كثرة هذه المياه على سطح الأرض ووفرتها، فإن ذلك لا يساوي شيئا أمام عظمة الخالق وكبريائه، وهذا هو الوجه أيضا في إفراد الأرض والسماء،² فكلّ شيء هو دون مقام الجلال والكبرياء، وهو ما يناسب لفظ (الماء) بالإفراد تمويها لشأنه.

ومن أمثلة استخدام اللفظ المفرد دون غيره ما جاء في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:7].

فظاهر السياق يقتضي مجيء لفظ (السمع) جمعا جريا على لفظ (قلوبهم) ولفظ (أبصارهم)، غير أن في إفراده "الطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن، هي أن القلوب كانت متفاوتة، واشتغالها بالتفكير في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة، وبالكثرة والقلّة، وتلقّى أنواعا كثيرة من الآيات فلكلّ عقل حظّه من الإدراك، وكانت

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 78/12

² الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث، بيروت، (دت)، 65/12

الأبصار أيضا متفاوتة التعلّق بالمرئيات التي فيها دلائل الوجدانية في الآفاق، وفي الأنفس التي فيها دلالة، فلكلّ بصر حظّه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ، فلمّا اختلفت أنواع ما تتعلّقان به جمعت، وأما الأسماع فإنّما كانت تتعلّق بسماع ما يلقي إليها من القرآن، فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعا متساويا، وإنّما يتفاوتون في تدبّره، والتدبّر من عمل العقول، فلمّا اتّحد تعلّقها بالمسموعات جعلت سمعاً واحدا.¹

ومعنى هذا أن التفاوت بين الناس في السمع نادر أو منعدم، فناسب ذلك أن يفرد في سياق الآية، وأما القلوب والأبصار فإنّ التفاوت فيها واضح بيّن، فناسب في لفظها الجمع، ففي إثارة كل صيغة منهما سبب يتّصل بالمعنى في السياق.

ومن الأمثلة كذلك لفظ (آية) الذي استعمل في ثلاث آيات متتاليات من سورة النحل بصورتين مختلفتين مفردا وجمعا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ [النحل: 10، 11، 12]، حيث ذكر ابن عاشور أن الفخر الرازي قد أبدى في كتاب (درّة التّزليل) وجهها للفرق بين أفراد اللفظ في الآية الأولى والثالثة، وبين جمعه في الآية الثانية، وهو "أنّ ما ذكر أول وثالثا يرجع إلى ما نجم من الأرض، فجميعه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحويه، أي: (وهو كلّ ذو حالة واحدة، وهي حالة النبات في الأرض في الأول، وحالة الذرء في التناسل في الحيوان في الآية الثالثة)، وأما ما ذكر في المرّة الثانية فإنه راجع إلى اختلاف أحوال الشمس والقمر والكواكب، وفي كل واحد منها نظام يخصّه ودلائل تخالف دلائل

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 254/1

غيره، فكان ما ذكر في ذلك مجموع آيات، لأن بعضها أعراض كالليل والنهار، وبعضها أجرام لها أنظمة مختلفة ودلالات متعدّدة.¹

فعلى أساس هذا الفارق بين قرائن السياق المقالية، جيء في كلّ آية بما يناسب من صيغة اللفظ إفراداً وجمعاً.

ومن الألفاظ التي اجتهد ابن عاشور في بيان وجه مجيء صيغتها بالجمع ومناسبتها للمعنى الدالة عليه لفظ (ظلمات)، فإن هذا اللفظ لم يرد في القرآن إلا بصيغة الجمع، وقد وقف ابن عاشور عند كثير من المواضع التي ورد فيها اللفظ محاولاً استجلاء أسرار التناسب الحاصل بين صيغة الجمع للفظ وبين دلالاته.

ومن أمثلة هذه المواضع قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]، فبعد أن أكد أن بلاغة القرآن لا تسمح باستعمال جمع غير مراد به فائدة زائدة على لفظه المفرد قال: "ويتعيّن في هذه الآية أن جمع (ظلمات) أشير به إلى أحوال من أحوال المنافقين، كل حالة منها تصلح لأن تشبّه بالظلمة، وتلك هي حالة الكفر، وحالة الكذب، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق."²

ويستطرد ابن عاشور شارحاً وجه الشبه الحاصل بين حال المستوقد وحال المنافقين في تردّدهم بين مظاهر الإيمان وبواطن الكفر، فيقول عن وجه الشبه بين الحالين: "هو ظهور أمر نافع ثم انعدامه قبل الانتفاع به، فإنّ في إظهارهم الإسلام مع المؤمنين صورة من حسن الإيمان وبشاشته، لأن للإسلام نورا وبركة، ثم لا يلبثون أن يرجعوا عند خلوّهم بشياطينهم فيزول عنهم ذلك، ويرجعوا في ظلمة الكفر أشدّ ممّا كانوا عليه، لأنهم كانوا في كفر فصاروا في كفر وكذب، وما يتفرّع عن النفاق من المذام، فإن الذي يستوقد النار في

¹ المرجع نفسه، 116/14

² المرجع نفسه، 302/1

الظلام يتطلّب رؤية الأشياء، فإذا انطفأت النار صار أشدّ حيرة منه في أوّل الأمر؛ لأن ضوء النار قد عوّد بصره، فيظهر أثر الظلمة في المرّة الثانية أقوى، ويرسخ الكفر فيهم.¹ ولا شكّ أن هذا التحليل الذي قدّمه ابن عاشور يدخل ضمن ما تفيد به بعض الصور من الدلالات الإيحائية، ولئن كان ابن عاشور قد تفنّن في عرض وجه الشبه بين الحالين السابقين، فإنه من جهة أخرى قد بيّن سرا من أسرار التناسب الصرفي في النظم القرآني، بين الصيغة اللفظية وسياقها.

ويمكن القول إن استعمال اللفظ مفردا أو جمعا في السياق القرآني لا يأتي عَرَضاً، بل الأمر كله قائم على أساس من التناسب والتلاؤم بين صيغة اللفظ وسياق التركيب الوارد فيه.

¹ المرجع نفسه، 302/1

رابعاً: الضمائر

استعمال الضمائر والخروج بها من صنف إلى صنف في النظم القرآني من الظواهر البلاغية التي لفتت انتباه ابن عاشور، حيث اهتم بها وأشار إلى أسرار هذا التحول الذي يكسب الأسلوب القرآني خصوصية تعزز تماسك نسيجه وانسجام نظمته وتناسب عناصره.

ومن نماذج التحول في استعمال الضمائر، انتقال التعبير من ضمير الخطاب إلى الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: 71]، ففيه انتقال من الخطاب في قوله: (فَضَّلَ بَعْضَكُمْ) إلى ضمير الغائب في قوله: (يَجْحَدُونَ)، قال الرازي: "ظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين، والمسلمون لا يخاطبون بجحد نعمة الله تعالى".¹ فالمقصود من الاستدلال في الآية الكريمة هم المشركون، ولما "كانوا موضع التوبيخ ناسب أن يعرض عن خطابهم وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض".² فغرض هذا الانتقال ووجه مناسبته إرادة المبالغة في التوبيخ.

وقريب من هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 80-83]، فإن "الكلام انتقل من التقرير والتهديد إلى حكاية ضلالهم، فناسب هذا الانتقال مقام الغيبة، لما في الغيبة من الإبعاد، فالضمير عائد إلى المخاطبين".³

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 81/20

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 213/14

³ المرجع نفسه، 106/18

فالتناسب بين الغيبة والبعد عن الهداية أو الضلال حاصل، والغاية منه حكاية سوء حال هؤلاء المخاطبين والمبالغة في توبيخهم.

وهذا المعنى يستشف أيضا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 11-13]، قال ابن عاشور: "وضمير (قال) عائد إلى معلوم من المقام، أي (قال الله تعالى) بقرينة قوله: (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا)، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (قلنا)، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتا نكتته تحويل مقام الكلام، إذ كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمركم، فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة.¹

فهناك انتقال بالخطاب من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة، والداعي إلى ذلك هو اختلاف مقام الكلام، فلما كان الانتقال بالكلام إلى الغيبة ناسب أن يتضمن ذلك توبيخا لإبليس وإظهارا لكفره وعناده وكبره، وبين التعبير بضمير الغيبة وبين هذا الضلال تناسب، أكدده سياق التوبيخ والتفريع.

وقد يكون التحوّل في استعمال الضمائر انتقالا بالتعبير من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 48، 49].

¹ المرجع نفسه، 35/8

ف_____ "جملة (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) عطف على جملة (أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ)، فهي داخلة في حيزِ القصر، أي وهو الذي أنزل من السماء ماء طهورا، وضمير (أنزلنا) التفات من الغيبة إلى التكلم، لأن التكلم أليق بمقام الامتنان.¹

فهذا الانتقال كما نرى ينطوي تحته سرٌّ من أسرار البلاغة تتطلّع إليه النفوس وتستخبر كنهه، فيجتمع عند ذلك التناسب البديع والتناسق العجيب بين فعل الإنزال المنسوب إلى الله تعالى وبين عظيم قدرته وجزيل نعمه وعطاءاته التي امتنّ بها على عباده.

ومن غايات الانتقال بالخطاب من الغيبة إلى التكلم أن تكون الغاية هي التحذير والترهيب كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: 51]، فقد "وقع في ضمير (فَإِيَّايَ) التفات من الغيبة إلى التكلم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كليّ إلى تعيين هذا الواحد أنه الله منزّل القرآن، تحقيقا لتقرير العقيدة الأصلية، وفي هذا الالتفات اهتمام بالرهبة لما في الالتفات من هزّ فهم المخاطبين.²"، فناسب التكلم السياق الذي وضع فيه.

ولا يقتصر عدول الضمائر في القرآن الكريم على انتقال الخطاب بين الضمائر وحسب، بل قد يكون الانتقال من الضمير إلى الاسم الظاهر مراعاة للسياق كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 1، 2]، فقد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر فقليل: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) دون (فصلّ لنا)، وذلك "لما في لفظ (الرب) من الإيمان إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه.³ وهذا يوجب نوعا من العظمة والمهابة، وتصريحا بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى.⁴

¹ المرجع نفسه، 46/19

² المرجع نفسه، 171/14

³ المرجع نفسه، 572/30

⁴ الرزاي، مفاتيح الغيب، 128/32

فإظهار الاسم في قوله (لِرَبِّكَ) أكسب الخطاب قوّة وإيجاء بالعظمة واستحقاق الربوبية المشعرة بالإنعام، فكان هذا من مظاهر التناسب والانسجام في النظم. ومن هذا النوع في الانتقال من الإضمار إلى الإظهار ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 1، 3].

فظاهر الكلام يقتضي أن يقول: (فسبّح بحمده)، لأن لفظ الجلالة قد تقدّم في قوله: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ)، غير أن الخطاب انتقل من الإضمار إلى الاسم الظاهر، وهو (رَبِّكَ)، وذلك لما بين هذا اللفظ ومعناه من تناسب بديع، فإنّ "في صفة (ربّ) وإضافتها إلى ضمير المخاطب من الإيماء إلى أن من حكمة ذلك التّصر والفتح ودخول الناس في الإسلام نعمة أنعم الله بها عليه، إذ حصل هذا الخير الجليل بواسطته، فذلك تكريم له وعناية به، وهو شأن تلطّف الرّب بالمربوب، لأنّ معناه السيادة المرفوقة بالرفق والإبلاغ إلى الكمال.¹

إن هذا التنويع الأسلوبي والتحوّل في استعمال الضمير واستعمال الاسم الظاهر في السياق القرآني في التعبير عن المعنى بأنسب ما يؤدّيه ويلائمه هو ما يجلي لنا بعضا من ظواهر التناسب السياقي وأسراره في النظم القرآني.

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 590/30

الفصل الثالث

التناسب المعجمي

يشكل التناسب المعجمي جانباً آخر من جوانب التناسب السياقي في القرآن الكريم، ويطالعنا ابن عاشور في تفسيره بملاحظات دقيقة وعميقة تتعلق بالفروق الدلالية بين الحروف أو بين الألفاظ من خلال النماذج التي أوردها عند تحليله لبعض الآيات القرآنية، حيث يستخلص منها استحالة استخدام أحد اللفظين مكان الآخر، وذلك بالنظر إلى أن سياق كل لفظ يختلف عن الآخر، وكل لفظ مستقل بمعناه، وأن المعنى المقرر ضمن السياق لا يتحقق بلفظ آخر ولو بدا مرادفاً له.

ويمكن تصنيف النماذج التي أوردها ابن عاشور ضمن التناسب المعجمي وفق الأنواع الآتية:

- اختيار حرف بدل حرف

- اختيار فعل بدل فعل

- اختيار اسم بدل اسم

- اختيار الفاصلة.

وستتناولها تباعاً

أولاً: التناسب في الحروف

من ذلك إثارة الاستفهام بـ (هل) على الهمزة كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: 10، 9]، قال ابن عاشور: "وأوثر حرف (هل) في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق، لأن (هل) في الاستفهام مثل (قد) في الإخبار"¹، فهذا الاستفهام هو بمعنى التقرير، أي: قد أتاك حديث موسى، ولا يتحقق هذا المعنى في الاستفهام بالهمزة، فالمقصود من قوله تعالى: (وهل أتاك) هو "تقرير الجواب في قلبه، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك، كما يقول المرء لصاحبه: هل بلغك خبر كذا؟ فيتطالع السامع إلى

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 193/16

معرفة ما يرمي إليه، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبي - عليه السلام- لا من قبل الله تعالى.² فلما كان الاستفهام مستعملا في التشويق إلى الخبر وليس مستعملا في حقيقته ناسب ذلك مجيئه بالحرف (هل) دون الهمزة.

ومن نماذج استعمال حرف دون حرف، إثارة أحد حروف العطف دون غيره، كالعطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:25]، فالفاء تؤذن بأن الله تعالى استجاب لموسى عليه السلام، فقيض شعبا أن يرسل وراءه ليضيفه ويزوجه ابنته، وتؤذن الفاء أيضا بأن شعبا لم يترث في الإرسال وراء موسى، فأرسل إحدى البنتين اللتين سقى لهما، فجاءته وهو لم يزل عن مكانه في الظل.³

قال ابن كثير: "لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا فسألها عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها."⁴ فمجيء بنت شعيب كان من دون إبطاء أو تراخ، ولذلك ناسب السياق مجيء العطف بالفاء التي تفيد التعقيب وانقضاء الفعل مباشرة دونما إبطاء.

وقد يكون الأنسب للسياق أن يجيء العطف بـ (ثم) دون (الفاء)، لأن قرائنه تدل على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال ابن عاشور: "واختير عطف جملة (لا يجاورونك) بـ (ثم) دون الفاء للدلالة على تراخي انتفاء المجاورة عن الإغراء بهم تراخي رتبة، لأن الخروج من الأوطان أشد على النفوس مما يلحقها من ضرر في

² الرازي، مفاتيح الغيب، 14/22

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 103/20

⁴ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420هـ - 1999 م، 227/6، 228

الأبدان، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 191]، أي وفتنة الإخراج من بلدهم أشد عليهم من القتل.⁵

فالمعنى أن هؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض والذين يشيعون الأخبار المخيفة لأهل الإسلام التي تضطرب لها القلوب، سيسلّط الله تعالى نبيه الكريم عليهم، فلا يقدرّون على شيء مما يفعله بهم إلا بالبعد من المدينة بالموت أو الرحيل إلى غيرها، ولما كان نزوحهم عن المدينة مستبعدا عنهم جدا، وكان أعظم رتبة في أذاهم من غيره، ناسب ذلك أن يشار إليه بأداة التراخي (ثم).⁶

ومن نماذج الاختيار في الحروف والأدوات، إثارة حرف جر في موضع وغيره في موضع آخر، فتكون خصوصية المعنى الوظيفي المائل في السياق هو الذي يبرز الفرق ويعلل سبب استعمال كل حرف في موضعه، كما في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: 41].

فقد اختير في هذه الآية حرف الجر (من) بخلاف ما في آية النساء التي وردت بحرف الجر (عن) في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46].

ووجه التناسب بين الحرف وسياقه في كل آية أن ما في سورة النساء وصف لليهود كلهم، وتحريفهم في التوراة بأن غيروا كلاما بكلام آخر عن جهل أو قصد أو خطأ في تأويل معانيها أو في ألفاظها، فكان هذا إبعادا للكلام عن مواضعه، أي إبعادا للكلام

⁵ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 107/22

⁶ ينظر: البقاعي، نظم الدرر، 456/6

الأصلي وإزالته، سواء أَعُوّضَ بغيره أم لم يَعُوّضَ⁷، وإلى هذا المعنى أشار الرازي حيث ذكر "أنهم -أي اليهود- يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص، وليس فيه بيان أنهم يخرجون تلك اللفظة من الكتاب."⁸

أما آية المائدة، ففيها ذكر لطائفة من اليهود "أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة، إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام، فهذا أشد جرأة من التحريف الآخر، فكان قوله (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) أبلغ في تحريف الكلام، لأن لفظ (بعد) يقتضي أن مواضع الكلم مستقرّة، وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة."⁹

وبذلك ناسب كل حرف سياقه الذي وقع فيه، والمعنى الذي قصد التعبير عنه، وظهرت مباينة كل حرف لنظيره في الدلالة.

ثانياً: التناسب في الأفعال

يأخذ استعمال الأفعال في النماذج القرآنية أشكالاً مختلفة، وقد عني ابن عاشور بتوجيه اختيار الأفعال بالمقارنة بين الفعل وبين مرادفه من حيث تضمّن أحدهما معنى الآخر، أو من حيث تضمّن صفة مبالغاً فيها، والإشارة إلى اختصاص كل فعل بالمعنى الذي سيق له، أو بيان كون علة اختيار الفعل طلب المشاكلة بينه وبين فعل آخر في السياق نفسه.

ومن النماذج التي ساقها ابن عاشور مما يتعلق باختيار فعل دون غيره قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزحرف: 16-17]، قال: "وأوثر فعل (اتخذ) هنا ليشمل الاتخاذ بالولادة، أي بتكوين الانفصال عن ذات الله تعالى بالمزاوجة مع سرورات الجن،

⁷ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 194/6

⁸ الرازي، مفاتيح الغيب، 237/11

⁹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 194/6

ويشمل ما هو دون ذلك وهو التَّبَيُّ، فعلى كلا الفرضين يتوجّه إنكار أن يكون ما هو لله أدون مما هو لهم كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: 62]، وقد أشار إلى هذا قوله: (وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَيْنِ)، فهذا ارتقاء في إبطال معتقدهم بإبطال فرض أن يكون الله تَبَيُّ الملائكة، سدّا على المشركين باب التأوّل والتنصّل من فساد نسبتهم البنات إلى الله، فلعلّهم يقولون: ما أردنا إلا التَّبَيُّ، كما تنصّلوا حين دمغتهم براهين بطلان إلهية الأصنام، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18]¹⁰

فهذه الشمولية في الفعل (اتخذ)، وهذا الاستعمال الدقيق له في سياق الآية هما أحد أوجه التناسب بين الفعل والمعنى الذي سيق له في الآية.

ومن هذا القبيل اختيار الفعل (أمرتني) في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117]، قال الرازي: "المعنى: ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به، وذلك أن أقول لهم: اعبدوا ربي وربكم... والأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، إلا أنه وضع القول موضع الأمر، نزولاً على موجب الأدب الحسن، لئلا يجعل نفسه وربه أمرين معاً، ودلّ على الأصل بذكر (أن) المفسرة.¹¹ ويمثل هذا المعنى -أي المبالغة في الأدب- علّ ابن عاشور اختيار الفعل (أمرتني) على (قلت لي)، إذ "لما كان (أمرتني) متضمناً معنى القول، كانت جملة (اعبدوا الله ربّي وربكم) في المأمور بأن يبلغه لهم، فالله قال له: قل لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، فعلى هذا يكون (ربّي وربكم) من مقول الله تعالى لأنه أمره بأن يقول هذه العبارة، ولكن لما عبر

¹⁰ المرجع نفسه، 177/25

¹¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 142/12

عن ذلك بفعل (أَمَرْتَنِي بِهِ) صحّ تفسيره بحرف (أَنْ) التفسيرية، فالذي قاله عيسى هو عين اللفظ الذي أمره الله بأن يقوله.¹

فالفعل (أمرتني) تفرّد بخصوصية في الآية، لاءمت السياق أشد ملائمة بالنظر إلى أنه (أي الفعل) يتجاوز التعبير العاديّ إلى تعبير يتضمّن دلالة خاصّة وإيجاء يعزّز التناسب بينه وبين سياقه.

ومن نماذج تفرّد الفعل بمكانه في الآية ومناسبته للسياق، استعمال الفعلين (خلق) و(جعل) في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1]

ففي التعبير عن إنشاء السماوات والأرض جيء بالفعل (خلق)، وجيء بالفعل (جعل) في التعبير عن إنشاء الظلمات والنور، ولربما بدا ممكنا استخدام الفعل (خلق) مع المذكورات جميعا بحيث يقال: (خلق السماوات والأرض والظلمات والنور)... ولكن دقّة النظم القرآني تأبى إلا ما جاء عليه أسلوبه؛ فليس الخلق جعلاً وليس الجعل خلقاً، والفرق بينهما "أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين والتصيير، كإنشاء شيء من شيء، وتصيير شيء شيئاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف:189]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الرعد:38] وقوله: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:5]، وإنما حسن لفظ الجعل ههنا لأن النور والظلمة لما تعاقبا صاراً كأن كل واحد منهما إنما يولد من الآخر.² وقد رأى ابن عاشور أن "التفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدودة من فصاحة الكلمات، وأن لكل كلمة مع صاحبها مقاما، وهو

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 112/7

² الرازي، مفاتيح الغيب، 149/12

ما يسمى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة، ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها.¹

ولا شك أنّ في كلاّ النصين السابقين إشارة إلى تمكّن (الفعل) من مكانه في السياق القرآني وأنّ وظيفته المعنوية مرتبطة به أشدّ ارتباطاً، ناطقة بذلك التناسب الدقيق الحاصل بين أجزائه.

وإن العبارة المشهورة التي أوردها ابن عاشور في نصّه من أن لكل كلمة مع صاحبها مقاما هي المبدأ الذي يعتمد عليه في تعليل اختيار فعل دون آخر، وهو يستفيض في توضيحها وبيانها متحدّثا عن الفعل ذاته، (فعل جعل)، حيث ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا:9] أنّ إثارة فعل (جعلنا) في الآية إنّما وقع لأن النوم كيفية ناسبها هذا الفعل، لا فعل الخلق المناسب للذوات،² ويمثل ذلك وجه اختيار الفعل (جعل) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبا:6]. وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا:11،10]،

وفي موضع آخر يشير ابن عاشور إلى أن (جعل) يتضمّن معنى التصيير، وهو الذي يناسب السياق الدال على ذلك، ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام:9] "جيء بالفعل (جعلنا) المقتضي تصيير شيء آخر أو تعويضه به، فضمير (جعلناه) عائد إلى الرسول الذي عاد إليه ضمير (لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ)، أي ولو اكتفينا عن إرسال رسول من نوع البشر، وجعلنا الرسول إليهم ملكا لتعيّن أن نصوّر ذلك الملك بصورة رجل، لأنه لا محيد عن تشكّله بشكل لتمكّن إحاطة أبصارهم به

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 125/7

² المرجع نفسه، 18/30

وتخيّزه، فإذا تشكّل فإثما يتشكّل في صورة رجل ليطبقوا رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم.¹

ومن خلال ما تقدّم، نخلص إلى أن لكلّ من الفعلين (خلق) و(جعل) معنى ينفرد به ويبرزه السياق، وليس بينهما ترادف يتيح إبدال أحدهما بالآخر؛ فالفعل (خلق) يتعلّق معناه بإيجاد الذوات، وأما الفعل (جعل) فمعناه متعلّق بعوارضها وتصييرها من حالة إلى أخرى.

ومثل ذلك استعمال الفعل (رضيتُم) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 36] قال ابن عاشور: "اختير فعل (رضيتُم) دون نحو (آثرتُم) أو (فضّلتُم) مبالغة في الإنكار، لأن فعل (رضي بكذا) يدلّ على انشراح النفس، ومنه قول أبي بكر الصديق في حديث الغار: فشرب حتى رضيت.²

فدلالة الفعل (رضي) تشير إلى أن الذي كان من هؤلاء القاعدين عن القتال، ليس مجرد ميل أو تطلّع إلى شيء من الحياة الدنيا... وإنما قد تجاوزوا ذلك إلى السقوط في درك الرضوان بهذه الدنيا، فهو استغراق في مخادنة الدنيا، مخادنة فتّحت المغاليق فانشرحت النفس بها وأنست لها.³

وليس في الفعل (فضل) أو (آثر) هذه الدلالة التي يحملها فعل (رضي)، لذا ناسب معناه السياق الذي ورد فيه وظهر معه انتفاء الترادف بين هذه الأفعال، ففي الرضى اكتفاء بما هو موجود دون موازنة أو مفاضلة بينه وبين شيء آخر، أما التفضيل والإيثار فلا يقومان إلا على مفاضلة بين عدّة بدائل أو خيارات ترّجح كفة أحدها دون سواه.

¹ المرجع نفسه، 142/7

² المرجع نفسه، 195/10

³ محمود توفيق محمد أسعد، شذرات الذهب في البلاغة القرآنية، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 1422هـ، ص

ومن أمثلة الاختيار في الأفعال اختيار الفعل (يذهب) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: 43]، بينما اختير الفعل (يخطف) في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: 20]، ووجه التناسب في اختيار الفعل (يذهب) في آية النور أن: "هذه الآية واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال البرق في السحاب، وبقوة ضيائه حتى يكاد يذهب بالأبصار، وآية البقرة واردة في مقام التهديد والتشويه لحالهم حين كانوا مظهرين للإسلام ومنطوين على الكفر والجحود، فكانت حالهم كحالة الغيث المشتغل على صواعق ورعد وبرق، فظاهره منفعة، وفي باطنه قوارع ومصائب".¹

فلأجل اختلاف السياقين، كان التعبير في آية النور بالفعل (يذهب)، بينما جاء التعبير بالفعل (يخطف) في آية البقرة، لأن "في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلط عليهم ما ليس في (يذهب) إذ هو مجرد الاستلاب".²

وهذه المقارنة بين الفعلين تدلّ على أنّ لكلّ فعل خصوصية في المعنى يكتسبها من خلال السياق الذي ورد فيه.

ومن المواضع التي اختلف فيها استعمال الفعلين لاختلاف السياق قوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 52]، وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: 11]، فالمخالفة في استعمال الفعلين (كذبوا) و(كفروا) لم تأت

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 260/18

² المرجع نفسه، 260/18

جزافاً، وإنما كان السياق هو الأساس الأول على اختيار كل فعل منهما، قال ابن عاشور: "فأما المخالفة بين (كذبوا) و(كفروا) فلأن قوم فرعون والذين من قبلهم شاركوا المشركين في الكفر بالله وتكذيب رسله، وفي جحد دلالة الآيات على الوحدانية وعلى صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- فذكروا هنا ابتداء بالأفطع من الأمرين، فعبر بالكفر بالآيات عن جحد الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، لأن الكفر أصرح في إنكار صفات الله، وقد عقيبت هذه الآية بالتي بعدها، فذكر في التي بعدها التكذيب بالآيات، أي التكذيب بآيات صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وجحد الآيات الدالة على صدقه.¹" وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: 54]، أما في سورة آل عمران فذكر تكذيبهم بالآيات الدالة على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأن التكذيب متبادر في معنى تكذيب المخبر، لوقوع ذلك عقب ذكر تنزيل القرآن وتصديق من صدق به، وإلحاد من قصد الفتنة بمشابهه، فعبر عن الذين شابهوهم في تكذيب رسولهم بوصف التكذيب²، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

وقد يكون من دواعي اختيار الفعل في التركيب القرآني، طلب المشاكلة بينه وبين فعل آخر، مثلما هي الحال في الفعل (وقع) الذي أوتر في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 117، 118]، قال ابن عاشور: "ولعل في اختيار لفظ (وقع) هنا

¹ المرجع نفسه، 43/10

² المرجع نفسه، 43/10

دون (نزل) مراعاة لفعل الإلقاء، لأن الشيء الملقى يقع على الأرض، فكان وقوع العصا على الأرض وظهور الحق مقترنين.¹ فالحق لا يقع وقعا حقيقيا كما هي الأشياء المحسوسة تلقى فتقع على الأرض، وإنما عبّر عن ظهور الحق بالوقوع مراعاة لذلك لما ورد في الآية (أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) من جهة، وللوفاء بحق المعنى من جهة أخرى، وكل ذلك داخل في باب التناسب بين أجزاء الخطاب.

ومما سبق نخلص إلى أن نسق الأسلوب والسياق العام في كل آية يضيفي عليها سمة تعبيرية خاصة يؤثر لأجلها هذا الفعل أو ذاك، مما يحقق التناسب بين خصائص التركيب وسياقه.

ثالثا: التناسب في الأسماء

إن تنوع استعمال الألفاظ في القرآن لا يأتي لمجرد التصرف في الكلام كما سلف تقريره، ولكن أساسه مراعاة نسق الكلام وما يناسب سياقه ومقامه، ومن أمثلة اختيار القرآن لاسم بدل آخر في الآيات القرآنية ما يتعلق بأسماء الله الحسنى، ففي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 21]، "أوتر استحضار الجلالة باسم (الرحمن) دون غيره من الأسماء لأن المشركين يأبون ذكره، فجمع في هذه الجملة بين ردين عليهم مع ما للجملة الاسمية من الدلالة على ثبات الخبر، لأن معظم هذه السورة تعداد للنعم والآلاء، فافتتاحها باسم (الرحمن) براعة استهلال."² والرد الأول المقصود أن اسم (الرحمن) جواب الله تعالى للمشركين الذين لم يألفوا هذا الاسم حين سألوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: 60]، فهم إذا سمعوا هذه الفاتحة ترقّبوا ما سيرد من الخبر عنه.

والرد الآخر أنه جواب الله تعالى للمشركين بسبب قولهم في النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: 103]، فكان الاهتمام بذكر الذي يعلم النبي -

¹ المرجع نفسه، 49/9

² المرجع نفسه، 230/27

صلى الله عليه وسلم- أقوى من الاهتمام بالتعليم في ذاته، كما أن المؤمنين إذا طرق أسماعهم هذا الاسم استشفروا لما سيرد من الخبر المناسب لوصفه هذا مما هم متشوقون إليه من آثار رحمته.¹

فاسم (الرحمن) ناسب سياقه من جهتين؛ من جهة ما تقدّم في سياق سابق من سورتي النحل والفرقان، وهو ما يوحي بالترابط والتلاحم بين سور القرآن جميعا، ومن جهة أن ناسب موقعه في السورة عامّة، وذلك أن السورة قد اكتنفها من تعداد النعم والآلاء ما يوحي بالرحمة، فاقتضى هذا اختيار اسم (الرحمن) ليناسب النظم والسياق.

ومن هذا القبيل، إثارة لفظ الجلالة (الله) في سورة البقرة، ولفظ (الرب) في سورة الأنعام، ففي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145]، ولفظ (الرب) هنا يؤذن بالرأفة واللطف بالمربوب والولاية، وفيه تنبيه على أن الله جعل هذه الرخصة للمسلمين الذين عبدوه ولم يشركوا به، وأنه أعرض عن المشركين الذين أشركوا معه غيره، فالتعبير بأنه رب النبي -عليه الصلاة والسلام- معلوم منه أنه رب الذين اتبعوه، وأنه ليس رب المشركين باعتبار ما في معنى الرب من الولاية، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 11]، أي لا مولى يعاملهم بآثار الولاية وشعارها، لأن هذه الآية وقعت في سياق حجاج المشركين.²

فلهذه الخصوصية في لفظ (الرب) أوتر التعبير به في آية الأنعام، فكانت به أوفق وكان اللفظ بهذا السياق أليق لأنه سياق الحديث عن الربوبية، أما سورة البقرة فقد قال تعالى فيها: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ

¹ المرجع نفسه، 230/27

² ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 138/8

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [البقرة: 173]، حيث أُوثر التعبير بلفظ الجلالة (الله)، والسبب كما ذكره ابن عاشور أن هذه الآية مفتوحة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]¹.

فوجه اختصاص سورة البقرة بلفظ الجلالة (الله) أن السياق الذي وردت فيه هو سياق الحديث عن الألوهية، كما أن سورة البقرة سابقة في ترتيب المصحف سورة الأنعام، فهي بالنسبة إليها الأصل، ومن هذه الجهة ناسب لفظ الجلالة (الله) موضعه من الآية، وتفرّد بمعناه الخاص، كما ناسب لفظ (الرب) مقتضاه في سياقه.

ومن نماذج التناسب في استخدام أسماء الله الحسنى ما وقع من إثثار استعمال لفظ الجلالة (الله) اسماً ظاهراً بدل استعماله ضميراً، كما في قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: 1، 2، 3]، قال ابن عاشور: "وإنما أظهر اسم الجلالة في قوله (وينصرك الله) ولم يكتف بالضمير اهتماماً بهذا النصر وتشريعاً له بإسناده إلى الاسم الظاهر لصراحة الظاهر، والصراحة أدعى إلى السمع، والكلام مع الإظهار أعلق بالذهن."²

فهناك تناسب معنوي بين لفظ (النصر) وبين لفظ الجلالة (الله) اسماً ظاهراً، فعظمة هذا النصر من عظمة لفظ الجلالة، وهو -بلا ريب- نصر عزيز، "يغلب المنصور به كل من ناوأه، ولا يغلبه شيء مع دوامه، فلا ذلّ بعده، لأن الأمة التي تتصف به لا يظهر عليها أحد، والدين الذي قضاه لأجله لا ينسخه شيء."³ ولا شك أن هذه الفائدة كانت ستفوت لو استغنى عن الاسم الظاهر، فدلالته أقوى وأعظم تأثيراً من الضمير.

¹ المرجع نفسه، 115/2

² المرجع نفسه، 143/26

³ البقاعي، نظم الدرر، 116/8

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن:8]، فقد أوتر استعمال اسم الجلالة ظاهراً لتكون جملة (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) جملة مستقلة جارية مجرى المثل والكلم الجوامع، كما أن الاسم الظاهر أقوى دلالة من الضمير لاستغنائه عن تطلّب المعاد، وفيه من تربية المهابة ما في قول الخليفة: "الخليفة أمير المؤمنين يأمركم بكذا".¹

ويتحصل من النموذج السابق أن إثارة استعمال لفظ الجلالة (الله) اقتضاه السياق القريب، لأن الدلالة على العظمة والدلالة على التحذير والمهابة يناسبها استعمال لفظ الجلالة (ظاهراً)، وهذا من أسرار النظم القرآني.

وقد يؤثر في النظم القرآني استعمال الاسم الموصول للتعبير عن اسم الجلالة (الله) لصرف الانتباه إلى المعنى الذي تتضمنه صلته، وأنه الأولى بالاهتمام في هذا السياق، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1]، فقد نظر ابن عاشور في توجيه اختيار الاسم الموصول في هذه الآية بدل لفظ الجلالة إلى السياق القريب فقال: "والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى، ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم، فقد آمن به المسلمون وأكبره المشركون، وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد وإثبات أنه رسول من الله، وأنه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قبل لهم بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعا على غائب من الأرض، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام".²

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 272/28

² المرجع نفسه، 9/15

فلما كان السياق سياق الحديث عن الإسراء الذي انتشر بين القوم وتعجب منه من تعجب، وأنكر منهم من أنكر، وارتدّ منهم بعض من كان قد آمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ناسب ذلك التعبير عن الذات العلية بالاسم الموصول، لتتضمّن صلته الخبر الهامّ وهو الإسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم.

ومن المواطن التي تتصل بمراعاة السياق في اختيار الألفاظ ما ورد في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: 76]، حيث جاء التعبير بلفظ (مَثْوًى) دون (مدخل) المناسب لـ (ادخلوا)، والمثوى: محلّ الثواء، وهو الإقامة الدائمة، فأوثر لفظ (مَثْوًى) لأنه أدلّ على الخلود، فهو أولى بمساءتهم.¹ وما يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى في الآية ذاتها: (خَالِدِينَ فِيهَا)، فزاد ذلك من شدة التناسب بين أجزائها، فلذلك كان لفظ (مَثْوًى) أنسب من (مدخل).

ومن هذا القبيل إيثار التعبير بلفظ (كلماته) على لفظ (كتبه) في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]، ووجه التناسب في التعبير بلفظ (كلماته) دون (كتبه) أن المقصود هو "الإيماء إلى إيمان الرسول -عليه الصلاة والسلام- بأن عيسى كلمة الله، أي أثر كلمته، وهي أمر التكوين، إذ كان تكوّن عيسى عن غير سبب التكوين المعتاد، بل كان تكوّنه بقول الله (كن)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]، فاقضى أن الرسول -عليه الصلاة

¹ المرجع نفسه، 203/24

والسلام- يؤمن بعيسى، أي بكونه رسولا من الله.¹ فلما كان سياق الكلام يتعلق بكلمة الله عيسى -عليه السلام- ناسبه لفظ (كلماته) فتناسب بذلك التركيب والسياق.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13] ذكر ابن عاشور أن لفظ (الناس) في آية الحجرات هو الأنسب من لفظ المؤمنين، فقد جاء لتحقيق التناسب بينه وبين الغرض الذي صدرت به الآية، وهو التذكير بأن جميع بني البشر أصلهم واحد، فهم سواء في الخلقة، وأنه لا مجال للتفاضل والتفاخر فيما بينهم إلا بالتقوى.²

وقد يؤثر اسم إشارة دون آخر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:459]، قال ابن عاشور: "اختير اسم إشارة البعيد ليكون أبعث للسامع على التأمل منهم والالتفات إليهم." ³ والمقصود باللعن الإبعاد عن الرحمة والإبعاد من الثواب مع إذلال وغضب.⁴

والظاهر أن بين اسم الإشارة (أولئك) ولفظ (اللعن) تناسبا معنويا؛ فهؤلاء بعيدون لأنهم ملعونون، مطرودون من رحمة الله بعيدون عنها.

ومن نماذج استعمال اسم الإشارة الأنسب للسياق قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:30]، قال ابن عاشور: "وأوثر في الآية

¹ المرجع نفسه، 139/9

² المرجع نفسه، 258/26

³ المرجع نفسه، 65/2

⁴ المرجع نفسه، 65/2

اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المتزلة، كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.¹ فما قبل الآية حديث عن الحج وأفعاله، وهو الأمر العظيم الجليل الكبير "من راعاه فاز، ومن حاد عنه خاب".² فمتزلة من يعظم شعائر الله عظيمة عظم هذه الشعائر، وهذا المعنى ناسبه الإشارة إليها باسم إشارة البعيد.

ونخلص ممّا سبق إلى أن الأسماء إنما تختار في النظم القرآني لتناسب سياقها، وأنه لا يمكن بحال إبدال اسم مكان آخر، وذلك من دلائل التناسب المعجمي في آيات القرآن الكريم.

رابعاً: التناسب في الفواصل

تستعمل الفواصل في القرآن الكريم بدقّة وعناية، فتأتي في مواضعها متمكّنة، مناسبة لسياقها أشد مناسبة، وقد وقف ابن عاشور عند نماذج كثيرة في هذا الموضوع.

ومن الأمثلة القرآنية التي توقف عندها قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 23]، فأوضح الداعي إلى اختيار لفظ (تحشرون) دون تصيرون أو ترجعون، فقال: "(تحشرون) أجمع لأنه يدلّ على المصير، وعلى الرجوع مع الدلالة على أنهم يصيرون مجتمعين كلّهم كما كانوا مجتمعين حين استحضر حالهم في هذا الخطاب، وهو اجتماع الحجّ، ولأنّ الناس بعد الحجّ يحشرون إلى مواطنهم فذكّرهم بالحرش العظيم، فلفظ (تحشرون) أنسب بالمقام من وجوه كثيرة، والعرب كانوا يتفرّقون رابع أيام منى، فيرجعون إلى مكة لزيارة البيت لطواف الوداع، ثم ينصرفون فيرجع كل فريق إلى موطنه".³

¹ المرجع نفسه، 251/17

² البقاعي، نظم الدرر، 362/5

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 261/2

فلاحظ أن لفظ (تحشرون) ساهم في تصوير المعاني بطريق دلّ على تناسب جزئيات هذا التصوير، وإلى هذا المعنى أشار البقاعي بما نقل عن الحرّالي حين قال: "وكليّة الحج ومناسكه مطابق في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفه من خروج الحاجّ من وطنه متزوّداً كخروج الميت من الدنيا متزوّداً بزيادة العمل، ووصوله إلى الميقات وإهلاله متجرّداً كانبعاثه من القبر متعرّياً، وتلبّيته في حجّه كتلبّيته في حشره: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: 80]، كذلك اعتباره موطناً إلى غاية الإفاضة والحلول بحرم الله في الآخرة التي هي الجنة، والشرب من ماء زمزم التي هي آية نُزِّلَ اللهُ لأهل الجنة".¹

فلما كان السياق سياق ذكر لمشاهد الحج، وبيان شعائره ومناسكه عبّر عن ذلك كله بالفاصلة المناسبة فقال (تحشرون) لما في لفظها من تصوير يستحضر المعاد، وبذلك تحقق التناسب بين أجزاء النظم وسياقه، وكانت الفاصلة (تحشرون) أنسب بموضعها من (ترجعون) أو (تصيرون).

ومن نماذج التناسب بين الفاصلة والسياق الذي وردت فيه، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28].

فختم الآية الأولى بلفظ (يتذكرون)، وختم الآية التالية بلفظ (يتقون)، ولو ورد النظم بخلاف ذلك لاختل التناسب، وذلك "أن التذكّر أنسب بضرب الأمثال، لأن في الأمثال عبرة بأحوال الممثل به، فهي مفضية إلى التذكّر، والاتقاء أنسب بانتفاء العوج، لأنه إذا استقامت معانيه واتّضحت كان العمل بما يدعو إليه أيسر، وذلك هو التقوى".² وبالنظر إلى سياق كل آية فإن كل فاصلة ناسبت موضعها، وكانت سبباً لإحكام الربط بين أجزائه، وهذا هو جوهر البلاغة وكنه الإعجاز.

¹ البقاعي، نظم الدرر، 307/1

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 396/23

ومن لطيف تناسب الفواصل في النظم القرآني، تلك الآيات التي ختمت بفواصل هي في مجملها صفات لله تعالى، حيث نرى دقة متناهية في استعمالها في مواضعها، يتجلى فيها تناسب دقيق وتناسق بديع بينها وبين سياقها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:38]، حيث يرى ابن عاشور أن صفتي (العزیز العليم) تناسب السياق المتضمن لنظام سير الكواكب والكون بصفة عامة، "فالعزّة تناسب تسخير هذا الكوكب العظيم، والعلم يناسب النظام البديع الدقيق".¹ وهو الوجه الذي ذكره ابن عاشور عند تحليله لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت:12]، وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:96]، فقد ذكر أن "العزیز: الغالب، والله هو العزیز حقًا، لأنّه لا تتعاصى عن قدرته الكائنات كلّها، والعليم مبالغة في العلم، لأن وضع الأشياء على النظام البديع لا يصدر إلا عن عالم عظيم العلم".²

ومن خلال ما سبق يتأكّد أن السياقات القرآنية التي وردت فيها صفتا (العزیز) و(العليم) هي سياقات تتحدّث عن النظام البديع لهذا الكون، ولذلك كان ختم الآيات بصفة العزّة والعلم أنسب بالحديث عن عظمة المخلوقات، وإتقان نظام العالم.

ومن النماذج القرآنية لتناسب الفاصلة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:51]، فقد ذكرت في الآية صور الوحي، فكان أن ناسبها من الصفات العلى صفتا (العلي الحكيم)، وفي توجيه ذلك يقول ابن عاشور: "وإنما أوتر هنا صفة (العلي الحكيم) لمناسبتها للغرض، لأن العلوّ في صفة العليّ علوّ عظمة فائقة لا تناسبها

¹ المرجع نفسه، 17/23

² المرجع نفسه، 386/7

النفوس البشرية التي لم تحظ من جانب القدس بالتصفية، فما كان لها أن تتلقى من الله مراده مباشرة، فاقتضى علوه أن يكون توجيه خطابه إلى البشر بوسائط يفضي بعضها إلى بعض... وأما وصف (الحكيم) فلأن معناه المتقن للصنع العالم بدقائقه، وما خطابه البشر إلا لحكمة إصلاحهم ونظام عالمهم، وما وقوعه على تلك الكيفيات الثلاث إلا من أثر الحكمة لتيسير تلقي خطابه، ووعيه دون اختلال فيه ولا خروج عن طاقة المتلقين.¹

ومن لطائف التناسبات التي وقف عندها ابن عاشور، اختلاف الفاصلتين في موضعين مع أن المتحدث عنه واحد في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18]، فقد ذهب ابن عاشور في توجيه علة هذا التباين إلى أن صيغتي المبالغة في سورة إبراهيم اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله (وإن تعدوا...)، إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها، إذا أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئا، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره.²

وأما ذكر المغفرة والرحمة في سورة النحل فراجع إلى أن جملة (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) استئناف عقب به تليظ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكّنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون، وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم.³

وأضاف ابن عاشور من أسباب اختلاف الفاصلتين مجيء الفاصلة (لَظُلُومٌ كَفَّارٌ) في سياق وعيد وتهديد عقب قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا)، فكان المناسب

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 140/25

² المرجع نفسه، 234/13

³ المرجع نفسه، 123/14

لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله، ومجيء آية النحل خطابا للفريقين مؤمنهم وكافرهم وكلاهما منتفع بالنعمة، فكان من اللطائف أن قبل الوصفان اللذان في سورة إبراهيم (لَظْلُومٌ كَفَّارٌ) بوصفين في النحل هما (لَعْفُورٌ رَحِيمٌ) إشارة إلى أن تلك النعمة كانت سببا لظلم الإنسان وكفره، وهي سبب لغفران الله ورحمته، والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.¹

فلما كان السياق في سورة إبراهيم سياق حديث عن الكفار وظلمهم وتخلله حديث عن نعم الله تعالى فقد ناسب ذلك أن تكون فاصلتها (لَظْلُومٌ كَفَّارٌ)، بخلاف سورة النحل التي اشتملت على ذكر النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على عباده، فناسب هذا السياق أن تختتم آيتها بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ).

ومن هذا الباب ما ورد في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: 71، 72]، حيث ناسب كل فاصلة موضعها من الآية، فـ "ناسب السمع دليل فرض سرمدة الليل، لأن الليل لو كان دائما لم تكن للناس رؤية، فإن رؤية الأشياء مشروطة بانتشار شيء من النور على سطح الجسم المرئي، فالظلمة الخالصة لا ترى فيها المرئيات، ولذلك جيء في جانب فرض دوام الليل بالإنكار على عدم سماعهم، وجيء في جانب فرض دوام النهار بالإنكار على عدم إبصارهم."²

فالليل محل السكون ومجمع الحواس، وهو أمكن للسمع وأنفذ للفكر (أفلا تسمعون) أي ما يقال لكم إصغاء وطاعة وتدبر، ولما كان الضياء مما ينفذ فيه البصر قال: (أفلا

¹ المرجع نفسه، 123/14

² المرجع نفسه، 168/20

تبصرون)¹، فالسمع يناسبه ظرف الليل، والإبصار يناسبه ظرف النهار، وهذا من دقيق المناسبة المعنوية في الفاصلة القرآنية.

ومما تغيّرت فيه الفاصلة والمتحدّث عنه واحد، قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]، وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52]. قال ابن عاشور في توجيه الآيتين "سورة الأنبياء لم تذكر فيها رسالات الرسل إلى أقوامهم بالتوحيد عدا رسالة إبراهيم في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ [الأنبياء: 51]، ثم جاء غيره من الرسل والأنبياء مع الثناء عليهم، وطال البعد بين ذلك وبين قصّة إبراهيم، فكان الأمر بعبادة الله تعالى، أي إفراده بالعبادة -وهو المعنى الذي اتّحدت فيه الأديان- أولى هنالك؛ لأن المقصود من ذلك الأمر أن يبلغ إلى أقوامهم، فكان ذكر الأمر بالعبادة أولى بالمقام في تلك السورة؛ لأنه الذي حظ الأمم منه أكثر، إذ الأنبياء والرسل لم يكونوا بخلاف ذلك قط، فلا يقصد أمر الأنبياء بذلك، إذ يصير من تحصيل الحاصل إلا إذا أريد به الأمر بالدوام، وأما آية هذه السورة [المؤمنون] فقد جاءت بعد ذكر ما أرسل به الرسل إلى أقوامهم من التوحيد وإبطال الشرك، فكان حظّ الرسل من ذلك أكثر كما يقتضيه افتتاح الخطاب بـ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ) [المؤمنون: 51]، فكان ذكر الأمر بالتقوى هنا أنسب بالمقام، لأن التقوى لا حدّ لها، فالرسل مأمورون بها وبالأزدياد منها".²

ويتّضح لنا من كلام ابن عاشور أن الخطاب في سورة الأنبياء إلى سائر الخلق، وهم مأمورون بالعبادة والتوحيد، فناسب ذلك أن تأتي الفاصلة متضمّنة هذا المعنى، وهي قوله (فاعبدون)، أما سورة المؤمنون فالخطاب فيها موجّه إلى الرسل والمؤمنين الذين أخلصوا العبادة لله، فكان أمرهم بالتقوى أنسب بهذا المقام.

¹ البقاعي، نظم الدرر، 207/6

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 69/18

ونستخلص مما تقدّم أن التناسب بين الفواصل وسياقاتها من أظهر وجوه التناسب في القرآن الكريم، وأن الفاصلة –ومع كونها أبرز أجزاء الآية القرآنية– تجمع بين الصياغة البديعة والمعنى الدقيق، ولم تختار ألفاظ الفواصل في النظم القرآنية إلا لأنها الأنسب في سياقاتها والأليق في مواضعها والأوفق في نسقها.

الفصل الرابع

التناسب التركيبي

رأينا فيما سبق أن استعمال القرآن الكريم للألفاظ قد جمع بين حسن الصياغة وبلاغة المعنى، بما يحقق تناسب والانسجام في نسق الكلام، ولاحظنا كيف أن ابن عاشور اهتم بكشف نواحي القرآن البلاغية ووجوه التناسب فيه، وكيف تسهم ألفاظه في إبراز إحكام بنائه والربط بين آياته.

ومن وجوه التناسب السياقي التي أولاهها ابن عاشور عناية خاصة، ما يتعلق بالتركيب، حيث اهتم ببيان المعاني الدقيقة التي تشف عنها التراكيب القرآنية مستندا في ذلك إلى السياق ومقتضياته.

ومن الظواهر التركيبية التي تبرز مظاهر التناسب التركيبي في القرآن والتي حظيت باهتمام خاص من ابن عاشور، التقديم والتأخير والحذف والزيادة.

أولاً: التقديم والتأخير

تناول ابن عاشور ظاهرة التقديم والتأخير في الأسلوب القرآني منوها بقيمتها البيانية والبلاغية فقال: "إن للتقديم والتأخير في وضع الجمل وأجزائها في القرآن دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها."¹

وقد تناولنا ظواهر التقديم والتأخير التي وقف عندها ابن عاشور من خلال المباحث الآتية:

– تركيب الجملة – ترتيب المتعاطفين – ترتيب المتضادين – ترتيب الترتيبين

1 – تركيب عناصر الجملة

من نماذج التقديم والتأخير في ترتيب الجملة قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: 46]، فقد ذكر ابن عاشور أن

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 101/1

النظم في هذه الآية دلّ "على أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكّن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتمّ بأمر الرغبة عن الآلهة لأنها موضع عجب".²

فقد تقدم المبتدأ (راغب) على ما كان في الأصل هو المبتدأ وهو الضمير المنفصل (أنت)، وذلك أن المتكلم هنا -وهو أبو إبراهيم- شديد العناية والاهتمام والتعجّب من تلك الرغبة والإنكار لها، "ولو قال: أأنت راغب عنها ما أفادت زيادة الإنكار على إبراهيم".³ فجاءت بنية التركيب في الآية بما يناسب موقف الإنكار وموضوع التعجّب.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 14] تقدّم المفعول الأوّل (غير) على الفعل وفاعله (اتّخذ)، ووجه التناسب في تقديم المفعول في التركيب أنه المقصود بالإنكار ولأنه وقع مواليا للاستفهام الذي من شأنه أن يليه جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا⁴، فتقديم المفعول هنا هو للزيادة في التشنيع على من اتّخذ وليا غير الله، ولكونه محلّ الإنكار.

وقريب مما سبق ما جاء من تقديم المفعول الثاني على المفعول الأوّل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: 100]، فتقدير الكلام: (جعلوا الجن شركاء لله)، فيكون لفظ (الجن) في الآية مفعولا به أول مؤخرا لـ (جعلوا)، ولفظ (شركاء) مفعوله الثاني مقدّما، والمقصود الجن لا مطلق الشركاء؛ لأنّ جعل الشركاء قد تقرّر من قبل، والجارّ والمجرور (لله) متعلّق بـ (شركاء)، وعلة تقديم المفعول الثاني على الأوّل أنه محلّ تعجيب وإنكار، فصار لذلك أهمّ وذكره أسبق.⁵ وقد حصل مع هذا التقديم في الجملة زيادة في المعنى،

² المرجع نفسه، 118/16

³ الزركشي، البرهان، 276/3

⁴ ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 156/7

⁵ المرجع نفسه، 404/7

وجعل النفس تشوّف إلى معرفة نوع الشركاء، فجاء البيان بقوله: (الجنّ)، وفائدة التقديم "استعظام أن يتخذ الله شريك من كان، ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك".⁶

فشناعة الشريك وفضاعته وإنكاره ناسبه تقديم لفظ (شركاء) على لفظ (الجن) في تركيب الجملة.

ومن هذا القبيل تقديم المفعول الثاني على المفعول الأول في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112].

فالمقدّم (لكل نبي) مفعول به ثان للفعل (جعلنا)، و(عدوّاً) مفعول به أول له، وأصل هذين المفعولين خبر مقدّم ومبتدأ مؤخّر (لكل نبي عدو)، وتقديم المفعول الثاني على الأول إنما هو للاهتمام به، "لأنه الغرض المقصود من السياق، إذ المقصود الإعلام بأن هذه سنة الله في أنبيائه كلّهم، فيحصل التأسّي والقذوة والتسلية، ولأن في تقديمه تنبيهاً من أول السمع على أنه خبر، وأنه ليس متعلّقاً بقوله (عدوا)، كيلا يخال السامع أن قوله (شياطين الإنس) مفعول، لأنه يحوّل الكلام إلى قصد الإخبار عن أحوال الشياطين أو عن تعيين العدو للأنبياء من هو، وذلك ينافي بلاغة الكلام".⁷

فوجه التناسب في تقديم المفعول هنا، أنه لمّا كان مضمون ما تقدّم في الآيات التي تسبق هذه الآية هو إثبات عداوة الكفار للنبي -صلى الله عليه وسلم- بادر الخطاب القرآني بتقديم ما فيه تسلية وتثبيت لفؤاده، فتقدّم مضمونه بقوله: (جعلنا لكل نبي)، لينصبّ الاهتمام عليه، وهذا من شأنه أن يخفّف من وطأة عداوتهم له.

ومن أنماط التقديم والتأخير في تركيب الجملة القرآنية أن يتقدّم الجار والمجرور على متعلّقه كما في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿الْمُغْلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ

⁶ الزمخشري، الكشاف 380/2

⁷ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 8/8

بَعْدَ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ
بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿[الروم: 1-5]﴾.

فقوله: (لله الأمر) تقدّم فيه الجارّ والمجرور - المتعلّق بمحذوف (خبر) وهو المسند - على المبتدأ، وهذا التقديم في عرف البلاغيين غرضه تخصيص هذا المسند بالمسند إليه، فيكون معنى (لله الأمر)، أن هذا الأمر لله وحده لا لأحد غيره، وهو ما أشار إليه ابن عاشور حين بيّن علاقة التقديم بالسياق وأنها لا تخرج عن الغرض المذكور فقال: "وتقديم المجرور في قوله (لله الأمر) لإبطال تطاول المشركين الذين بهجهم غلب الفرس على الروم، لأنهم عبدة أصنام مثلهم، لاستلزامه الاعتقاد بأن ذلك الغلب من نصر الأصنام عبّادها، فبيّن لهم بطلان ذلك وأنّ التصرّف لله وحده في الحالين... دل عليه التذييل بقوله: (ينصر من يشاء)".⁸ وبهذا تحقّق التناسب والملاءمة بين التركيب والسياق.

ومن ذلك تقديم الجار والمجرور (له) المتعلّق بمحذوف (خبر) وهو المسند على المسند إليه (هاد) في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 36].

قال ابن عاشور: "وتقديم (له) على (هاد) للاهتمام بضميرهم في مقام نفي الهادي لهم، لأن ضلالهم المحكيّ هنا بالغ في الشناعة، إذ بلغ بهم حدّ الطمع في تخويف النبيّ بأصنامهم في حال ظهور عدم اعتداده بأصنامهم... وإذ بلغ بهم اعتقاد مقدرة أصنامهم مع الغفلة عن قدرة الرب الحق".⁹

وإلى جانب الاهتمام بضميرهم والعناية به، تضمّن تقديم الجار والمجرور (له) على (هاد) معنى جامعاً هو الاختصاص؛ فكما أن التصرّف لله وحده لا لأحد غيره، فكذلك المقدرة على الإضلال والهداية إليه تعالى لا إلى أحد غيره، فجمع هذا التقديم بين أمرين اثنين هما

⁸ المرجع نفسه، 41/21

⁹ المرجع نفسه، 12/24

الاهتمام بأمر أولئك الضالين، وتقرير كون الإضلال والهداية إليه تعالى وحده، وكلّها معان تستشفّ من السياق، ولها أثر في التركيب ونسق الأسلوب يحقّق التناسب والائتلاف في النظم.

ومن نماذج تقديم الجار والمجرور في تركيب الجملة القرآنية ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4]، فالكلام مسوق لنفي المكافأة عن ذات الله تعالى، و"تقديم المجرور بقوله (له) على متعلّقه وهو (كفوًا) للاهتمام باستحقاق الله نفي كفاءة أحد له، فكان هذا الاهتمام مرجّحاً لتقديم المجرور على متعلّقه.¹⁰ وبذلك ندرك أن تقديم المجرور إنّما كان لغرض معنوي تحقّق معه التناسب بين السياق وبين تركيب الجملة.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ [يونس:71].

قال ابن عاشور: "جملة (فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) جواب شرط (إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي) باعتبار أن ذلك الشرط تضمّن أن إنكاره عليهم قد بلغ من نفوسهم ما لا طاقة لهم بحمله، وأنهم متهيّئون لمدافعته، فأنبأهم أن احتمال صدور الدفاع منهم وهم في كثرة ومنعة وهو في قلة وضعف لا يصدّه عن استمرار الدعوة، وأنه وإن كان بينهم وحيداً فذلك لا يوهنه لأنّه متوكّل على الله، ولأجل هذا قدّم المجرور على عامله في قوله: (فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) أي لا على غيره.¹¹

فتقديم المجرور في هذا الموضع دليل على عظم توكّله -عليه السلام- على ربّه، فسياق الكلام حديث عن دعوته لهم إلى عبادة الله وهم يصدّون عن ذلك ويهدّدونه بالقتل

¹⁰ المرجع نفسه، 619/30

¹¹ المرجع نفسه، 234/11

ويتوعدونه، وكلّ ذلك لا يوهنه ولا يضعفه، لأنّه عظيم التوكّل على الله، ولأجل هذه العظمة في التوكّل والتنبيه عليها قدّم المحرور لتأكيدّه وتخصيصه بالله تعالى دون سواه بأيّ حال من الأحوال، وهذا ما أبرز التناسب بين المعنى وبنية التركيب في الآية.

ومّا سبق يتبيّن أن التقديم والتأخير في التراكيب القرآنية وجه من وجوه التناسب في القرآن الكريم، ويعدّ الاختصاص والاهتمام باللفظ المقدّم أبرز أغراضه التي تتعلّق بالسياق.

2 - ترتيب المتعاطفين

لا يأتي التقديم والتأخير بين اللفظين المتعاطفين أو بين الصفات إلا بحسب ما يقتضيه السياق.

ومن نماذج التقديم والتأخير بين المتعاطفين قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: 1، 2]، حيث قدّم لفظ (الكتاب) على لفظ (قرآن)، وقد اهتم ابن عاشور بتوجيه سرّ هذا التقديم فقال: " فأما تقديم الكتاب على القرآن في الذكر فلأنّ سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنهم سيحيء وقت يتمنّون فيه أن لو كانوا مؤمنين، فلمّا كان الكلام موجّهاً إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المتزلّ على محمد -صلى الله عليه وسلم - بعنوانه الأعمّ، وهو كونه كتاباً؛ لأنّهم حين جادلوا ما جادلوا إلا في كتاب، فقالوا: ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: 157]، ولأنّهم يعرفون ما عند الأمم الآخرين بعنوان كتاب، ويعرفونهم بعنوان أهل الكتاب.¹² فدلّ هذا التقديم على تناسب بين اللفظ المقدّم والغرض الذي سيق له.

وقد زاد في إبراز هذا الأمر مجيء لفظ (القرآن) مقدّماً على لفظ (كتاب) في قوله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: 1]، فليس هذا التقديم مجرد تصرّف في الكلام وتنويع لأفانيه، بل لكلّ صورة من صور التراكيب في القرآن داع سياقيّ يقتضيها، فاختلاف المقام في هذه الآية هو ما اقتضى تقديم لفظ (القرآن) على لفظ

¹² المرجع نفسه، 10/14

(كتاب)، قال ابن عاشور: "وإنما قدّم في هذه الآية (القرآن) وعطف عليه (كتاب مبین)... لأنّ المقام هنا مقام التنويه بالقرآن ومتّبعيه المؤمنين، فلذلك وصف بأنه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:2]، أي بأنّهم على هدى في الحال، ومبشّرون بحسن الاستقبال، فكان الأهمّ هنا للوحي المشتمل على الآيات وهو استحضاره باسمه العلم المنقول من مصدر القراءة؛ لأنّ القراءة تناسب حال المؤمنين به والمتقبّلين لآياته، فهم يدرسونها، ولأجل ذلك أدخلت اللام للمح الأصل، تذكيرا بأنه مقروء مدروس، ثم عطف عليه (كتاب مبین) ليكون التنويه به جامعا لعنوانيه، ومستكملا للدلالة بالتعريف على معنى الكمال في نوعه من المقروءات.¹³

فاختيار اللفظ المقدّم في ترتيب المتعاطفين في كلتا الآيتين ناسب السياق الذي ورد فيه كل لفظ، فكان الأهم والأولى بالذكر هو المقدّم.

ومن ذلك أيضا التقديم والتأخير بين لفظي (السمع) و(القلب)، فقد قدّم (السمع) على (القلب) في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:23] "لأنّ المخبر عنهم هنا لما أخبر عنهم بأنهم اتخذوا إلههم هواهم، فقد تقرّر أنّهم عقدوا قلوبهم على الهوى فكان ذلك العقد صارفا للسمع عن تلقي الآيات، فقدّم لإفادة أنّهم كالمختوم على سمعهم، ثم عطف عليه (وقلبه) تكميلا وتذكيرا بذلك العقد الصارف للسمع.¹⁴

ففي السياق ذكر للأسماع التي صرفها اتخاذ الآلهة هوى عن تلقي الآيات، وأمر هذه الأسماع المعطّلة قد ورد ذكره في أول السورة، فقد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

¹³ المرجع نفسه، 217/19

¹⁴ المرجع نفسه، 357/25

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿الجاثية: 8، 7﴾، فاقتضى ذلك تقديم لفظ (السمع).

وأما تقديم لفظ (القلب) في الذكر على لفظ (السمع) في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 07]. فقد كان بسبب أنه "في (البقرة) ذكر القلوب المريضة فقال تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) فقدّم القلوب لذلك... ثم إن آية البقرة ذكرت صنفين من أصناف الكافرين هم أشدّ ضلّالا وكفرا ممّن ذكرهم آية (الجاثية)، فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 06] فذكر... أن الإنذار وعدمه عليهم سواء، وأنهم ميؤوس من إيمانهم،¹⁵ فكان تقديم لفظ (القلب) أنسب في هذه الآية وأولى.

ومن نماذج التقديم والتأخير بين المتعاطفين تقديم لفظ (الفلك) على لفظ (الأنعام) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: 12].

قال ابن عاشور: "قدّم الفلك على الأنعام لأنها لم يشملها لفظ الأزواج، فذكرها ذكر نعمة أخرى، ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمترلة الإعادة، فلمّا ذكر الفلك بعنوان كونها مركوبا عطف عليها الأنعام، فصار ذكر الأنعام مترقبا للنفس لمناسبة جديدة،"¹⁶ فكان هذا غاية في تناسق النظم وتناسب أجزائه.

ومن لطائف القرآن في التقديم والتأخير بين الألفاظ المتعاطفة تقديم لفظ (الأموال) على لفظ (الأولاد) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنِ

¹⁵ فاضل صالح السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني، ص25، وهذه محاضرة ألقاها الدكتور فاضل السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام 2002م

¹⁶ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 172/25

ذَكَرَ اللَّهُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿[المنافقون: 09]﴾، ففي هذه الآية نهي من الله للمؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكره تعالى، وهذه الآية "انتقال من كشف أحوال المنافقين المسوق للخطر منهم والتحذير من صفاتهم، إلى الإقبال على خطاب المؤمنين بنهيهم عما من شأنه أن يشغل عن التذكر لما أمر الله ونهى، ثم الأمر بالإففاق في سبل الخير في سبيل الله ومصالح المسلمين وجماعتهم وإسعاف آحادهم، لئلا يستهويهم قول المنافقين ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: 7] والمبادرة إلى ذلك قبل إتيان الموت الذي لا يُدرى وقت حلوله حين تمنى أن يكون تأخر أجله ليزيد من العمل الصالح، فلا ينفعه التمني، وهو تمهيد لقوله بعده ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المنافقون: 10]، فالمناسبة لهذا الانتقال هي حكاية مقال المنافقين، ولذلك قدم ذكر الأموال على ذكر الأولاد لأنها أهم بحسب السياق.¹⁷

فالمقام هو الذي اقتضى تقديم لفظ (الأموال) حتى يقع التناسب بينه وبين لفظ (الإففاق).

ويستفاد من أمثلة التقديم والتأخير بين المتعاطفين أن وحدة السياق تؤثر في تقديم اللفظ أو تأخيره، وأن الأمر ليس مجرد تنويع أو تصرف في الألفاظ، بل إن وراء ذلك غاية ثابتة هي الحفاظ على تناسب النظم القرآني، كما أن تقديم اللفظ أو تأخيره إنما يأتي ليحقق غرضاً من الأغراض التي يتوجه إليها سياق الكلام، وكل ذلك مندرج ضمن وجوه التناسب السياقي في القرآن الكريم.

3 - ترتيب المتضادين

الجمع بين اللفظين المتضادين كثير في القرآن الكريم، وترتيبهما في الآيات يتصل بالسياق، فقد يأتي أحدهما مقدماً على الآخر في سياق، ويقع خلاف ذلك في سياق آخر، سواء أعلق الأمر بالآيات المتشابهة أم بغيرها؛ لأن النظم القرآني لم يأت فيه اللفظ مقدماً

¹⁷ المرجع نفسه، 250/28

أو مؤخرًا إلا لغرض يقتضيه السياق، وهو ما يجعل التقديم والتأخير في ترتيب الألفاظ المتضادة مظهرًا آخر من مظاهر التناسب التركيبي.

ومن الأمثلة التي ساقها ابن عاشور في هذا الشأن تقديم لفظ (الظلمات) على (النور) في الذكر في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1].

قال ابن عاشور: "قدم ذكر الظلمات مراعاة للترتب في الوجود، فإن النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، وكانت الظلمة عامة." ¹⁸ فلما كانت الظلمة متقدمة تقديرًا وتحققًا اقتضى ذلك تقديمها في اللفظ على النور.

"ومما يقوي ذلك ما يروى في الأخبار الإلهية، أنه تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره." ¹⁹

وإذا كان الليل مظهرًا للظلمة وكان النهار هو وقت ظهور النور فإن التقديم والتأخير حينئذ يأتي متحققًا في الوجود ومحققًا الغرض الذي يهدف إليه السياق القرآني؛ ففي قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: 17]، تقدّم لفظ الإمساء على لفظ الإصباح، "لأن كلمة المساء تشمل أول الليل، فقدّم لفظ (تمسون) هنالك رعيًا لاعتبار الليل أسبق في حساب أيام الشهر عند العرب وفي الإسلام." ²⁰ فالمساء متقدم على الصباح في الوجود، أي في الترتيب الزمني، ولذلك تقدّم لفظه.

وشبيه بذلك تقديم البكرة على الأصيل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41، 42]، لأن البكرة -وهي أول

¹⁸ المرجع نفسه، 125/7

¹⁹ الرازي، مفاتيح الغيب، 149/12

²⁰ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 47/22

النهار- أسبق في الوجود من الأصل الذي هو آخره،²¹ وهذا من مظاهر تناسب النظم القرآني ودلائل إعجازه.

وقد يكون الشيء متأخراً في الترتيب الزمني عن شيء آخر، ولكنه يأتي خلاف ذلك في السياق القرآني، وإنما يقع ذلك لتحقيق وجه من وجوه التناسب، ومن أمثله تقديم لفظ (تريحون) على (تسرحون) في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:6]، فالإراحة هي الرجوع إلى المعطن، والسروح هو الغدو إلى المراعي بالأغنام، "وتقديم الإراحة على التسريح لأنّ الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج، لأنّها تقبل حينئذ ملاءى البطون حافلة الضروع، مريحة بمسرة الشبع ومحبة الرجوع إلى منازلها من معطن ومرابض".²²

فلما كان السياق هو بيان ما في الأنعام من المتعة والجمال للناس، وكانت هذه المتعة والجمال أكثر ما يكونان عندما تعود إلى مرابضها مليئة البطون حافلة الضروع مسرورة بالعودة، ناسب ذلك تقديم لفظ (تريحون) على لفظ (تسرحون).

ومن أمثلة التقديم والتأخير في ترتيب المتضادين مراعاة للمقام ذكر لفظ (الأعمى) مقدّماً على لفظ (البصير) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:58].

يقول ابن عاشور: " وإثماً قدّم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أنّ البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة، والمشبّه بالبصير أشرف من المشبّه بالأعمى، إذ المشبّه بالبصير المؤمنون، فقدّم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات؛ إذ هم المقصود بالموعظة،"²³ فقد قال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

²¹ المرجع نفسه، 47/22

²² المرجع نفسه، 103/14

²³ المرجع نفسه، 177/24

يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿56، 57﴾ [غافر: 56، 57]، فالمقام هنا مقام حديث عن أولئك الذين يجادلون بغير علم في آيات الله، ولا شك في أنهم كثر، ولذلك أخبر بـ أن (أكثر الناس لا يعلمون)، وهذا يعني أن الفريق الأقل من الناس هو الذي يعلم، فكان تقديم لفظ (الأعمى) مراعاة لتلك الكثرة المجادلة، لأنها الأهم والأعنى، وهذا هو وجه مناسبة التقديم. وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49]، تقدّم لفظ (الضر) على (النفع) في الذكر، ووجه تقديمه في هذه الآية أنها وردت في سياق حكاية استبطاء المشركين ما فيه مضرّتهم وهو الوعيد، ولأن استطاعة الضرّ أهون من استطاعة النفع، ولأنّ النفوس أشدّ تطلّعا إلى دفع الضرّ من تطلّعها إلى جلب النفع؛²⁴ فقد "طلبوا تعجيل العذاب استهانة وتكديبا، ولم يعلموا ما في طلبهم من الحنة والمضرة العاجلة، فقال عليه السلام بأمر الله تعالى: إني لا أملك الضر ولا النفع لنفسي ولا لكم فلا تستعجلوني ذلك، فليس بيدي، فقدّم الضرّ لأجل ما تقدّم من طلبهم إيّاه."²⁵

أما في سورة الأعراف، فقد تقدّم لفظ (النفع) على لفظ (الضرّ) في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188]، فقد تقدّم النفع في الذكر على الضرّ، لأن النفع أحب إلى الإنسان... وجعل نفي أن يملك لنفسه نفعاً أو ضرراً مقدّمة لنفي العلم بالغيب، لأن غاية الناس من التطلّع إلى معرفة الغيب هو الإسراع إلى الخيرات المستقبلية بتهيئة أسبابها وتقريبها، وإلى التجنّب لمواقع الإضرار، فنفي أن يملك

²⁴ المرجع نفسه، 288/6

²⁵ ابن الزبير الثقفي، ملاك التأويل، 578/1

لنفسه نفعاً ولا ضرراً يعمّ سائر أنواع الملك وسائر أنواع النفع والضرر، ومن جملة ذلك العموم ما يكون منه في المستقبل وهو من الغيب.²⁶

فوجه تقديم لفظ النفع على الضرر في هذه الآية أنّها وردت في سياق سؤال الكفار النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة ظناً منهم أنه يعلمها، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: 187]، ولا شك أن في العلم بالشيء منفعة لصاحبه، وقد تقدّم في كلام ابن عاشور ما يدلّ على النفع في العلم بالغيب، ولأجل ذلك كان تقديم لفظ (النفع) على (الضرر) في هذا السياق.

ومن نماذج ترتيب المتضادين بما يوافق السياق تقديم لفظ (الذكر) على (الأنثى) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36]، قال ابن عاشور: "نفي المشابهة بين الذكر والأنثى يقصد به معنى التفضيل في مثل هذا المقام، وذلك في قول العرب: ليس سواء كذا وكذا، ولذلك لا يتوخّون أن يكون المشبه في مثله أضعف من المشبه به، إذ لم يبق للتشبيه أثر، ولذلك قيل هنا: (وليس الذكر كالأنثى)، ولو قيل: (وليست الأنثى كالذكر) لفهم المقصود، ولكن قدّم الذكر هنا لأنّه هو المرجو المأمول، فهو أسبق إلى لفظ المتكلّم."²⁷

فلما كان مقصود امرأة عمران مع إمضاء نذرها بعد تحقق كون ما وضعت أنثى هو "التحصّر على ما فاتها من الأجر في خدمة البيت المقدّس بما يقابل فضل قوّة الذكر على الأنثى وصلاحيته للخدمة في كل أحواله، قالت: (وليس الذكر)، أي الذي هو معتاد للنذر

²⁶ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 206/9

²⁷ المرجع نفسه، 232/3

وكنّت أحبّ أن تمّبه لي لأفوز بمثل أجره في هذا الفرض في قوّته وسلامته من العوارض المانعة من المكث في المسجد ومخالطة القوم (كالأنثى) التي وضعتها.²⁸ فمأمول امرأة عمران كان أن ترزق بولد ذكر؛ لأنّ النذر للبيت المقدّس عرف للذكور، ولذلك تقدّم لفظه بما يوافق السياق ومقتضى الحال.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] تقدّم ذكر لفظ (الجن) على لفظ (الإنس)، وذلك "للاهتمام بهذا الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجنّ، ليُعلّموا أن الجنّ عباد لله تعالى".²⁹ فالسياق في ذكر شنيع حال المشركين من الانحراف عن الفطرة التي خلقوا عليها، فخالفوا سنّتها بأن اتّخذوا مع الله جلّ وعلا آلهة من الجن،³⁰ فناسب هذا تقديم لفظ (الجن) على (الإنس)، وتحقيق الغرض المقصود منه، وهو الاهتمام والعناية به.

كما تقدّم ذكر الجنّ على الإنس في سورة الناس في قوله تعالى: (من الجنة والناس)، حيث قدّم لفظ (الجنة) على (الناس)، وذلك أن سياق الآيات ذكر قبله في ذكر الوسوسة فقال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: 4، 5]، ف—— (الجنة) هم "أصل الوسواس... بخلاف تقديم الإنس على الجنّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، إذ إن خبثاء الناس أشدّ مغالطة للأنبياء من الشياطين، لأن الله عصم عباده من تسلّط الشياطين على نفوسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42]، ولما أراد الله إبلاغ وحيه لأنبيائه زكّى نفوسهم من خبث وسوسة الشياطين، ولم يعصمهم من لحاق ضرّ الناس بهم والكيد لهم

²⁸ البقاعي، نظم الدرر، 37/2

²⁹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 24/27

³⁰ المرجع نفسه، 24/27

لضعف خطره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]، ولكنه ضمن لرسله النجاة من كل ما يقطع إبلاغ الرسالة إلى أن يتم مراد الله.³¹ فالتقديم والتأخير بين هذين المتضادين يبرز كيف أن لكل سياق ما يناسبه من ترتيب المتضادين.

ومن الأمثلة كذلك، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجن: 24] حيث تقدّم لفظ (الموت) في الذكر على (الحياة) في قوله: (نموت ونحيا)، ولا بد أن لذلك أسبابا اقتضاها السياق ذكرها ابن عاشور فقال: "تقديم فعل (نموت) على (نحيا) للاهتمام بالموت في هذا المقام، لأنهم بصدد تقرير أن الموت لا حياة بعده... ولذلك أعقبه بقوله تعالى: (وما لهم بذلك من علم) فالإشارة بـ (ذلك) إلى قولهم: (وما يهلكنا إلا الدهر)، أي لا علم لهم بأن الدهر هو المميت إذ لا دليل."³²

فسياق الآية هو حديث عن حكاية أهل الكفر انتفاء البعث، وهو ما أفاده حصر حياتهم في الدنيا وأنه إذا كان هناك شيء يسبب الموت فهو الدهر، فكان تقديم لفظ (نموت) أعنى وأهمّ لديهم وأنسب للسياق.

وهكذا فإنّ ترتيب المتضادات في النظم القرآني له أسبابه المتعلقة بالسياق، فلا يتقدّم لفظ على ضده، ولا يتأخّر في موضع من المواضع إلا ومن ورائه اتساق في الأسلوب وتناسب في النظم، وهذا الحكم يطّرد في أسلوب القرآن بأوضح وجه وأجلى صورة.

4 - ترتيب الجمل

³¹ المرجع نفسه، 632/30

³² المرجع نفسه، 361/25

حكم التراكيب من حيث التقديم والتأخير هو حكم المفردات؛ حيث تأتي التراكيب القرآنية في أنسب موضع لها ضمن السياق، وإذا تقدّم تركيب منها أو تأخّر فلمقتضى سياقي يتحقق به التناسب بين المبني والسياق والمعنى.

ومن التراكيب التي توقّف عندها ابن عاشور مبنيًا وجه تقديمها وتأخيرها قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]، قال ابن عاشور: "وتعقيب ذكر دين نوح بما أوحى إلى محمد عليهما السلام للإشارة إلى أن دين الإسلام هو الخاتم للأديان، فعطف على أوّل الأديان جمعا بين طرفي الأديان، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة الآخر لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها، وهذا نسج بديع من نظم الكلام، ولولا هذا الاعتبار لكان ذكر الإسلام مبتدأ به كما في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]".³³

فهذه الآية من سورة الشورى "إنما أوردت في مقام وصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، فكأن الله تعالى قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث به نوحا في العهد القديم، وبعث به محمدا -صلى الله عليه وسلم- في العهد الحديث، وبعث به من توسّط بينهما".³⁴

وهذا الأمر يتّضح أكثر في سياق الآيات الواردة بعد هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15]، فكان تقديم ذكر نوح -عليه السلام-

³³ المرجع نفسه، 49/25

³⁴ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 51/25

وتعقيبه بذكر النبي محمد -صلى الله عليه وسلم - مناسبا للغرض الذي سيق له الكلام، ومناسبا للترتيب الزمني الحاصل بين الدينين.

ومن نماذج تقديم التراكيب تقديم نفي الولد على الوالد في سورة الإخلاص، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 3، 2، 1]، قال ابن عاشور: "قدم نفي الولد لأنه أهم، إذ قد نسب أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى، ولم ينسبوا إلى الله والدا".³⁵ فلم يجر في سائر القرآن الكريم ذكر صفة الوالد منسوبة إليه سبحانه وتعالى، بل كان من المشركين أن ادّعوا أن له ولدا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: 88]، واعتقد أهل الكتاب بينونة بعض أنبيائهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، فكان وجه التقديم في سورة الإخلاص أنها جاءت في سياق رد دعوى المشركين وإبطالها، ليجري الكلام على نسق واحد ويتناسب بناء التقديم على ما بني عليه الادّعاء.

ومما يتصل بهذا اللون من ألوان التناسب، ما جاء من تقديم نفي الولد على نفي الشريك، في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91]، فتقدم نفي الولد في هذه الآية لأنه الأهم كما قال ابن عاشور في تحليله لآية سورة الإخلاص، وفي قوله تعالى: (ما اتخذ الله من ولد) ردّ على جمع من الكفار كانوا يقولون الملائكة بنات الله.

وشبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام -مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام- لأن الملائكة غير مشاهدين، فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأن الذين زعموهم بنات الله وهم عباده، أقرب للتمويه من الذين زعموا الأصنام والحجارة

³⁵ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 618/30

شركاء لله.³⁶ وبهذا ناسب تقديم نفي الولد ادعاء المشركين الذين نسبوا الولد إلى الله تعالى، كما ناسب ما كان من ادعاء أهل الشرك الذين جعلوا الملائكة بناته، فئاتلف الكلام على نظام واحد وتناسب تركيبه وسياقه.

ومن تناسب التراكيب والسياق قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: 20، 21].

حيث تقدمت جملة (لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا) على جملة (وَهُمْ مُهْتَدُونَ)، وفي هذا يقول ابن عاشور: "وإنما قدّم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء لأنّ القوم كانوا في شك من صدق المرسلين، وكان من دواعي تكذيبهم اتّهامهم بأنّهم يجرون لأنفسهم نفعاً من ذلك، لأنّ القوم لمّا غلب عليهم التعلّق بحبّ المال وصاروا بعداء عن إدراك المقاصد السامية، كانوا يعدّون كلّ سعي يلوح على امرئ إنّما يسعى به إلى نفعه، فقدّم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة، وليتهيّؤوا إلى التأمّل فيما يدعونهم إليه."³⁷

ويمكن الاستدلال على تعلّقهم بحب المال بقوله تعالى في آية سابقة من ذات السورة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 47]، فالسياق يدل على تعلّق هؤلاء الكفار بالمال وشدة حبّهم له، وشحّهم على الفقراء المسلمين الذين "يمنعونهم البذل تشفياً منهم"³⁸، فلمّا كان المال وكسبه شغلهم الشاغل، وعدم الإنفاق في سبيل الله متعلّقاً بهم، كان من أخوف ما يخافونه أن تزول هذه النعم عنهم بسؤال الفقراء لهم أن يعطوهم منها. ولشدة حرصهم على جمع المال رأوا في كل امرئ يسعى إليهم أنه إنّما يسعى إلى الانتفاع بأموالهم حتى ولو كان رسولا من عند الله تعالى، ولهذا كان تقديم نفي سؤال الأجر على

³⁶ المرجع نفسه، 113/18

³⁷ المرجع نفسه، 365/22

³⁸ المرجع نفسه، 31/23

الاهتداء هو الأنسب في سياق الآية، وهو من بدیع الترابط والتناسق بين تراكيب القرآن وسياقه ومعانيه.

وقد يكون التقديم والتأخير بين الجمل متعلّقاً ببعض متشابهات القرآن، ويكون الاحتكام إلى السياق هو أساس توجيه اختلاف بنية التراكيب كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:78]، حيث تقدّمت جملة (لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ) على الجملة (وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) بخلاف ما في سورة البقرة، قال ابن عاشور: "وقدّمت شهادة الرسول للأمة هنا وقدّمت شهادة الأمة في آية البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:143]، لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول، فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم".³⁹

ونلاحظ أن ابن عاشور نظر إلى تناسب كل جملة مع سياقها، فأية الحجّ تضمّنت ذكر الدين وهو الإسلام الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام يشهد على هذه الأمة ويبين لها نهجها، فكان ذكر شهادة الرسول مقدّماً أليق بهذا السياق، أمّا آية (البقرة) فقد ناسبها تقديم شهادة الناس، لأنّ السياق الذي وردت فيه صُدّر بالتنويه والثناء على أمة محمد — عليه الصلاة والسلام — بأنها "الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً فتقيم بينهم بالعدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وترز قيمهم وتصوّراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم، فتفصيل في أمرها، وتقول هذا حقّ منها وهذا باطل".⁴⁰

³⁹ المرجع نفسه، 347/17

⁴⁰ المرجع نفسه، 100/1

وبهذا يتبين لنا وجه من التناسب السياقي، وفرق من الفروق الدقيقة في المعاني، حيث إن تقديم جملة على أخرى في القرآن الكريم لا يمكن تعليقه بمعزل عن السياق وعناصره المختلفة، فكل جملة أنسب بمقامها وأليق لسياقها.

ويتبين لنا أن التقديم والتأخير هو واحد من خصائص النظم القرآني التي تبرز طرفا من أسرار التناسب السياقي، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتساوى التقديم والتأخير من حيث الدلالة ضمن السياق القرآني، وذلك هو شأن النظم القرآني في جميع حالاته ومستوياته.

ثانيا: الحذف والزيادة

يعدّ الحذف والزيادة من أبرز الظواهر في النحو والبلاغة جميعا، ولقد كان لهذه الظاهرة حضور كبير في النص القرآني ونظمه.

ويرتبط الحذف والزيادة في القرآن الكريم بالتناسب ووحدة السياق، ولذلك نجد ابن عاشور يلجأ في بيان المحذوفات إلى استحضار السياق وما يتضمّنه من قرائن، ليبين كيف أن النظم القرآني يتضمّن من الحذف أو الزيادة ما يراعى معه تناسب السياق.

1 - الحذف

من نماذج الحذف التي ساقها ابن عاشور قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِّيُنذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: 2، 1]، قال مبينا ارتباط الحذف في الآية بالسياق: "وحذف مفعول (ينذر) لدلالة السياق عليه، لظهور أنه ينذر الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولا بالمتزل عليه، ولدلالة مقابله عليه في قوله: (ويبشّر المؤمنين)."⁴¹

فابن عاشور يعلّل الحذف اعتمادا على نوع من التناسب ضمن السياق، من خلال المقابلة بين مفعول (يبشّر) وهو (المؤمنين)، ومفعول (ينذر) المحذوف المقدّر بـ (الذين لم يؤمنوا)، فكأن التناسب هنا حصل بين متقابلين حذف أحدهما وذكر الآخر.

فإذا كانت صور التقابل في القرآن الكريم أساسها ذكر المتقابلين بما يحقق التناسب والتلاؤم بينها في السياق، فإن تقدير حذف أحد المتقابلين يستعان فيه بالتقابل السياقي بين المحذوف والمذكور اعتمادا على التناظر بينهما، وهذا النوع من الحذف هو شكل بسيط من نوع بليغ من الحذف يعتمد على دليل التناسب، يسمّيه بعض العلماء بـ (الاحتباك)،

⁴¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 246/15

أو الحذف المقابلي، أو بالاكتفاء بالمقابل.⁴² وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه.⁴³ ويعبر عنه السجلماسي بقوله: "هو قول مركّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منهما إلى الثالث كنسبة الثاني إلى الرابع، أو ما كانت النسبة فيه كنعو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسين بأحدهما لقطع الدلالة ممّا ذكر على ما ترك."⁴⁴

أما الزمخشري في تفسيره لآية الكهف السابقة، فذهب إلى أن الاختصار على أحد مفعولي (أنذر)، إنما هو "جعل المنذر به هو الغرض المسوق إليه، فوجب الاختصار عليه."⁴⁵ فالتناسب الذي أشار إليه الزمخشري يربط بين السياق والغرض المقصود، ذلك أن القصد من الخطاب هو الذي يتحكّم في بنية الكلام، فكان الحذف مراعاة لسياق الخطاب ومقصده، وهو من قبيل التناسب بين السياق والغرض بوجه خاص، والمقام بوجه عام.

وقريب مما سبق حذف الجملة (أو يؤسر) وتقديرها في قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74]، قال ابن عاشور: "وإنما اقتصر على القتل والغلبة في قوله: (فيقتل أو يغلب) ولم يزد (أو يؤسر) إجابة من أن يذكر لهم حالة ذميمة لا يرضاها الله للمؤمنين، وهي حالة الأسر، فسكت عنها لئلا يذكرها في معرض الترغيب، وإن كان للمسلم عليها أجر عظيم أيضا، إذا بذل جهده في الحرب فغلب، إذ الحرب لا

⁴² ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 209

⁴³ ينظر: الزركشي، البرهان، 129/3

⁴⁴ السجلماسي أبو محمد القاسم، المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة

المعارف، ط 1، الرباط، 1401هـ / 1980م، ص 195

⁴⁵ الزمخشري، الكشاف، 565/3

تخلو من ذلك، وليس بمأمور أن يلقي بيده إلى التهلكة إذا علم أنه لا يجدي عنه الاستبسال، فإن من منافع الإسلام استبقاء رجاله لدفاع العدو.⁴⁶

فابن عاشور في هذه الآية اجتهد اجتهدا خاصا في تبين القيمة الفنية التي ينطوي عليها الحذف في سياق الآية، حيث قدر المحذوف — (أو يؤسر)، إذ لمّا كان المقام مقام ترغيب وبأن من يجاهد في سبيل الله قد أعد له أجرا عظيما، اقتضى ذلك حذف العبارة التي تدلّ على حالة الأسر، ليتمّ التناسب بينه وبين الغرض الذي تضمّنه السياق.

ومن النماذج التي ساقها ابن عاشور في الحذف تلك الآيات التي حذف جزء من مبناها في موضع وذكر في موضع مشابه كما في قوله تعالى: ﴿وَائِلٌ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّيْلِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: 69، 70]، قال ابن عاشور: "الأظهر أن إبراهيم ابتدأ بمحاجة أبيه في خاصتهما ثم انتقل إلى محاجة قومه، وأن هذه هي المحاجة الأولى في ملأ أبيه وقومه، ألقى فيها دعوته في صورة سؤال استفسار غير إنكار استترالا لطائر نفورهم.⁴⁷

فلما لم يكن السؤال هنا منصبا على شيء معيّن، بحيث يفهم منه أنه استفهام إنكاري بل كان مجرد استفسار، ناسب ذلك حذف اسم الموصول (ذا) في قوله: (ما تعبدون).

أما قوله في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَ لِلَّيْلِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَنْفَكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: 85-86]، فقد زيد فيه الاسم الموصول (ذا)؛ وذلك لأن المقام مختلف هنا، حيث إن هذه الآية هي مقام آخر لإبراهيم مع قومه بعد الدعوة الأولى المحكية في سورة الصافات، "فلذلك كان الاستفهام مقترنا بما يقتضي التعجب من حالهم بزيادة كلمة (ذا) بعد (ما) الاستفهامية في سورة الأنبياء، وكلمة (ذا) إذا وقعت بعد (ما) تقول

⁴⁶ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 121/5

⁴⁷ المرجع نفسه، 137/19

إلى معنى اسم الموصول، فصار المعنى في سورة الأنبياء: ما هذا الذي تعبدونه؟ فصار الإنكار مسلّطا إلى كون تلك الأصنام تُعبد.⁴⁸

ويظهر من كلام ابن عاشور أن الحذف في بنية الآية مرتبط أساسا بالمعنى الذي تقرّر فيها، والتناسب بينه وبين السياق أساسه مراعاة ما اقتضاه هذا السياق، مثلما اقتضى السياق زيادة (ذا) لأن المقام مختلف، فهو مقام إنكار على ما يعبده قوم إبراهيم عليه السلام، فجاء بهذا اللفظ ليناسب المعنى.

ويمكن القول -بالنظر إلى ما سبق- أن الحذف أسلوب لا يقع في سياق الآية أو الجملة القرآنية إلا لتحقيق نوع من التناسب بين بنية النظم وبين المعنى المنصوص عليه في السياق، وكل ذلك مما يؤكّد الترابط والانسجام والتآلف بين عناصر النظم القرآني.

ولربما أوحى النظرة السطحية لأسلوب الحذف بما يضادّ فكرة التماسك والانسجام بين مكونات النص، إذ كيف للحذف أن يكون طرفا في تماسك النص وانسجامه وهو في معناه إسقاط جزء من بنية التركيب؟ "ولكن التأمل يجعلنا نضع الحذف في صلب الآليات التماسكية... فإذا كان إسقاطا لبعض مكونات الجملة أو جملة بأكملها، فإن هذا الإسقاط يساهم في إفساح المجال لبروز عناصر أخرى وظهورها بشكل أقوى، وهذا ما يعزّز التماسك، ويرسّخ بعض المفاهيم في الذهن أكثر من غيرها."⁴⁹ فـمعلوم "إذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض، جعل سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مطّرح، ونظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق، الغرض المسوق إليه قولك: بالحق، فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه."⁵⁰

ويمكن القول إن ابن عاشور لم يشغل على الحذف في القرآن الكريم، انطلاقا من منظور لغوي نظري فحسب (نحويا كان أو منطقيّا)، بل جمع إلى ذلك الاحتكام إلى

⁴⁸ المرجع نفسه، 137/19

⁴⁹ رشيد بركان، آليات ترابط النص القرآني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، 2015، ص 105

⁵⁰ الزمخشري، الكشاف، 170/5

السياق الذي ورد فيه الحذف والغرض منه لتعليقه، وبيان التآلف الحاصل بين أجزاء الخطاب، والتدليل على كون ظاهرة الحذف وجهها من الوجوه التي تسهم في تماسك النص القرآني وتناسب نظمه وانسجامه.

2- الزيادة:

الزيادة هي الأسلوب المقابل للحذف، وأكثر نماذج الزيادة التي وردت في القرآن الكريم تتعلّق بحروف المعاني، أما المواضع التي زيدت فيها الكلمات أو الجمل وأشباهاها فهي أقل وروداً إذا ما قورنت بزيادة بالحروف، ويعدّ التوكيد هو الغرض العام لزيادة الحروف، أمّا زيادة الألفاظ فيختلف غرضها من موضع إلى آخر بحسب السياق الذي وردت فيه.

ومن المواطن التي أشار فيها ابن عاشور إلى هذه الزيادة وارتباطها بالسياق، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: 43]، حيث زيد لفظ (سنا) في تركيبها "لأنّ هذه الآية واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال الغيث، فكان المقام مقتضياً للتنويه بهذا البرق وشدة ضيائه حتى يكون الاعتبار بأمرين: بتكوين البرق في السحاب، وبقوّة ضيائه حتى يكاد يذهب بالأبصار."⁵¹

فلما كان الغرض الذي سبقت له الآيات هو بيان القدرة الإلهية في سياق ذكر مراحل تكون السحاب الركامي وما يصاحبه من إزجاء وتآليف وركم وإنزال للغيث وحدوث ظاهرة البرق وغير ذلك، لما كان هذا هو الغرض اقتضى ذكر لفظ (سنا) لزيادة بيان لطيف القدرة الإلهية ودقيقها وأن سنا البرق له أثر على العين، فدلّت زيادة هذا اللفظ على زيادة تقرير المعنى المقصود والغرض المنشود، وحصل بذلك التناسب السياقي الذي التأمّت به عناصر النظم، وهذا بخلاف ما في سورة البقرة التي وردت "في مقام التهديد والتشويه

⁵¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 260/18

لحالهم حين كانوا مظهرين الإسلام ومنطوين على الكفر والجحود، فكانت حالهم كحالة الغيث المشتمل على صواعق ورعد وبرق، فظاھره منفعة وفي باطنه قوارع ومصائب.⁵² فحين انتفى داع يستدعي زيادة لفظ (سنا) في النظم حذفت.

ومن نماذج زيادة الكلمات، ما جاء في سورة الحديد من زيادة الموصول (ما)، قال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 01]، فقد علّل ابن عاشور زيادة (ما) استناداً إلى ما اقتضاه سياق الآية، حيث ذكر إنها "سيقت للتذكير بتمّة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية، وهي خذلان بني النضير، فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاصّ بهم، وهو (ما) الموصولة الثانية التي صلتها (في الأرض)، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن.⁵³ فوجه زيادة اسم الموصول (ما) في هذه الآية وفي مثيلاتها أنّها وردت في سياق الكلام عن أهل الأرض، فناسب ذلك تخصيصهم باسم موصول.

فبعد آية الحشر السابقة جاء قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: 02]، وهذا الكلام عن أهل الأرض، وأما في سورة الصف فقال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 1، 2]، فكان تعقيب الآية الأولى التي كرّر فيها اسم الموصول (ما) بالكلام عن أهل الأرض.

وفي سورة الجمعة قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

⁵² المرجع نفسه، 260/18

⁵³ المرجع نفسه، 64/28

الْعَظِيمِ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿[الجمعة: 1-5]﴾، فعقب

آية التسييح المتضمنة لاسم الموصول المكرر بكلام عن أهل الأرض وهم أهل الكتاب.

وفي سورة التغابن تحدث الله تعالى عن أهل الأرض بعد أن أخبر بأنه هو الخالق المصور للبشر والعالم بأسرار قلوبهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 5-7].

ويقابل ابن عاشور زيادة اسم الموصول (ما) في الآيات السابقة بحذفه في آية الحديد في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: 01]، مستندا في حذفه كذلك إلى ما اقتضاه سياقها فذكر أن "فاتحة سورة الحديد تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض، فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات، فجمع ذلك كله في اسم واحد هو (ما) الموصولة التي صلتها قوله: (فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)".⁵⁴

وقد يكون اللفظ الزائد في سياق الآية ضميرا منفصلا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: 18، 19]، حيث زيد الضمير (هم) في قوله (هم كافرون) الذي يوهم حذفه بقاء النظم ملتثما ومحيى المعنى تاما.

قال ابن عاشور: "واختصت هذه الآية على نظيرتها في الأعراف بزيادة (هم) في قوله: (هم كافرون)، وهو تأكيد يفيد تقوي الحكم، لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم

⁵⁴ المرجع نفسه، 64/28

البعث وتقريره إشعاراً بما يترقبهم من العقاب المناسب، فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا.⁵⁵ فإعادة الضمير تأكيد لتعيينهم وإثبات غاية الفساد لبواطنهم واختصاصهم بمزيد الكفر.⁵⁶

ويمكن أن نلاحظ أن هذا المعنى لا يحصل أو لا يتحقق مع حذف الضمير المنفصل (هم).

ومن النماذج التي ساقها ابن عاشور في باب الزيادة مبيّنا تناسبها والسياق الذي وردت فيه، ومعللاً ذلك بمقتضاه، زيادة الجار والمجرور (من عباده) في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:39].

حيث ذكر أن الخطاب لما كان موجّهاً في هذه الآية إلى المؤمنين أشير إلى تشریفهم بزيادة قوله: (من عباده) أي المؤمنين.⁵⁷

وذكر الرازي أن هذه الآية "إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناء على الوعد...والذي يدلّ عليه أن الله تعالى لم يذكر أولاً لمن يشاء من عباده، بل قال: (لمن يشاء)، وثانياً: (لمن يشاء من عباده)، والعباد المضافة يراد بها المؤمن.⁵⁸

والآية المقصودة بعدم ذكر لفظ (من عباده) هي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:36]، فهذه الآية تشير إلى "أن الرزق في الدنيا لا تدلّ سعته وضيقه على حال الحقّ والمبطل، فكم من موسر شقي ومعسر

¹ المرجع نفسه، 32/12

² ينظر: البقاعي، نظم الدرر، 141/4

³ ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 219/22

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب 270/25

تقي...أي أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح.¹

فلو زيد (من عباده) في هذه الآية وحذف من الآية الأخرى لذهب المعنى الخاص الذي أريد إبلاغه في كل منها، وفي هذا دلالة على دقة النظم القرآني وخصوصية أسلوبه.

ومثل ذلك زيادة الجارّ والمجرور (منهم) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَرِزِقُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 161، 162].

فوجه زيادة (منهم) هنا هو التصريح بأن تبديل القول لم يصدر من جميع الذين ظلموا، أما في سورة البقرة، فقد وردت الآية الشبيهة بها من دون (منهم)، وذلك لأنها في سياق توبيخهم الذي ناسب إرهابهم بما يوهم أن من فعلوا ذلك هم جميع القوم، ولأن تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها.²

وذكر الرازي في تفسيره أن "سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة ههنا مبني على التخصيص بلفظ (من)، لأنه تعالى قال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، فذكر أن منهم من يفعل ذلك، ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم، فلما انتهت القصة قال الله تعالى: (فبدّل الذين ظلموا منهم) فذكر لفظه (منهم) في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله، فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم، فهناك ذكر أمة عادلة وههنا

¹ الرازي، مفاتيح الغيب 270/25

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 144/9

ذكر أمّة جائزة، وكتلتهما من قوم موسى، فهذا هو السبب في ذكر هذه الكلمة في سورة الأعراف¹

ويّضح مما سبق أن كل سياق يناسبه أسلوب معين؛ فلمّا تضمّنت سورة الأعراف القرائن المذكورة ناسب ذلك زيادة (منهم) في الآية فحصل التناسب والتلاؤم بين المعنى والسياق جميعاً.

إن النماذج السابقة لحي بعض من التراكيب القرآنية التي تضمّنت زيادة لبعض الألفاظ، وقد علّلها ابن عاشور في العموم انطلاقاً من سياقها الذي وردت فيه، بما يبرز أوجه التناسب بين عناصره.

أما الزيادة التي تتعلق بالحروف فغرضها العام هو التوكيد، ولكنها من جهة أخرى تشتمل على غايات نظمية يقتضيها السياق بما يجعل التناسب قائماً بينه وبين المبنى والمعنى المراد.

وحروف المعاني الزائدة إما أن تكون حروف عطف أو حروف جرّ أو نفي أو غيرها. فمن أمثلة الزيادة في حروف العطف ما ذكره ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: 6]، حيث قال: "هذه الآية عطفت فيها جملة (ويذبحون) على جملة (يسومونكم)، وفي آية البقرة والأعراف جعلت جملة (يذبحون) وجملة (يقتلون) بدون عطف على أنّها بدل اشتمال من جهة (يسومونكم سوء العذاب)، فكان مضمون جملة (ويذبحون) هنا مقصوداً بالعدوّ، كأنه صنف آخر غير سوء العذاب اهتماماً بشأنه، فعطفه

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 94/3

من عطف الخاص على العام، وعلى كلا النظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذكر.¹

فزيادة الواو في آية إبراهيم إنما جاءت لبيان أن التذبيح جنس آخر من العذاب الذي لاقاه قوم موسى وليس تفسيراً وتوضيحاً له كما يفهم ذلك من آية البقرة التي قيل فيها: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 49]، أي: يسومونكم سوء العذاب مذبحين أبناءكم...²

وهناك اعتبار سياقي آخر هو أن "الله تعالى أوجز في عدد النعم، فكان الحذف للإيجاز في سورة البقرة، وفي سورة إبراهيم عدّدت نعم الله على بني إسرائيل، فلما كثر التعداد أطال الفعل بزيادة الواو، [كما أن] آية البقرة من كلام الله تعالى فأوجز، أما آية إبراهيم فهي من كلام سيدنا موسى عليه السلام في تعداد ما أصابهم من محن ونعم الله عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5]، فأضاف وأطال فناسبها ذكر الواو في هذا الموضع وحذفها في آية البقرة.³

فزيادة الواو إذن وسيلة حققت تناسبا سياقيا في الآية برز من خلال ذلك التطابق بين المعنى الذي أفادته الزيادة وخصوصية السياق الذي وردت فيه.

ومن المواضع التي زيد فيها حرف العطف مراعاة لما يقتضيه السياق قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: 5]، قال ابن

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 191/13

² أحمد محمد أمين اسماعيل، الإعجاز البلاغي لتحولات النظم في التشابه من الألفاظ والتراكيب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001، ص278،

³ المرجع نفسه، ص278

عاشور في تحليل زيادة الواو هنا، "وعطفتم جملة (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) على جملة (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ) لأن ذلك التسخير مناسب لتكوين الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوين من آثار ذلك التسخير، فتلك المناسبة اقتضت عطف الجملة التي تضمنته على الجملة التي قبلها.¹

وقريب مما سبق زيادة الواو للوصل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:6]، لأن المقام اقتضى ذلك، فإنه "لما اقتضى المقام جمع النظائر من المزاوجات بعد ذكر الشمس والقمر، كان ذلك مقتضيا سلوك طريقة الوصل بالعطف بجامع التضاد." ² فهذه الزيادة اقتضاها مبدأ التناسب بين التركيب والسياق العام الذي تضمن ذكر الثنائيات المتضادة معطوفا بعضها على بعض.

ومن المواضع التي وردت فيها زيادة حرف الجر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:23]، حيث زيد حرف الجر (من) في قوله: (من أساور)، ووجهه أنه لما لم يعهد تحلية الرجال بالأساور كان الخبر عنهم بأنهم يحلون أساور معرضا للتردد في إرادة الحقيقة، فجيء بالمؤكد لإفادة المعنى الحقيقي.³

فهذه الآية خصت بزيادة الحرف (من) للتوكيد، وقد ربط ابن عاشور هذا الغرض بما يمكن إدراجه ضمن السياق الاجتماعي؛ حيث إن المعهود في الدنيا أن الرجال لا يرتدون الذهب، فلما كان المقام مقام تعداد لما يلقاه المؤمنون في جنة النعيم ناسب ذلك أن يأتي السياق مؤكدا لما يلقاه المؤمنون من ذلك، وأن ما كان محرما عليهم في الدنيا هو مباح لهم في دار الجزاء، وهذا من بديع التناسب والائتلاف النظمي.

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 328/23

² المرجع نفسه، 261/21

³ المرجع نفسه، 217/17

ومما سبق يتبين لنا أن الحذف والزيادة من مظاهر التناسب السياقي في القرآن الكريم، وهذا التناسب قد يكون ظاهرا، وقد يحتاج إلى تأويل لبيانه.

وهكذا يمكن القول إن التركيب في النظم القرآني يطابق مبناه ما يقتضيه سياقه، وتبعا لذلك يتغير مبنى التركيب من حيث ترتيب عناصره تقدما وتأخيرا، ومن حيث حضور بعض العناصر أو غيابها، وقد تجلت هذه الحقيقة في تفسير ابن عاشور الذي لم يكد يمر على ظاهرة من الظواهر التركيبية اللافتة للنظر إلا ووقف عندها بالتفسير والتحليل والمقارنة والتعليل.

الفصل الخامس

التناسب النصي

ذكرنا في الفصل النظري المتعلق بالتناسب النصي أن علم المناسبة هو العلم الذي تتجلى فيه دراسة النص القرآني من حيث البحث عن أسرار الترابط بين أجزائه، وذكرنا أن أوجه هذه المناسبة لا تكاد تخرج عن المناسبة بين الآيات، والمناسبة بين السور، والمناسبة بين الآيات والسور.

وسنحاول في هذا الفصل الكشف عن أهم مباحث التناسب النصي التي أشار إليها ابن عاشور في تفسيره بدءاً بالتناسب الموضوعي في نظم المعاني وما يتضمنه من تناسب القصص، وتناسب السؤال والجواب، والتناسب بالتقابل أو التناظر، ثم بيان أهم العلاقات بين أجزاء النص التي تبرز مبدأ التناسب، وكيفية ترتيب هذه الأجزاء وأوجه تماسكها، وانتهاءً بتناسب السور وما يتعلق به.

أولاً: التناسب الموضوعي

1 - التناسب بالتوافق

نقصد بالتناسب الموضوعي ما يكون فيه التناسب بين الموضوعات المتحدّث عنها، حيث ترتبط الموضوعات المتوالية بوجه من أوجه الارتباط المختلفة.

ومن أمثلة التناسب الموضوعي في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 181، 182]، فقد ذكر ابن عاشور أن موضوع هذه الآية مناسب لموضوع ما قبلها، فقال: "استئناف جملة (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) لمناسبة ذكر البخل، لأنهم قالوه في معرض دفع الترغيب في الصدقات، والذين قالوا ذلك هم اليهود كما هو صريح آخر الآية في قوله: (وقتلهم الأنبياء بغير حق)، وقائل ذلك قيل هو حبي بن أخطب اليهودي، حبر اليهود، لما سمع قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245] فقال حبي: إنما يستقرض الفقير الغني، وقيل: قاله فنحاص

بن عازوراء لأبي بكر الصديق بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر إلى يهود قينقاع يدعوهم، فأتى بيت المدراس فوجد جماعة منهم قد اجتمعوا على فنحاص حبرهم، فدعاه أبو بكر، فقال فنحاص: ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنيا لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر ولطم فنحاص وهم بقتله فترلت الآية.¹

وموضوع البخل ذكر في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180].

فموقع الآية متصل من حيث الموضوع بالآية السابقة حيث يظهر التناسب جلياً في تواليهما وترابطهما.

ومن ذلك أيضاً التناسب الحاصل من اجتماع موضوع خلق الماء وموضوع خلق النار؛ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمُ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة: 68-72]

وفي سياق تبيان ابن عاشور لسر ارتباط موضوع خلق الماء بموضوع خلق النار في هذه الآيات يركز على طرق الربط وكيفية ائتلاف المختلف وانتظامه في سلك واحد بما يحقق التناسب، فيقول: "ومناسبة الانتقال من الاستدلال بخلق الماء إلى الاستدلال بخلق النار هي ما تقدم في مناسبة الانتقال إلى خلق الماء من الاستدلال بخلق الزرع والشجر؛ فإن النار تخرج من الشجر بالاقتداح، وتذكي بالشجر في الاشتعال والالتهاب، وهذا استدلال على

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 183/4

تقريب كيفية الإحياء للبعث من حيث إن الاقتداح إخراج، والزند الذي به إيقاد النار يخرج من أعواد الاقتداح وهي مَيِّتة.²

وقد بيّن ابن عاشور وجه التناسب بين هذين الاستدلالتين فقال: "وجه الاستدلال بإنشاء ما به الحياة بعد أن كان معدوماً بأن كونه الله في السحاب بحكمة تكوين الماء، فكما استدلل بإيجاد الحي من أجزاء مَيِّتة في خلق الإنسان والنبات استدلل بإيجاد ما به الحياة عن عدم، تقريباً لإعادة الأجسام بحكمة دقيقة خفية".³ فهذا الاستدلال هو الذي أبرز وجه المناسبة بين الموضوعين وأكد اتساق الخطاب ضمن سياقه. وتلاحم أجزائه وعناصره. ومن أهم مظاهر التناسب الموضوعي ما يتعلّق بالتناسب القصصي أو توالي القصّتين لتناسبهما، ومن نماذج ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: 17]، حيث ذكر ابن عاشور أن الانتقال من خبر نوح إلى خبر إبراهيم إنما هو لمناسبة إنجاء إبراهيم من النار كإنجاء نوح من الماء، وفي ذلك تنبيه إلى عظم القدرة إذ أنجحت من الماء ومن النار.⁴ فإنّه "لَمَّا كان السياق للبلاء والامتحان والصبر على الهوان، وإثبات علم الله وقدرته على إنجاء الطائع وتعذيب العاصي، ذكر من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام من طال صبره على البلاء، ولم يفتر عزمه عن نصيحة العباد على ما يعاملونه به من الأذى... ولما كان بلاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام عظيماً في قذفه في النار وإخراجه من بلاده أتبعه به فقال: (وإبراهيم) أي: ولقد أرسلنا إبراهيم".⁵

² المرجع نفسه، 325/27

³ المرجع نفسه، 323/27

⁴ المرجع نفسه، 224/20

⁵ البقاعي، نظم الدرر، 233/6

فمع هذا العرض الموجز لطرف من قصة نوح وقصة إبراهيم -عليهما السلام- يتّضح ما بين كل قصة وسياقها من التناسب.

ولا شك أنّ هذا التشاكل ليس أمراً مقصوراً على هاتين القصّتين بل هو قاعدة تعمّ سائر القصص القرآني، ففي سورة الأنبياء أعقبت قصّة إبراهيم بقصّة لوط لمناسبة بينهما، قال تعالى في قصة إبراهيم (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) [الأنبياء: 51] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: 70]، ثم أتبعها بقوله في قصة لوط عليه السلام: ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 74، 75].

فلقد "خُصّ" لوط بالذكر من الرسل لأن أحواله تابعة لأحوال إبراهيم في مقاومة أهل الشرك والفساد، وإنما لم يذكر ما هم عليه قوم لوط من الشرك استغناء بذكر الفواحش الفظيعة التي كانت لهم سنّة، فإنها أثر من الشرك"⁶، ولأنّ لوط وإبراهيم -عليهما السلام- كانا متزامنين.

وفي سورة المائدة ذكرت قصّة ابني آدم بعد قصة بني إسرائيل حين عصوا أمر رسولهم بالدخول إلى الأرض المقدّسة، فقال تعالى على لسان موسى عليه السلام (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) [المائدة: 21] إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [الأنبياء: 24]. ثم اتبع ذلك بقوله في قصة ابني آدم ﴿وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ

⁶ ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 111/17

بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿[المائدة: 27-30]﴾.

قال ابن عاشور: "والمناسبة بينها وبين القصة التي قبلها مناسبة تماثل ومناسبة تضاد، فأما التماثل فإن في كليتهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى؛ فإن بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين، وفي كليتهما جرأة على الله بعد المعصية، فبنو إسرائيل قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: 24] وابن آدم قال: (لأقتلن الذي تقبل الله منه). وأما التضاد فإن في إحداهما إقداما مذموما من ابن آدم، وإحجاما مذموما من بني إسرائيل، وإن في إحداهما اتفاق أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى، وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد.⁷

فنظم المعاني - كما رأينا - في توالي قصتين يرتكز على وجود تناسب معنوي بينهما، بحيث تأتي هذه المعاني منتظمة في السياق متألّفة ومتناسقة.

وقد يكون ذكر القصتين متتاليتين لوجود تناسب مكاني كـ "الانتقال من ذكر مُلْك سليمان وقصة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جوار البلاد؛ لأن ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان، وكانت في طريق السائر من سبأ إلى فلسطين.⁸

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: 15]، وتلاه بواحد وأربعين آية في قصة سليمان ثم أعقبها بقصة ثمود ورسولهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: 45].

⁷ المرجع نفسه، 168/6

⁸ المرجع نفسه، 277/19

وكذلك كان الاختصار على قصة قوم لوط في سورة النمل دون قصة عاد وقصة مدين مناسبة مجاورة ديار قوم لوط لمملكة سليمان ووقوعها بين ديار ثمود وبين فلسطين، وكانت ديارهم ممر قريش إلى بلاد الشام،⁹ قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: 54].

ويتّضح مما سبق أن القصص القرآني ينتظمه سلك واحد، هو سلك التناسب والتلاؤم الذي يفسّره سرّ الترتيب بين القصة والقصة، وقد يكون هذا التناسب معنويا أو مكانيا أو زمانيا.

ومن نماذج التناسب الموضوعي مناسبة الجواب للسؤال أو لمقتضى السؤال، ففي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينِ وَالْآقَرِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215].

قال الرازي: "حصل في الآية ما يكون جوابا عن السؤال، وضم إليه زيادة يكمل بها ذلك المقصود، وذلك لأن قوله: (ما انفقتم من خير) جواب عن السؤال، ثم إن ذلك الإنفاق لا يكمل إلا إذا كان مصروفا إلى جهة الاستحقاق، فلهذا لمّا ذكر الله تعالى الجواب أردفه بذكر المصرف تكميلا لليان... وأن المقصود السؤال عن الكيفية، لأنهم كانوا عالمين أن الذي أمروا به إنفاق مال يخرج قرينة إلى الله تعالى، وإذا كان هذا معلوما لم ينصرف الوهم إلى ذلك المال أي شيء هو؟ وإذا خرج هذا عن أن يكون مرادا، تعيّن أن المطلوب بالسؤال أن مصرفه أي شيء هو؟ وحينئذ يكون الجواب مطابقا للسؤال.¹⁰

ويتفق كلام ابن عاشور في هذه الآية مع كلام الرازي السابق حيث يقول ابن عاشور: "لا يعقل أن يسألوا عن المال المنفق بمعنى السؤال عن النوع الذي ينفق من ذهب أم من ورق أم من طعام، لأن هذا لا تتعلّق بالسؤال عنه أغراض العقلاء، إذ هم يعلمون أن

⁹ المرجع نفسه، 287/19

¹⁰ الرازي، مفاتيح الغيب، 51/6

المقصد من الإنفاق إيصال النفع للمنفق عليه، فيتعيّن أن السؤال عن كيفية الإنفاق ومواقفه.¹¹

وبهذا تطابق الجواب والسؤال تطابقاً تحقّق به الانسجام والاتساق بين عناصر الخطاب. ونظير هذه المطابقة بين السؤال وجوابه قوله تعالى: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) [البقرة: 70، 71].

فمن المعلوم أن البقرة هي البهيمة التي لها صفات معيّنة، ولذلك لا يمكن أن يحمل السؤال في قوله تعالى: (مَا هِيَ) على طلب الماهية، بل إن المراد منه طلب الصفة التي بها تتميز تلك البقرة عن غيرها.¹²

وبذلك تتعيّن المطابقة بين السؤال وجوابه التي هي سر من أسرار التناسب في هذه الآية.

وقد يوافق الجواب مقتضى السؤال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَىٰ يَؤُفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4]

قال ابن عاشور: "وجملة (كأنهم خشب مسندة) مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤال ينشأ عن وصف حسن أجسامهم وذلاقة كلامهم، فإنه في صورة مدح، فلا يناسب ما قبله من ذمهم، فيترقّب السامع ما يرد بعد هذا الوصف.¹³

¹¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 351/2

¹² ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 51/6

¹³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 238/28

ويستنتج من هذا أن المطابقة بين الجواب ومقتضى السؤال قد تحقّقها علاقة خفية تربط بينهما وتحصّل من خلال السياق، أو يقدر لتحققها سؤال ضمني حتى يظهر الالتزام والتلاحم بين أجزاء الخطاب.

2 - التناسب بالتقابل

التقابل في الأجسام والأشياء من أوضح مظاهر التناسب، وهو في القرآن الكريم أسلوب من أبرز أساليب نظم المعاني، ومظهر جليّ من مظاهر تناسق آياته ومعانيه. وقد جاءت نماذج قرآنية كثيرة على أسلوب التقابل، حيث "يكثّر مجيئه في مقامات الترغيب والترهيب والوعد الوعيد، وفي عرض مشاهد القيامة، وفي رسم الصور البيانية وتركيب الأمثال، وذكر صفات المؤمنين والكافرين وأحوال النفس البشرية".¹⁴ وما يتّصل بهذا الأسلوب من النماذج القرآنية التي ذكرها ابن عاشور مبينا وجه التناسب فيها ما جاء من مقابلة وعيد الفجار بوعد الأبرار في سورة المطففين في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 18-21].

فـ "هذه الجملة بحذافيرها تشبه جملة ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ [المطففين: 7] الخ، أسلوبا ومقابلة، فالوجه أن يكون مضمونها قسيما لمضمون شبيهها فتحصل مقابلة وعيد الفجار بوعد الأبرار، ومن عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير والعكس، لأن الناس راهب وراغب، فالتعرّض لنعيم الأبرار إدماج اقتضته المناسبة، وإن كان المقام من أوّل السورة مقام إنذار".¹⁵

¹⁴ أحمد أبوزيد، التناسب البياني، ص 137

¹⁵ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 230/30

فہاتان صورتان متقابلتان من حیث المضمون الإجمالي لأهل النعيم وأهل العذاب، على أن عرض الصورة الأولى قصير، بينما هو طويل في الصورة الأخرى، وهذا مراعاة لما يناسب السياق ومقصود السورة وروحها وهدفها.

وقريب من ذلك ما جاء من مقابلة ثواب الأبرار بعقاب الفجار في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 128].

فإنه "لما ذكر القوم الذين يتذكرون بالآيات، وهو ثواب دار السلام، ناسب أن يعطف عليه ذكر جزاء الذين لا يتذكرون، وهو جزاء الآخرة أيضا، فجملة: (ويوم نحشرهم) إلخ معطوفة على جملة ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ [الأنعام 127]"¹⁶.

ومن هذا القبيل أيضا مقابلة صفة الكافرين بصفة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: 30-31].

قال ابن عاشور: "لما افتتحت سيئات الكافرين وعواقبها بأنهم إذا قيل لهم: (ماذا أنزل ربكم) قالوا: (أساطير الأولين)، جاءت هنا مقابلة حالهم بحال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها، فافتتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قصة الكافرين، فجاء التنظير بين القصتين في أبدع نظم."¹⁷

¹⁶ المرجع نفسه، 65/8

¹⁷ المرجع نفسه، 141/14

فهذا المشهد يتألف من صورتين متقابلتين، صورة أهل الكفر وصورة أهل الإيمان، وفي كلٍّ يصرف الكلام بما يناسب الصورة مراعاة للسياق وما يوافق روح السورة وجوّها الخاص.

ومن نماذج التقابل التي أشار إليها ابن عاشور بعيدا عن مشاهد القيامة وصفات المؤمنين والكافرين، ذلك التقابل الذي تضمّنته سورة الشعراء في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَذِرُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 83-89].

ف — "قد قابل إبراهيم في دعائه النعم الخمس التي أنعم الله بها عليه، المذكورة في قوله: ﴿الذي خلقتني فهو يهدين﴾ إلى قوله ﴿يوم الدين﴾ [الشعراء: 78-82]، الراجعة إلى مواهب حسية بسؤال خمس نعم راجعة إلى الكمال النفساني كما أوماً إليه قوله: (إلا من أتى الله بقلب سليم) وأقحم بين طلباته سؤاله المغفرة لأبيه، لأن ذلك داخل في قوله: (ولا تخزني يوم يبعثون)".¹⁸

يتّضح من خلال الأمثلة السابقة أن التقابل يقع في القرآن الكريم بالجمع بين المعاني المتناسبة التي تكون النسبة الرابطة بينها إما نسبة مخالفة كما هي الحال في أمثلة التقابل التي تضمّنتها آيات العذاب والنعيم، وإما نسبة موافقة كما هي الحال في المثال الأخير، ولا شك أن التقابل في القرآن الكريم يزيد الكلام وضوحا ويعزّز تلاؤم معانيه وتناسب أجزائه.

ثانيا: العلاقات النصّية

العلاقة بين أجزاء الخطاب من آليات التماسك والترابط فيه، لأنها تشكّل نوعا من التناسب فيما بينها يضمن ائتلافها واتساقها وتلاحمها.

¹⁸ المرجع نفسه، 144/19

ومن بين أنواع العلاقات التي أشار إليها ابن عاشور في تفسيره مبيّنا أثرها في ربط أجزاء النص وتناسبها، نجد التعليل والتذييل والاستدلال والبيان.

1 - التعليل

أشار ابن عاشور إلى هذه العلاقة في مواضع كثيرة من تفسيره، وبيّن أهميتها في عملية الربط بين الجمل وتوضيح معنى الآيات، ومن أمثلته على ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257].

حيث وضّح ابن عاشور علاقة التعليل قائلا: "وقع قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ موقع التعليل لقوله: ﴿لَا انفصام لها﴾ [البقرة: 256]، لأن الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله قد تولّوا الله فصار وليّهم، فهو يقدر لهم ما فيه نفعهم وهو ذبُّ الشبهات عنهم، فبذلك يستمرّ تمسّكهم بالعروة الوثقى ويأمنون انفصامها، أي فإذا اختار أحد أن يكون مسلما فإن الله يزيده هدى".¹⁹

وبهذا التعليل اتضح ارتباط الآيتين وتعالقهما.

وورد مثيل هذا التعليل في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 96-97].

فإنّ "هذا الكلام واقع موقع التعليل للأمر في قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]، لأن هذا البيت المنوّه بشأنه كان مقاما لإبراهيم... وقد كان آذن بكون الكلام تعليلا موقع (إن) في أوله؛ فإن التأكيد بـ (إن) هنا لمجرّد الاهتمام وليس لردّ إنكار منكر أو شكّ شاكّ، ومن خصائص (إن) إذا وردت في الكلام لمجرّد الاهتمام، أن تُعني غناء فاء التفريع وتفيد التعليل والربط... ولمّا في هذه من إفادة الربط

¹⁹ المرجع نفسه، 30/3

استغني عن العطف لكون (إِنَّ) مؤذنة بالربط، وبيان وجه التعليل أن هذا البيت لما كان أوّل بيت وضع للهدى وإعلان توحيد الله ليكون علما مشهودا بالحسّ على معنى الوجدانية ونفي الإشراك، فقد كان جامعا لدلائل الحنيفية؛ فإذا ثبت له شرف الأولوية ودوام الحرمة على ممرّ العصور دون غيره من الهياكل الدينية التي نشأت بعده وهو ماثل، كان ذلك دلالة إلهية على أنه بمحلّ العناية من الله تعالى، فدلّ على أن الدين الذي قارن إقامته هو الدين المراد لله، وهذا يؤول إلى معنى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [عمران: 19].²⁰

وليست علاقة التعليل رابطة فيما بين الآيات السابقة واللاحقة فحسب، وإنما يكثر التعليل أيضا في الآية الواحدة بما يشير إلى ترابط عناصرها، وكثيرا ما يرد ذلك في آخر الآيات لتوضيح وتعليل ما ورد ضمنها، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79].

قال ابن عاشور: "موقع هذه الجملة موقع التعليل والتدليل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وعلى لطفه بال مخلوقات، فإنه لما ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار نبّه الناس إلى لطف يشاهدونه أجلى مشاهدة لأضعف الحيوان، بأنّ تسخير الجوّ للطير وخلقها صالحة لأن ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنيّاتها، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها، فجعل الله سرعة الانتقال مع الابتعاد عن تناول ما يعدو عليها من البشر والدواب، فلأجل هذا الموقع لم تعطف الجملة على التي قبلها لأنها ليس في مضمونها نعمة على البشر، ولكنها آية على قدرة الله تعالى وعلمه... ولذلك المعنى عَقِبَتْ هذه وحدها بجملة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)."²¹

²⁰ المرجع نفسه، 11/4

²¹ المرجع نفسه، 234/14

وإن كان وجه التعليل في الآيات السابقة بوصفه رابطاً بين أجزائها يدرك ضمناً، فإنه قد يحصل بوضوح بواسطة مجموعة من الحروف، كالذي تحقق باللام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 163-164].

فجملة (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) معللة لجملة (مبشرين ومنذرين).

وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، فهذه الجملة (لتكونوا شهداء) علة لجعلهم وسطاً.²²

ومنه التعليل الذي يتحقق بحرف الفاء كالذي في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 80]، يقول ابن عاشور: "وقوله: (فلن يخلف الله عهده) الفاء فصيحة دالة على شرط مقدّر وجزائه، وما بعد الفاء هو علة الجزاء. والتقدير: فإن كان ذلك فلكم العذر في قولكم لأن الله لا يخلف عهده."²³

ونلاحظ مما سبق أن علاقة التعليل تسهم بشكل واضح في جعل أجزاء النص متناسبة تربط فيها الآيات السابقة بالآيات اللاحقة، أو تربط أجزاء الآية الواحدة بعضها ببعض، فيتضح بذلك معنى الآيات ويتأكد.

2 - التذييل

²² المرجع نفسه، 14/2

²³ المرجع نفسه، 579/1

هو نوع من التأكيد، حيث تعقب جملة جملة أخرى تدخل معها في علاقة ما، سواء بإعادة ألفاظ الجملة نفسها أو بغير ذلك، قال السيوطي في تعريف التذييل: "هو أن يؤتى بجملة عقب جملة، والثانية تشتمل على المعنى الأول لتأكيد منطوقه أو مفهومه ليظهر المعنى لمن لم يفهمه ويتقرر عند من فهمه."²⁴

وعلى هذا فإن للتذييل أهمية لا تنكر في تماسك أجزاء النص وتناسبها.

ومن الأمثلة التي ساقها ابن عاشور عن التذييل، ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

فقوله: (والفتنة أكبر من القتل) تذييل مسوق مساق التعليل لقوله: (وإخراج أهله منه)، وإذ قد كان إخراج أهل الحرم منه أكبر من القتل، كان ما ذكر قبله من الصد عن الدين والكفر بالله والصد عن المسجد الحرام أكبر بدلالة الفحوى، لأن تلك أعظم جرما من جريمة إخراج المسلمين من مكة.²⁵

والتذييل كما رأينا قد وقع في صدر الآية، فالكلام تم من دون جملة (والفتنة أكبر من القتل)، ولكنه أتي بها تحقيقا لمفهوم جملة، (وإخراج أهله منه)، وهو ما زاد في ربط أجزاء الآية وتأكيد معناها.

ومن أمثلة وقوع التذييل في صدر الآية قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 211].

²⁴ السيوطي، الإتقان، ص 626

²⁵ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 323/2

فإنَّ "قوله: (ومن يبدل نعمة الله) تذييل لجملة: (سل بني إسرائيل كم آتيناهم) أفاد أن المقصود أولاً من هذا الوعيد هم بنو إسرائيل المتحدّث عنهم بقوله: (سل بني إسرائيل)، وأفاد أن بني إسرائيل قد بدّلوا نعمة الله تعالى، فدلّ ذلك على أن الآيات التي أوتيها بنو إسرائيل هي نعم عليهم، وإلا لما كان لتذييل خبرهم بحكم من يبدّل نعم الله مناسبة، وهذا مما يقصده البلغاء.²⁶

فالمعنى الأول وهو الإنعام على بني إسرائيل قد ظهر وتم في الجملة الأولى ثم جاء التذييل بما يناسب هذا المعنى ويجعل أجزاء الآية مترابطة متّسقة.

ومن الآيات القرآنية التي ورد التذييل في أواخرها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75].

قال ابن عاشور: "وقوله: (إن الله بكل شيء عليم) تذييل مؤذن بالتعليل، لتقرير أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض فيما فيه اعتداد بالولاية، أي إنما اعتبرت تلك الأولوية في الولاية لأن الله قد علم أن لآصرة الرحم حقاً في الولاية هو ثابت ما لم يمانعه مانع في الشرع؛ لأن الله بكل شيء عليم، وهذا الحكم مما علم الله أن إثباته رفق ورأفة بالأمة.²⁷

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا قُرْآنًا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31].

²⁶ المرجع نفسه،، 288/2

²⁷ المرجع نفسه، 89/10

قال ابن عاشور: "وجملة: (إن الله لا يخلف الميعاد) تذييل للجملة (حتى يأتي وعد الله) إيدانا بأن إتيان الوعد المعيا به محقق وأن الغاية به غاية بأمر قريب الوقوع.²⁸

فهو تذييل مؤكّد لمضمون ما قبله من كون الكافرين منكّرين ليوم البعث والحساب.

3 - الاستدلال

يسوق القرآن الكريم أدلّته من أجل إثبات قضايا مجهولة انطلاقاً من قضايا معلومة مع مراعاة القواعد السليمة التي تجعل هذا الانتقال منطقياً. وبناء الخطاب على أساس الانتقال من المقدمات إلى النتائج هو مظهر من مظاهر تماسكه وتناسب أجزائه.

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن عاشور للاستدلال في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67].

فهذه الآية "نتيجة للاستدلال؛ إذ قد تحصّص من الحجّة الماضية أن اليهودية والنصرانية غير الحنيفية، وأن موسى وعيسى عليهما السلام، لم يخبرا بأنهما على الحنيفية، فأتت أن إبراهيم لم يكن على حال اليهودية أو النصرانية، إذ لم يؤثر ذلك عن موسى ولا عيسى عليها السلام، فهذا سنده خلوّ كتبهم عن إدعاء ذلك.²⁹

فهذه الآية تضمّنت نتيجة تردّ على زعم الكفار من نسبة اليهودية والنصرانية لإبراهيم قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141]، فاليهودية والنصرانية ديانتان نزلتا بعد إبراهيم عليه السلام.

²⁸ المرجع نفسه، 142/13

²⁹ المرجع نفسه، 274/3

فزعم هؤلاء الكفار ورد في غير سورة الرعد، أما ردّ هذا الزعم فقد ورد في سورة الرعد، وعلاقة الاستدلال هي التي تجمعهما وتؤلف بين عناصرهما.

ومن نماذج الاستدلال ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: 85-86]، قال ابن عاشور: "موقع جملة (وإن الساعة لآتية) في الكلام يجعلها بمنزلة نتيجة الاستدلال؛ فمن عرف أن جميع المخلوقات خلقت خلقا ملابسا للحق وأيقن به، علم أن الحق لا يتخلف عن مستحقّه ولو غاب وتأخّر." ³⁰

فجملة (إن الساعة لآتية) وضّحت جملة (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) من طريق الاستدلال، فما خلق الله الخلق إلا بالحق، وما هو بباعثهم ومجازيهم على أعمالهم إلا بالحق الذي هو آت لا ريب فيه. ³¹

وقد زاد في توضيح هذا الاستدلال وتوكيده حرف التوكيد الذي هو (إن) ولام التوكيد المرحقة، وهذا من بديع النظم وبلاغة التناسب والربط وبراعته.

ومن بدائع الأمثلة التي تتضمن الاستدلال الذي ينتقل بالذهن من قضية إلى نتيجة ما، تلك الآيات القرآنية التي تقرن فيها أنواع من الاستدلال أو ينتقل فيها الذهن من استدلال إلى استدلال آخر من غير اختلال في النظم، بل يُتدرّج من استدلال إلى استدلال يزيد في بيان وجوه التناسب بين أجزاء الآيات، ويزيد في حسن نظمها، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر 12]، فهذه الآية "انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السماء والأرض على تفرّد الله تعالى بالإلهية إلى الاستدلال بما على الأرض من

³⁰ المرجع نفسه، 74/14

³¹ ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 253/6

بحار وأنهار، وما في صفتها من دلالة زائدة على دلالة وجود أعيانها على عظيم مخلوقات الله تعالى، فصيغ هذا الاستدلال على أسلوب بديع، إذ اقتصر فيه على التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات، وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة، واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالاً على دقيق صنع الله تعالى... ويتضمن ذلك الاستدلال بخلق البحرين أنفسهما لأن ذكر اختلاف مذاقهما يستلزم تذكر تكوينهما.³²

والاستدلال بالأحوال في السماء والأرض على تفرّد الله تعالى بالإلهية ورد في الآيات السابقة لهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:9] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:11].

وإذا كان هذا التدرّج من استدلال إلى آخر ورد في آيات عديدة، فقد تتضمنه الآية الواحدة، وفيه دليل على أن الاستدلال رابط بين عناصر الآية الواحدة كما هو رابط بين آيات مختلفة، ومثال هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29]، فقد انتقل من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها على قدرة الله تعالى ووجوده إلى الاستدلال على ذلك بما هو أعظم من خلق الأرض وهو خلق السماوات.³³ وحصل هذا الانتقال ببديع نظم ودقيق ارتباط، حين عطف بين الاستدلاليين بحرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي، فدلّ هذا الاستدلال وهذا التدرّج في الانتقال على ما بين أجزاء الآية من تناسب وتلاؤم.

³² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 229/22

³³ المرجع نفسه، 378/1

4 - البيان

يتخذ البيان في اللغة معنى الإيضاح والإظهار والإفهام، والأصل فيه "وجود شيء مستور أو شيء به نوع من الغموض أو اللبس من جانب ما، ويأتي البيان ليكشف عنه ويجعله واضحاً وظاهراً في ذهن المتلقي".³⁴ وكذلك هي الحال في المعاني الكامنة في النفس، حيث يأتي البيان لإيضاحها وإظهارها.

وقد نشأ لدى المفسرين فهم جديد للبيان، يتخذ لنفسه موقعا نصياً تلاحمياً، يكون البيان فيه بيانا لمفهوم سبق ذكره.³⁵

ومن أوضح النماذج القرآنية التي بدا فيها البيان بشكله الترابطي التلاحمي، ما ورد في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

فقد ترتبت الجمل في الآية من غير حرف عطف، حين جاءت كل جملة منها بيانا لما ترتبت عليه كما قال الزمخشري، "والبيان متّحد بالمبين، فلو توسّط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب بين العصا ولحائها، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه، والثانية لكونه مالكا لما يدبره، والثالثة لكبرياء شأنه، والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى، والخامسة لسعة علمه وتعلّقه بالمعلومات كلّها أو لجلاله وعظم قدره".³⁶

فهذه الآية العظيمة هي برمتها بيان لذات الله تعالى ومجمل صفاته سبحانه.

³⁴ رشيد بركان، آليات ترابط النص القرآني، ص 183

³⁵ المرجع نفسه، ص 183،

³⁶ الزمخشري، الكشاف، 484، 483/1

ومن الآيات التي ذكرها ابن عاشور مشيراً إلى ترابط أجزائها وتناسبها على أساس من علاقة البيان قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 68]، قال: "وجملة (أليس في جهنم مَثْوًى للكافرين) بيان لجملة (ومن أظلم ممن افترى على الله) وتقرير لها، لأن في جملة (ومن أظلم ممن افترى على الله) إلى آخرها إيذاناً إجمالياً بجزء فظيع يترقبهم، فكان بيانه بمضمون جملة (أليس في جهنم مَثْوًى للكافرين)، وهو بألفاظه ونظمه يفيد تمكّنهم من عذاب جهنم إذ جعلت مثواهم." ³⁷

فظلمهم أوجب أن يكون مثواهم في جهنم، وقد عزّز هذا البيان ذلك التقرير الذي أفاده الاستفهام في الجملة (أليس في جهنم)، وبيان جملة لأخرى مما يزيد في ترابطهما وتلاحمهما ضمن الآية الواحدة، كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 99]، فـ "جملة: (سيدخلهم الله في رحمته) واقعة موقع البيان لجملة (إنها قربة لهم)، لأن القربة عند الله هي الدرجات العلى ورضوانه، وذلك من الرحمة، والقربة عند صلوات الرسول -صلى الله عليه وسلم- إجابة صلاته، والصلاة التي يدعو لهم طلب الرحمة، فمآل الأمرين هو إدخال الله إياهم في رحمته." ³⁸

والملاحظ أن الجملتين كليهما وردتا على سبيل التأكيد؛ فالأولى مؤكّدة بحرف التنبيه والاستفتاح (ألا) ومؤكّدة بحرف التحقيق (إن)، ثم زاد في التأكيد فقال: (سيدخلهم الله

³⁷ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 34/21

³⁸ المرجع نفسه، 15/11

في رحمته)، وإدخال حرف السين يوجب مزيد التأكيد.³⁹ فكان في هذا التأكيد مزيد بيان وتوضيح لوجه الارتباط والتناسب في هذه الآية.

وإذا كانت علاقة البيان في القرآن الكريم قد وردت بين الآيات في السورة الواحدة وفي السور المختلفة، فإن ابن عاشور اهتم كثيرا ببيان أمثلة النوع الأول، ولعل سبب هذا الاهتمام هو كثرتها؛ فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من آيتين إحداهما بيان لما جاء في الأخرى، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرَ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: 15-16]، حيث ذكر ابن عاشور أن هذه الآية هي بيان لما كان قد أجمل في آية: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: 5].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: 105] وما بعده، فهو بيان وتفصيل لعظمة ذلك اليوم الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: 103].

ويتبين مما سبق أن البيان أحد أهم العلاقات التي تربط الجمل والتراكيب بما يجعل أجزائها متناسبة ومتناسقة.

وخلاصة القول: إن التناسب بوصفه علاقة ترابطية تلاحمية يظهر من خلال آليات كثيرة ومختلفة منها: التعليل والتذييل والاستدلال والبيان، فهذه العلاقات تبرز أوجه التناسب فيما بين أجزاء النص القرآني وتؤكد ارتباط عناصره.

ثالثا: ترتيب أجزاء الخطاب

يعتمد ترتيب أجزاء النص على علاقة تربط فيما بينها، ويتجلى من خلالها فهم المعنى المقصود للنص، ولقد أشار العلماء إلى أن السر في إعجاز القرآن الكريم يكمن في ترتيبه،

³⁹ ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب 171/16

قال الزمخشري: "القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب".¹ وهو ما ذهب إليه ابن عاشور حين أورد ما نقله الرازي عن الأصفهاني من قوله: "إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته".² آياته.

فالترتيب ركن من أركان الإعجاز القرآني يكشف سر العلاقات النظامية في توالي أجزاء النص القرآني وتلاحمها.

ولقد وقف ابن عاشور عند كثير من المواضع أبان من خلالها عن تناسب عناصر الخطاب القرآني بالنظر إلى ترتيبها على وجه بعينه، ومن الأمثلة على ذلك، ما ذكره في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104].

قال ابن عاشور: "ومناسبة نزول هاته الآية عقب الآيات المتقدمة في السحر وما نشأ عن ذمه، أن السحر كما قدّمنا راجع إلى التمويه، وأن من ضروب السحر ما هو تمويه ألفاظ، وما مبناه على اعتقاد تأثير الألفاظ في المسحور بحسب نيّة الساحر وتوجّهه النفسي إلى المسحور، وقد تأصل هذا عند اليهود واقتنعوا به في مقاومة أعدائهم، ولما كان أذى الشخص بقول أو فعل لا يعلم مغزاهما لخطابه بلفظ يفيد معنى ومقصود المتكلم منه أذى أو كإهانة صورته أو الوطء على ظله، كل ذلك راجع إلى الاكتفاء بالنية والتوجه في حصول الأذى، كان هذا شبيها ببعض ضروب السحر، ولذلك كان من شعار من استهواهم السحر واشتروه، فناسب ذكر هاته الحالة من أحوالهم عقب الكلام على افتتانهم

¹ الزمخشري، الكشاف 221/1

² ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 137/7

بالسحر وحبّه دون بقيّة ما تقدّم من أحوالهم، وهاته المناسبة هي موجب التعقيب في الذكر.¹

ونلاحظ من هذا المثال أن علاقة الترتيب بين أجزائه هي علاقة انتقال من العام إلى الخاصّ، فالعامّ هو السحر، والخاصّ هو التمويه بالألفاظ، وهو نوع من علاقات الترتيب والتناسب بين تلك التراكيب والآيات.

وقد يكون الترتيب انتقالا من الخاص إلى العام كما في سورة الحجر، في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: 22، 23].

قال ابن عاشور: "لما جرى ذكر إنزال المطر، وكان مما يسبق إلى الأذهان عند ذكر المطر إحياء الأرض به، ناسب أن يذكر بعده جنس الإحياء كلّ لما فيه من غرض الاستدلال على الغافلين عن الوجدانية، ولأن فيه دليلا على إمكان البعث، والمقصود ذكر الإحياء ولذلك قدّم."²

فالخاصّ هو إحياء الأرض، والعام هو جنس الإحياء، والغرض من هذا الترتيب هو الاستدلال بحصول الإحياء والإماتة على وجود الإله القادر.³

ومن بديع ترتيب الآيات وتناسب أجزائها ما يتعلق بترتيب القصص، حيث إن خاصيّة الترتيب النصّي تبدو أكثر في القصص القرآني، فالقرآن الكريم كثيرا ما يعتمد إلى تجزيء القصص وتكراره وترتيبه ترتيبا ليس بحسب الوقوع دوما، ولكن بما يوافق الغرض المقصود من السياق وبما يجعل التناسب بين أجزاء النص قائما.

من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64].

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 1/650

² المرجع نفسه، 14/39

³ ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 19/181

حيث بدأ بذكر الإنجاء ثم تلاه بذكر الإغراق، وفيه إشارة إلى أن الإنجاء أهم عند الله تعالى من إغراق المكذّبين، كما أن التعجيل بالمسرّة أنفع للسامعين، قال ابن عاشور "وقدّم الإخبار بالإنجاء على الأخبار بالإغراق مع أن مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين، فقدّم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين وتعجيلاً لمسرّة السامعين من المؤمنين بأن عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجي الرسول والمؤمنين، فذلك التقديم يفيد التعريض بالندارة، وإلا فإن الإغراق وقع قبل الإنجاء، إذ لا يظهر تحقّق إنجاء نوح ومن معه إلا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به، فالمعقّب به التكذيب ابتداء هو الإغراق، والإنجاء واقع بعده، وليتأتّى هذا التقديم عطف فعل الإنجاء بالواو المفيدة لمطلق الجمع دون الفاء."¹

فهذا الترتيب لم يكن اعتباطاً، ولكنه حقّق وجهها من التلاحم والتناسب يسير باتجاه الغرض المقصود الذي لا يتحقّق بالترتيب الأصلي.

وقريب مما سبق ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149].

فإنّ "مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخّر قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ عن قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: 150].

لأنهم ما سقط في أيديهم إلا بعد أن رجع موسى ورأوا فرط غضبه وسمعوا توبيخه أخاه وإياهم، وإنما خولف مقتضى الترتيب تعجيلاً بذكر ما كان لا تأخذهم العجل من عاقبة الندامة وتبيّن الضلالة، وموعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التحوّل عن سنّتهم، حتى يتبيّنوا عواقب ما هم متحوّلون إليه."²

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 197/8

² المرجع نفسه، 111/9

وإذا كان التناسب النصي يتحقق بترتيب أجزاء الخطاب بما يخالف مقتضى الظاهر، فإن هذا التناسب يكون أشدّ تحقّقاً إذا وافق الترتيب النصي الترتيب الوجودي؛ بأ تترتب أجزاء النص حسب الحصول والمفهوم في الوجود.

من ذلك قوله تعالى على لسان آدم وحواء: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، فهذا "مّا حصل عند ذوق الشجرة، وقد رتب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشجرة على حسب ترتيب حصولها في الوجود، فإنهما بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان، وأعقب ذلك نداء الله إياهما".¹

ومنه أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾ [الواقعة: 51-52]، قال ابن عاشور: "قدّم وصف (الضالون) على وصف (المكذبون) مراعاة لترتيب الحصول لأنهم ضلوا عن الحق فكذبوا بالبعث".²

ومن ذلك أيضا ما جاء من التناسب بين ترتيب الفواصل وبين ترتيب الأحداث كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ﴾ [الدخان: 21].

فـ "قد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مراعاة ما يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم؛ إذ ابتداءً بإبلاغ ما أرسل به إليهم فأنس منهم التعجب والتردد، فقال (إني لكم رسول أمين)، فرأى منهم الصلف والأنفة فقال: (وأن لا تعلوا على الله) فلم يرفعوا فقال: (إني آتيكم بسُلطان مبین)، فلاححت عليهم علامات إضمار

¹ المرجع نفسه، 65/8

² المرجع نفسه، 309/27

السوء له فقال: (وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون)، فكان هذا الترتيب بين الجمل مغنيا عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز.¹

ومما تقدّم يتبيّن لنا أن معايير ترتيب أجزاء الخطاب القرآني كثيرة، وأنها تختلف باختلاف السياق، وهذه المعايير والظواهر هي عناصر تسهم في ترابط النص وتناسقه وتناسب أجزائه.

وكما ينتج تماسك النص من ارتباط جزء بجزء آخر بترتيب معيّن، فإنه ينتج أيضا من ارتباط جزء بآخر استدعيه عناصر أخرى غير علاقة الترتيب التي تظهر من خلال السياق، ومن ذلك: الترابط النصّي الذي يستدعيه ردّ العجز على الصدر كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:116].

فنجد "هذا قويّ الاتصال بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ﴾ [هود:102]، فيجوز أن يكون تفريعا عليه ويكون ما بينهما اعتراضا دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة، والمعنى: فهلا كان في تلك الأمم أصحاب بقية من خير فنهوا قومهم عن الفساد لما حلّ بهم ما حلّ، وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر، ويجوز أن يكون تفريعا على قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود:112]، والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا... كأنه قيل:... فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم، وكونوا مستقيمين ولا تطغوا ولا تركنوا إلى الظالمين، وأقيموا الصلاة، فغيّر نظم الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية لتفنّن فوائده ودقائقه واستقلال أغراضه مع كونها آيلة إلى غرض

¹ المرجع نفسه، 294/25

يعمّها، وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كردّ العجز على الصدر من غير تكلف ولا ظهور قصد.¹

ومن ذلك أيضا ردّ العجز على الصدر في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]، فهذه الآية مرتبطة بجملة ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ [يوسف: 102] ارتباط العجز بالصدر.² وهو ما يدل على اتساق الخطاب وتماسكه.

وقريب من ظاهرة ردّ العجز على الصدر أن يرد في الخطاب جزء معطوف على جميع ما تقدّمه من أجزاء أو يشير إليه، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، قال ابن عاشور: "عطفت هذه الجملة على جميع ما تقدّم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حُكما وعلمًا، وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة -محمد صلى الله عليه وسلم- ومزيّتها على سائر الشرائع مزيّة تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين، فهذه الجملة عطفت على جملة (وجعلناها وابنها آية للعالمين) [الأنبياء: 91]، ختامًا لمناقب الأنبياء وما بينهما اعتراض واستطراد.³

ومن النوع الآخر الذي يشير فيه جزء من الخطاب إلى ما سبقه قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: 52]، ففي هذه الآية إشارة إلى الكلام السابق في السورة. "ومن أين ابتدئ في هذا الكلام أصيب مراد الإشارة، والأحسن أن يكون للسورة كلها."⁴

¹ المرجع نفسه، 182/12

² المرجع نفسه، 60/13

³ المرجع نفسه، 164/17

⁴ المرجع نفسه، 254/13

وهذه الظاهرة تتكرر في توجيه ابن عاشور لآية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِبِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 250-251].

قال ابن عاشور: "ذُيِّلَت هذه الآية العظيمة كل الوقائع العجيبة التي أشارت بها الآيات السالفة لتدفع عن السامع المتبصّر ما يخامر من تطلّب الحكمة من حدثان هذه الوقائع وأمثالها في هذا العالم، ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان وحكمة من حكم التاريخ ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية".¹

فهذه العناصر كما رأينا تدل دلالة واضحة على أن بين أجزاء القرآن الكريم تناسبا وتلاؤما تفسّره وجوه الارتباط بينها، مما يؤكّد تماسكها وتناسقها، وفي المبحث الأخير الآتي نماذج تحلّي هذا التماسك والتناسب في ما بين السور.

رابعا: تناسب السور

يعد تناسب السور من أبرز مظاهر التناسب النصي في القرآن الكريم، ويرتبط عند علماء التفسير بوحدة السورة القرآنية، وقد توقّف ابن عاشور عند كثير من مظاهر التناسب التي تجمع بين أجزاء السورة لإثبات وحدتها، كالتناسب بين مطلع السورة وغرضها، والتناسب بين مطلعها وخاتمتها، والتناسب بين السورتين المتواليين في المصحف.

1 - التناسب بين مطلع السورة وموضوعها

أورد ابن عاشور كثيرا من الأمثلة القرآنية التي تتضمّن ابتداء السورة بما يشير إلى موضوعها والغرض المقصود منها، ومن أوضح الأمثلة عن هذا النوع من التناسب ما ورد

¹ المرجع نفسه، 495/2

في سورة النساء التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 01].

قال ابن عاشور: "وفي هذه الصلة براعة استهلال لما اشتملت عليه السورة من الأغراض الأصلية فكانت بمنزلة الديباجة".¹ فلقد تضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس وهي نوعان، مخلوقة لله، ومقدرة لهم، كالنسب والصهر، وتضمنت أحكام النساء والميراث بالتفصيل.² فظهر بذلك وجه التناسب بين الافتتاح والغرض المقصود من السورة.

ومن نماذج التناسب بين مطلع السورة ومقاصدها سورة الأعراف، حيث ورد فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

فلقد جاءت أغراض هذه السورة متناسبة متماسكة؛ "فإنها ابتدئت بذكر القرآن والأمر بإتباعه، ونبذ ما يصد عنه، وهو اتباع الشرك، ثم التذكير بالأمر التي أعرضت عن طاعة رسل الله، ثم الاستدلال على وحدانية الله، والامتنان بخلق الأرض والتمكين منها، وبخلق أصل البشر وخلقهم، وخلل ذلك بالتذكير بعداوة الشيطان لأصل البشر وللبشر في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]، وانتقل من ذلك إلى التنديد على المشركين فيما اتبعوا فيه تسويل الشيطان من قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: 35]، وبأن المشركين ظلموا بنكث العهد بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: 37]، وتوعدهم وذكرهم أحوال الآخرة، وعقب ذلك عاد إلى ذكر القرآن بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

¹ المرجع نفسه، 214/4

² ينظر: أحمد أبو زيد، التناسب البياني، ص 60،

أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴿[الأعراف:52]، وأنهاء بالتذليل بقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:53].

فلا جرم تهيأت الأسماع والقلوب لتلقي الحجّة على أن الله إله واحد، وأن آلهة المشركين ضلال وباطل، ثم لبيان عظيم قدرته ومجده، فلذلك استؤنف بجملة (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ) استئنفا ابتدائيا عاد به التذكير إلى صدر السورة في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:3]، فكان ما في صدر هذه السورة بمترلة المطلوب المنطقي، وكان ما بعده بمترلة البرهان، وكان قوله: (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ) بمترلة النتيجة للبرهان، والنتيجة مساوية للمطلوب، إلا أنها تؤخذ أوضح وأشدّ تفصيلا.¹

وبهذا التفصيل الذي بسط ابن عاشور القول فيه يتبين وجه التناسب بين فاتحة السورة وغرضها ومضمونها ويظهر وجه تماسك أجزائها وحسن التمامها واتساقها.

ومن نماذج التناسب بين مطلع السورة وغرضها ما افتتحت به سورة الجمعة من قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة:1]، فقد ذكر ابن عاشور أن بين فاتحة هذه السورة وغرضها تناسبا بديعا، فقال: "افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال، لأن الغرض الأوّل من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها، وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصا على الابتعاد من غير وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة."²

وبالنظر إلى افتتاح السورة بالتسبيح فإن ذلك وثيق الصلة بموضوع الصلاة؛ فهذه الصلاة هي أعظم تسبيح يفعله العاقل في أيام الأسبوع، وذلك بالإسراع بالاجتماع العظيم

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 170/8

² المرجع نفسه، 206/28

في يوم الجمعة الذي يناظر الاجتماع لإجابة المنادي يوم الجمع الأكبر، ثم الإقبال الأعظم بفعل صلاة الجمعة التي هي سر اليوم الذي ضيَّعه اليهود.¹

وهكذا فإن التناسب بين فواتح السور وأغراضها حقيقة ثابتة في القرآن الكريم تكشف عن وجوه من إعجازه وبديع أسرارهِ ولطيف ترتيبه الذي يوحي بمعان تستوعب السورة بجميع أغراضها ومقاصدها.

2 - التناسب بين مطلع السورة وختامها

تدل الأمثلة التي ساقها ابن عاشور في هذا الباب على عنايته الواضحة بتقسيم السورة إلى ثلاث وحدات: الفاتحة والوسط والخاتمة، كما تدل على حرصه على بيان ما بينها من علاقات تربط بين المعاني، وهذا انطلاقاً من أن تنظيم الكلام وترتيبه لا يكون إلا لاعتبارات محدّدة؛ لأن "الكلم ترتّب في النطق بسبب ترتّب معانيها في النفس، وأنها لو حلت من معانيها حتى تتجرّد أصواتا وأصداً حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك."²

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن عاشور في هذا النوع ما جاء في آخر سورة يوسف في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ يَوْمُنُونَ﴾ [يوسف: 111]. فإنّ "هذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة، نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضاً بالنضر بن الحارث وأضرابه."³

¹ ينظر: البقاعي، نظم الدرر، 13/9

² الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 56

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 71/13

كما أن آخر هذه السورة تنبيه على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة.¹ فجاءت هذه العبارة تذكّر بهذا المعنى وتؤكد وتبرزه وهي بعد ذلك تثبت التناسب والتناسق بين خاتمة السورة وبين مطلعها.

ومن نماذج التناسب بين خاتمة السورة ومطلعها ما ختمت به سورة القيامة، من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيِّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: 37-40]، "فإن السورة افتتحت بإنكار أن يحسب المشركون استحالة البعث، وتسلسل الكلام في ذلك بأفانين من الإثبات والتهديد والتشريط والاستدلال، إلى أن أفضى إلى استنتاج أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وهو المطلوب الذي قدّم في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 3-4]، وبذلك "رجع آخر السورة على أولها أتم رجوع، والتأم به أتم التمام، فتمّت معانيها أعظم تمام، بجمع العظام وإيجاد القيام ليوم التغابن والزحام".²

وقد يكون وسط السورة هو ما يحرك المعاني المحملة في الافتتاح تماما مثل الخاتمة فيتحقق بذلك وجه من وجوه التناسب الذي يحكم الربط والاتساق بينهما، من ذلك ما جاء في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 35-36]، فإن "هذه الآية والتي بعدها متصّلتا المعنى بمضمون قوله تعالى في أول السورة (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) [الأعراف: 4] اتصال التفصيل بإجماله أكد به تحذيرهم من كيد الشيطان وفتونه، وأراهم به مناهج الرشd التي تعين على تحبب كيده، بدعوة الرسل إياهم

¹ ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 230/18

² البقاعي، نظم الدرر، 272/9

إلى التقوى والإصلاح، كما أشار إليه بقوله في الخطاب السابق: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وأنبأهم بأن الشيطان توعد نوع الإنسان فيما حكى الله في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16] الآية.¹

ومن أمثلة التناسب بين وسط السورة وأولها قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 94]، فهذه الآية ما هي إلا تبيين لقوله تعالى في صدر السورة (غير محلي الصيد وأنتم حرم) [المائدة: 1]، وتخلصاً لحكم قتل الصيد في حالة الإحرام.²

هذه التناسبات بين مطالع السور ومقاصدها وخواتمها تدل دلالة بيّنة على كمال حال القرآن وإعجازه وارتباط أجزائه واتساقها، وملاءمة بعضها لبعض.

3 - التناسب بين السور المتوالية

التناسب بين السور المتوالية من أبرز الأدلة على اتصال النص القرآني واتساقه، فـ"البسمة الفاصلة بين كل سورة وأخرى ليست حائلاً دون التقاء المعاني، بل هي حافز على ملاحظة وجوه الاتصال بين أغراض السور."³

غير أن الملاحظ على تفسير التحرير والتنوير أن ابن عاشور لم يستفص في الحديث عن هذا اللون من التناسب بين السور المتوالية في المصحف، بل اقتصرته إشارته إلى الظاهرة على موضعين، الأول في حديثه عن ترتيب سورتي العلق والقدر، حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 01]، "ومن تسديد ترتيب المصحف أن

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 106/8

² المرجع نفسه، 37/7

³ منال مبطي حامد المسعودي، التناسب في تفسير الإمام الرازي، دراسة في أسرار الاقتران، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 1431هـ/2010م، ص293،

وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها، كأنه إيماء إلى أن الضمير في (أنزلناه) يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله بسورة العلق.¹

أما الموضع الآخر فهو في حديثه عن وجه ترتيب سورة (قريش) بعد سورة (الفيل) عند قوله تعالى: ﴿لَا يَلَا ف قريش﴾ [قريش: 01]، فذكر أن الفراء وابن إسحاق جوّزا أن يكون (لَا يَلَا ف قريش) متعلّقا بما في سورة (الفيل) من قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: 5]، وأنّ الزمخشري جعله بمثّلة التضمين في الشعر؛ وهو أن يتعلّق معنى البيت بالذي قبله تعلّقا لا يصحّ إلا به، فكما تلحق الآية بآية نزلت قبلها تلحق آيات هي سورة، فتتعلّق بسورة نزلت قبلها.²

ويمكن ربط عدم استفادة ابن عاشور في الحديث عن تناسب السور المتوالية في المصحف بما ذكره بعض الباحثين من أن "هذا النوع من الإبانة لا تتصوّرهُ العقول في كلام البشر، ولا تدركهُ الأفهام في القرآن إلا بعد المحاولة والمزاولة".³ ونخلص إلى أن التعالق بين السور بعضها ببعض حقيقة ثابتة في القرآن الكريم، أشار إليه غير واحد من علماء التفسير، وهذا التعالق فيما بينها يجعل القرآن الكريم كالسورة الواحدة يراعى فيها اتّساق العناصر واثتلاف الأغراض.

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 456/30

² المرجع نفسه، 554/30

³ منال مبطي، التناسب في تفسير الرازي، ص 293،

خاتمة

بعد هذه الفصول والمباحث التي حاولت استكناه موضوع التناسب السياقي في القرآن الكريم وتحليلاته في تفسير التحرير والتنوير يمكننا إثبات النتائج الآتية:

● التناسب السياقي في الكلام هو توافق الأصوات والألفاظ والتراكيب الواردة ضمن سياق معيّن وانسجامها وموافقتها لذلك السياق وما يتّصل به من مقاصد وأغراض، بوجه من أوجه التناسب الصوتي أو الصرفي أو المعجمي أو التركيبي أو النصّي.

● أجمع علماء الإعجاز على أن التناسب هو أساس إعجاز القرآن، ومع تنوّع اهتمامهم به لم يخرج هذا الاهتمام عن دائرة ملاحظة التناسب بين الألفاظ والتراكيب والمعاني والمقامات التي ترد فيها، وتمثّل العلاقات وجوها شتى من التناسب بين الآيات والصور وأجزاء الخطاب القرآني كلّ، في مختلف المستويات الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والنصّية.

■ التناسب الصوتي هو ذلك الانسجام الذي يحصل بين الأصوات بعضها مع بعض، أو بينها وبين السياق الواردة فيه والمعنى الذي تعبّر عنه، ويعدّ توزيع الحركات وتأليف الأصوات في النظم القرآني من أكبر الشواهد على التناسب الصوتي المعجز للقرآن الكريم، وإذا كان من علامات الفصاحة وقوة البيان عند العرب مراعاة التشاكل والتناسب بين الألفاظ والعبارات في الكلام، فإن القرآن الكريم هو المثل الأعلى لهذه الفصاحة التي تقوم على التلاؤم والتناسب الصوتي بين الألفاظ مقرونا بحسن الإتيان وجمال الأداء.

● عرف القدماء ظواهر التناسب الصوتي وتناولوها ضمن عدة مباحث ومصطلحات كاجتناب التنافر والمشاكلة والتجنيس والإتيان والفواصل والتوازن والسجع والترصيع وغيرها، وقد احتفى بعض الدارسين المحدثين بظواهر التناسب والانسجام الصوتي في الأسلوب القرآني فاستكملوا بذلك بعض القصور الذي بدا لدى القدماء من المفسّرين وعلماء البيان الذين قدّموا التركيب والتأليف والعلاقات على ذات الكلمات والأصوات.

● اهتم ابن عاشور بتحليل الظواهر الصوتية من خلال مباحث عديدة كالفاصلة والجناس والمشاكلة والاتزان، ويدل اهتمامه ببحث هذه الظواهر في تفسيره على إدراك منه لقيمتها في إكساب النص سمات تؤكد تناسبه وتبرز إعجازه.

● وقد حظيت الفاصلة باهتمام خاص من قبل ابن عاشور، وهو اهتمام يعكس في ما يبدو قناعة لديه بأن الجانب الصوتي هو من المحاور الأساسية في النظم القرآني، وقد ظهر لنا من خلال تفسير التحرير والتنوير أن التناسب الصوتي للفاصلة قد يكون مقصوراً على الجانب الصوتي، وقد يقرن بالإشارة إلى التناسب المعنوي.

● التناسب الصرفي هو التوافق بين البنية الصرفية للكلمة والسياق الذي ترد فيه؛ وكل تغيير يمسّ أصوات الكلمة الواحدة حذفاً أو زيادة أو إبدالاً أو قلباً أو غير ذلك يصحبه تغيير في المعنى، وهذا التغيير في أصوات الكلمة يتعلّق بالناحية الشكلية لبنيتها، ولكنه في النظم القرآني خاصّة ذو علاقة وثيقة بالسياق ومقاصد الخطاب.

● للقرآن الكريم منهج خاص ومتميّز في استعمال الصيغ والعناصر الصرفية، ينبئ عن نظام دقيق في استخدامها بما يتناسب والأغراض التي سيقّت لها، والمعاني التي وردت لتدلّ عليها، ولذلك فإن اختلاف التراكيب القرآنية من حيث الصيغة لا يمكن أن يعلّل من دون النظر إلى السياق الذي وردت فيه، وملاحظة القرائن المتقدّمة والمتأخّرة، فهذه التراكيب تأتي مناسبة لسياقها أشدّ التناسب.

● وقد حفل تفسير ابن عاشور بنماذج عديدة تتعلّق بظواهر التناسب الصرفي، وكثيراً ما يشير صاحب التحرير والتنوير في عرضه لها إلى الفرق بين استعمال اللفظ بصيغة معيّنة في موضع، واستعمال الصيغة البديلة في موضع آخر، ويستنتج من النماذج التي تناوّلها بالتحليل أن الصيغ اسمية كانت أو فعلية تختار في النظم القرآني بحسب ما يتطلبه السياق الذي تستعمل فيه، وكذلك هو الشأن في التعريف والتنكير واستخدام الصيغة العددية للفظ، واستعمال الضمائر والخروج بها من صنف إلى صنف، فكّلها تحولات واستعمالات

تكسب الأسلوب القرآني خصوصية تعزّز تماسك نسيجه وانسجام نظمه وتناسب عناصره.

● التناسب المعجمي في القرآن الكريم هو استعمال القرآن الكريم لكلمة بعينها دون غيرها من نظائرها ومرادفاتها في موضعها الأدقّ الأنسب لها من الآية أو السورة أو السياق عموماً، وعلى الرغم مما يبدو من تقارب دلالي بين كثير من الكلمات، فإن البيان القرآني يأتي مثبتاً التفاوت، ومتجاوزاً بالكلمة مفهومها المعجمي العامّ من خلال تخصيص كل كلمة بموضعها الأنسب بها دون غيرها من مثيلاتها أو مرادفاتها.

● الفاصلة من الكلمات التي كثيراً ما يقع الاختلاف في استعمالها بين الآيات المتشابهة في السورة الواحدة أو في السور المختلفة، حيث تختم الآية بلفظ، وتختتم نظيرتها بلفظ آخر مختلف، سواء أكان هذا اللفظ فعلاً أم اسماً، وإذا كان الانسجام الموسيقي أو الصوتي ممّا قد يؤثر في نوع الألفاظ الفواصل، فإن السياق يفسّر الاختلاف بين هذه الألفاظ على نحو تتكشف معه أسرار التناسب والانسجام بينها وبين سياقاتها، فهي ترتبط بسياقها وتناسب مع المعنى الذي تتضمنه، وهو تناسب مطّرد في القرآن الكريم، ولذلك فإن كل تغيير مفترض للفاصلة من شأنه أن يخل بالمعنى ويفسد النظم.

● ويطالعنا ابن عاشور في تفسيره بملاحظات دقيقة وعميقة تتعلق بالفروق اللغوية بين الحروف أو بين الألفاظ من خلال النماذج التي أوردها عند تحليله لبعض الآيات القرآنية، ونستشفّ منها استحالة استخدام أحد اللفظين مكان الآخر، وذلك بالنظر إلى أن سياق كل لفظ يختلف عن الآخر، وكل لفظ مستقلّ بمعناه، ولا يمكن أن يؤدّي معناه بلفظ آخر ولو بدا مرادفاً له، ويشمل هذا الحكم الأفعال والأسماء والحروف.

● وقد عني ابن عاشور بتوجيه اختيار الأفعال بالمقارنة بين الفعل وبين مرادفه من حيث تضمّن أحدهما معنى الآخر، أو من حيث تضمّن معنى المبالغة والتوكيد، والإشارة إلى اختصاص كلّ فعل بالمعنى الذي سيق له، أو بيان كون علة اختيار الفعل طلب

المشاكلة بينه وبين فعل آخر في السياق نفسه، وكذلك شأن الأسماء، فهي تختار في النظم القرآني لتناسب سياقها الواردة فيه.

● تستعمل الفواصل في القرآن الكريم بدقة بالغة، فتأتي في مواضعها متمكنة مناسبة لسياقها أشد مناسبة، وقد أورد ابن عاشور تحليلات لنماذج كثيرة في هذا الشأن يستخلص منها أن التناسب بين الفواصل وسياقاتها من أظهر وجوه التناسب في القرآن الكريم، وأن الفاصلة –ومع كونها أبرز أجزاء الآية القرآنية– تجمع بين الصياغة البديعة والمعنى الدقيق، وأن ألفاظ الفواصل في النظم القرآنية لم تختار إلا لأنها الأنسب في سياقاتها والأليق في مواضعها والأوفق في نسقها.

● التناسب التركيبي هو اختيار أنسب التراكيب ضمن السياق، وعلى ذلك مدار نظرية النظم، إذ النظم هو اختيار نمط التركيب الذي يحقق مطلب التناسب، ويكون ذلك بالمواءمة بين قوانين النحو وغرض المتكلم وحال السامع وعناصر السياق المختلفة، ويتجلى التناسب التركيبي في القرآن الكريم من خلال مقارنة التراكيب القرآنية المتشابهة التي تختلف أحوالها تقديمًا وتأخيرًا وحذفًا وذكرًا وفصلاً ووصلاً بحسب ما يتطلبه السياق.

● يرتبط التقديم والتأخير ارتباطاً وثيقاً بالسياق، فتقديم لفظ –أو مجموعة ألفاظ– في موضع وتأخيره في موضع آخر لا يأتي إلا لغرض في الكلام يحقق مبدأ التناسب السياقي، وهذا الغرض تدلّ عليه قرائن قد تكون مقالية تمثل السياق اللغوي، أو تكون قرائن حالية تمثل سياق الحال أو المقام.

● الحذف والذكر من الظواهر التي يتجلى فيها أثر السياق بوضوح، فحذف جزء من الخطاب من سياق وذكره في سياق مشابه لا يكون إلا محققاً لوجه من أوجه التناسب بين هيئة التركيب ونسق السياق، سواء أكان العنصر المحذوف حرفاً، أم كلمة، أم شبه جملة، أم جملة.

● وقد اهتم ابن عاشور ببيان أوجه التناسب في استعمال التراكيب مستندا في ذلك إلى السياق ومقتضياته. ومن أهم مباحث التناسب التركيبي التي عالجها: التقديم والتأخير والحذف والزيادة، وترتيب المتعاطفين والمتضادين، وترتيب الجمل، وهو يلجأ إلى استحضر السياق وما يتضمّنه من قرائن ليبين أن الظواهر والتحويلات التركيبية في القرآن الكريم تخضع لمبدأ التناسب السياقي، بما يؤكّد الترابط والانسجام والتآلف بين عناصر النظم القرآني.

● ذهب المفسرون وعلماء البيان إلى تلمّس مظاهر التناسب والانسجام من خلال البحث عن أوجه التعلّق والارتباط بين آيات القرآن وسوره ضمن ما عرف بعلم المناسبة، ولكن الاتجاه العام في بحث المناسبات لم يكّد يخرج عن ثلاثة أوجه للمناسبة هي: المناسبة بين الآيات، والمناسبة بين السور، والمناسبة بين الآيات والسور، وقد حاول العلماء من خلال هذه الأوجه الكشف عن أسرار التناسب بين الآيات والسور، وأسرار ترتيبها، وعالجوا طائفة من المباحث تدور حول ترابط النص القرآني وانسجامه وتناسب أجزائه، ولكنها لم تمتد لتشمل التناسب بمفهومه الأوسع الذي ينتظم جميع أبعاد النصّ ومكوّناته وعلاقاته الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والنصية.

● وقد وقف ابن عاشور عند كثير من مظاهر التناسب التي تجمع بين أجزاء السور، كالتناسب بين مطلع السورة وغرضها، والتناسب بين مطلعها وخاتمها، والتناسب بين السورتين المتواليّتين، وأشار في أثناء ذلك إلى كثير من أنواع العلاقات النصّية كالتعليل والتذييل والاستدلال والبيان، فهذه العلاقات تبرز تعالق النص وتلاحمه، وتؤكّد أوجه الترابط والتناسب بين أجزائه وعناصره.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم. برواية حفص عن عاصم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، 1426هـ.

1. ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي، دار القلم العربي، ط1، حلب، 1418هـ/1997م.

2. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط7، 1992م.

3. -، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط8، القاهرة، 1990م.

4. ابن الأثير ضياء الدين نصر الله، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ/1998م.

5. أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.

6. أحمد أمين إسماعيل، الإعجاز البلاغي لتحولات النظم في المتشابه من الألفاظ والتراكيب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001م.

7. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، بيروت، 2000م.

8. أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، ط2، دمشق، 1419/1999م.

9. الأستراباذي الرضي محمد بن الحسن، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1395هـ/1975م.

10. الإسكافي محمد بن عبد الله، درة التزويل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1422هـ/2001م.

11. أشواق محمد النجار، دلالة اللواصق التصريفية في اللغة العربية، دار دجلة، ط1، عمان، 2007م.

12. ابن أبي الأصبع المصري، بديع القرآن، تحقيق: حقي محمد شرف، دار نهضة مصر، ط2، القاهرة، (دت).

13. الأصفهاني حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، راجعه وقدم له: وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة (دت).
14. الأعشى، ديوان الأعشى، شرح: محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي، ط1، بيروت، 1415هـ، 1994م.
15. الألوسي شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث، بيروت، (دت).
16. أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال وأعلامها ومذاهبها، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003م.
17. الأنصاري أبو يحيى زكريا، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب، ط2، الجزائر، 1408هـ / 1988م.
18. إياد خالد الطباع، محمد الطاهر بن عاشور: علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، دار القلم، ط1، دمشق، 1426 هـ / 2005م.
19. الباقلائي أبو بكر، إعجاز القرآن، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1993م.
20. البقاعي برهان الدين بن عمر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسن، مكتبة المعارف، ط1، الرياض، 1408هـ / 1987م.
21. -، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (دت).
22. البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، (دت).
23. التبريزي الخطيب، الكافي في العروض والقوافي، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، مطبعة الخانجي، ط1، القاهرة، 1415هـ / 1994م.
24. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.
25. التهانوي محمد علي، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1996م.

26. ثعلب أبو العباس، قواعد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1417هـ/1996م.
27. الثقفى أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التزليل، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1403هـ/1982م.
28. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: درويش الجندي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1423هـ/2005م.
29. الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، بيروت، 1419هـ/1998م.
30. -، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، القاهرة، (د ت).
31. الجرجاني أبو الحسن علي بن محمد، كتاب التعريفات، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتاب العلمية، ط2، بيروت، 1424هـ/2003م.
32. الجرجاني محمد بن علي، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1423هـ/2002م.
33. ابن الجزري أبو الخير محمد، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).
34. ابن جماعة بدر الدين، كشف المعاني، في متشابه المثاني، تحقيق: محمد محمد داود، دار المنار، ط1، القاهرة، 1418هـ/1998م.
35. ابن جني عثمان أبو الفتح، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، (د ت).
36. -، سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هندراوي، دار القلم، ط1، دمشق، 1985م.
37. - المنصف، إدارة إحياء التراث القديم، ط1، القاهرة، 1373هـ/1954م.
38. حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت).

39. حسني عبد الجليل يوسف، علم القافية عند القدماء والمحدثين بين النظرية والتطبيق، مؤسسة المختار، ط1، القاهرة، (د ت).
40. الحموي ابن حجة تقي الدين، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح: عصام شعيثو، دار ومكتبة الهلال، ط1، بيروت، 1987م.
41. ابن حويلي الأخضر ميدني، المعجمية العربية في ضوء مناهج البحث اللساني والنظريات التربوية، دار هومة، الجزائر، 2010م.
42. أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت).
43. الخطابي حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ط4، القاهرة، (د ت).
44. دائرة المعارف التونسية، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، قرطاج، تونس، (د ت).
45. الرّازي محمد فخر الدين، التفسير الكبير، دار الفكر، ط1، بيروت، 1401هـ/1981م.
46. -، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: نصر الله حاجي، دار صادر، ط1، بيروت، 1424هـ/2004م.
47. الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ط8، بيروت، 1424هـ/2004م.
48. -، تاريخ آداب العرب، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1427هـ/2007م.
49. رشيد برقان، آليات ترابط النص القرآني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2015.
50. ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1422هـ.
51. الرمّاني علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز

القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ط4، القاهرة، (د ت).

52. الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1408هـ/1988م.

53. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض، 1418هـ/1998م.

54. السجلماسي أبو محمد القاسم، المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، ط1، الرباط، 1401هـ/1980م.

55. السكاكي أبو يعقوب يوسف بن محمد، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحيد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1420هـ/2000م.

56. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، كتاب ناشرون، ط1، بيروت، 1431هـ/2010م.

57. سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، ط3، القاهرة، 1938م.

58. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط7، القاهرة، 1402هـ/1982م.

59. -، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، (د ت).

60. السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1425هـ/2004م.

61. -، أسرار ترتيب القرآن، تحقيق: عبد القادر عطا ومرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة، (د ت).

62. -، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار الجيل، بيروت، (د ت).

63. -، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الفكر

- العربي، بيروت، (د ت).
64. الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم الغرناطي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة، 1395هـ / 1975م.
65. الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1424هـ / 2003م.
66. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، 1403هـ / 1983م.
67. ابن طباطبا العلوي محمد أحمد، عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1426هـ / 2005م.
68. الطبراني الحافظ أبو سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ / 1995م.
69. عبد الحميد هندراوي، الإعجاز الصّرفي في القرآن، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1423هـ / 2002م.
70. عبد العظيم المطعني، دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة 1417هـ / 1986م.
71. العز بن عبد السلام بن عبد العزيز، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، المطبعة العامرة، القاهرة، 1313هـ.
72. عز الدين إسماعيل، الأسس الجماليّة في النّقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1412هـ / 1992م.
73. العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، الفروق في اللغة، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، الدار العربية للكتاب، ط6، ليبيا، 1403هـ / 1983م.
74. ابن عصفور الإشبيلي، الممتع في التصريف، تحقيق: فخر الدين قباوة، الدار العربية للكتاب، ط5، ليبيا، 1403هـ / 1983م.
75. ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: هادي حسين حمودي، دار الكتاب العربي، ط4، بيروت، 1420هـ / 1999م.

76. العلوي يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا-بيروت، 1423 هـ/ 2002 م.
77. عودة الله منيع القيسي، سرّ الإعجاز في تنوّع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، مؤسّسة الرّسالة، ط1، بيروت، 1416 هـ/ 1996 م.
78. الغالي بلقاسم، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، حياته وآثاره، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 1417 هـ/ 1996 م.
79. ابن فارس أحمد بن زكريا، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، 1993 م.
80. فاضل صالح السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، ط1، الشارقة، 1429 هـ/ 2008 م.
81. ابن قتيبة بن مسلم الدينوري، أدب الكاتب، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا-بيروت، 1423 هـ/ 2002 م.
82. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، ط1، القسطنطينية، 1302 هـ.
83. القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966 م.
84. القزويني جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: علي أبو ملح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2000 م.
85. ابن قيم الجوزية شمس الدين بن أبي بكر، بدائع الفوائد، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1422 هـ/ 2001 م.
86. - كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة الهلال، بيروت، (د ت).
87. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420 هـ/ 1999 م.
88. الكرمانى محمود بن حمزة بن نصر، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد

- القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1406هـ / 1986م.
89. ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الجيل، ط1، بيروت، 1418هـ / 1998م.
90. محسن محمد عطية، غاية الفن، دار المعارف، مصر، 1991م.
91. محمد إبراهيم شادي، إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التميز، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، (د ت).
92. محمد أسعد النادري، فقه اللغة مناهله ومسائله، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1425هـ / 2005م.
93. محمد الحبيب بن الخوجة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس، 2008م.
94. -----، صفحات من تاريخ تونس، تحقيق: حمادي الساحلي والجيلالي الحاج بن يحيى، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، (د ت).
95. محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
96. محمد عمر الصماري، النحو عند عبد القاهر الجرجاني (ضمن أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، 1998م.
97. محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، دار نهضة مصر، ط7، القاهرة، 2005.
98. محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، ط5، بيروت، 1392هـ / 1972م.
99. محمود توفيق أسعد، شذرات الذهب في البلاغة القرآنية، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 1422هـ.
100. المرزباني محمد بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1425م / 1995م.
101. مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار القلم، ط3، دمشق، 1426هـ / 2005م.

102. ممدوح عبد الرحمن الرمالي، تطور التأليف في الدرس الصرفي، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، (دت).
103. منال حامد المسعودي، التناسب في تفسير الإمام الرازي، دراسة في أسرار الاقتران، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، 1431هـ/2010م.
104. المناوي عبد الرؤوف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (دت).
105. نايف بلوز، علم الجمال، منشورات جامعة دمشق، ط5، دمشق، 1419هـ/1998م.
106. ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، ط5 دار الجليل، بيروت، 1979م.
107. ابن هشام المعافى، السيرة النبوية، دار الجليل، بيروت، 1975م.
- كتب مترجمة**
108. جيروم ستولنتر، النقد الفني، ترجمة: فؤاد زكرياء، المؤسسة العربية للدراسات، ط2، بيروت، 1981م.
109. دني هويسمان، علم الجمال، ترجمة: ظافر الحسن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دت).
110. ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، (دت).
- معاجم**
111. إميل بديع يعقوب، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1987م.
112. الجوهري إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1404هـ/1984م.
113. الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ط1، الكويت، 1419هـ/1998م.

114. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق : عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، (د ت).

115. ابن فارس أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1422 هـ / 2001 م.

116. الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1424 هـ / 2003 م.

117. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د ت).

رسائل جامعية مخطوطة

118. عبد الناصر محمد رزق، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا (أطروحة دكتوراه)، جامعة الأزهر، القاهرة، 1420 هـ / 1999 م.

119. محمد العيد رتيمة، دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 1992 م.

مقالات ومحاضرات

120. عبد الباسط عيد، علم المناسبة مدخل إلى بلاغة الخطاب، مجلة عالم الفكر، المجلد 42، العدد 3 جانفي - مارس، 2014 م.

121. فاضل صالح السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني، محاضرة أُلقيت ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، 2002 م .

مراجع أجنبية

122- Jean Dubois et autres, dictionnaire de linguistique, Larousse, paris, 1989

123- Philippe Amiel, dictionnaire du français, USBN, Paris , 1995 .

فهرس الموضوعات

مدخل: أهمية التناسب في إعز القرآن الكريم.....	1
أولاً: مفهوم التناسب السياقي.....	2
1 - التناسب في اللغة والاصطلاح.....	2
2 - السياق في اللغة والاصطلاح.....	5
3 - التناسب السياقي	7
ثانياً: التناسب مبدأً جمالي.....	8
ثالثاً: التناسب عند النقاد والبلاغيين.....	11
رابعاً: التناسب المقامي والتناسب اللفظي.....	13
1 - التناسب المقامي.....	13
124 - التناسب اللفظي.....	14
125 خامساً: التناسب وإعجاز القرآن.....	17
الباب الأول: التناسب السياقي في القرآن الكريم.....	25
الفصل الأول التناسب الصوتي.....	27
أولاً: الخصائص الصوتية للغة العربية.....	28
ثانياً: التناسب الصوتي عند القدماء.....	33
1 - اجتناب التنافر الصوتي.....	33
2 - المشاكلة والتجنيس.....	37
3 - الإتيان للمجاورة.....	40
4 - الفاصلة.....	44
ثالثاً: التناسب الصوتي عند المحدثين.....	48
1 - الرافعي.....	49
2 - سيد قطب.....	51

55.....	الفصل الثاني التناسب الصرفي
56.....	أولاً: الصرف في اللغة والاصطلاح
61.....	ثانياً: صيغة الفعل
65.....	ثالثاً: العدد
70	رابعاً: التعيين (التعريف والتنكير)
75.....	خامساً: النوع (التذكير والتأنيث)
79.....	الفصل الثالث: التناسب المعجمي
88.....	أولاً: التناسب في الأفعال
92.....	ثانياً: التناسب في الأسماء
95.....	ثالثاً: التناسب في الضمائر
98.....	رابعاً: التناسب في الفواصل
104.....	خامساً: التناسب في الحروف
111.....	الفصل الرابع: التناسب التركيبي
114.....	أولاً: التقديم والتأخير
115.....	1 - تقديم كلمة على كلمة
117.....	2 - تقديم كلمة على شبه الجملة
118.....	3 - تقديم شبه الجملة على شبه الجملة
120.....	4 - تقديم جملة على جملة
121.....	5 - سياق الحال وعناصر المقام
124.....	ثانياً: الحذف والذكر
124.....	1 - حذف حرف
129.....	2 - حذف كلمة
131.....	3 - حذف شبه الجملة

4 - حذف جملة.....	133
5 - سياق الحال وعناصر المقام.....	135
الفصل الخامس: التناسب النصي.....	140
أولاً: التناسب بين مطلع السورة وموضوعها.....	148
ثانياً: التناسب بين مطلع السورة وختامها.....	151
ثالثاً: التناسب بين السور المتوالية.....	153
الباب الثاني مستويات التناسب السياقي في تفسير ابن عاشور.....	162
تمهيد: محمد الطاهر بن عاشور وتفسير التحرير والتنوير.....	163
أولاً: محمد الطاهر بن عاشور ومؤلفاته.....	164
ثانياً: تفسير التحرير والتنوير.....	170
الفصل الأول: التناسب الصوتي.....	174
أولاً: الفاصلة.....	175
ثانياً: الجناس.....	180
ثالثاً: المشاكلة.....	185
رابعاً: الاتزان.....	193
الفصل الثاني: التناسب الصرفي.....	198
أولاً: الصيغ.....	199
1 - صيغة الفعل.....	199
أ - الصيغة غير الزمنية.....	199
ب - الصيغة الزمنية.....	202
2 - الصيغة الفعلية والصيغة الاسمية.....	206
ثانياً: التعريف والتذكير.....	210
ثالثاً: العدد.....	216

220	رابعاً: الضمائر.....
224	الفصل الثالث: التناسب المعجمي
225	أولاً: التناسب في الحروف.....
228	ثانياً: التناسب في الأفعال.....
235	ثالثاً: التناسب في الأسماء.....
241	رابعاً: التناسب في الفواصل.....
247	الفصل الرابع: التناسب التركيبي
248	أولاً: التقديم والتأخير.....
248	1 - تركيب عناصر الجملة.....
253	2 - ترتيب المتعاطفين.....
256	3 - ترتيب المتضادين.....
262	4 - ترتيب الجمل.....
267	ثانياً: الحذف والزيادة.....
267	1 - الحذف.....
270	2 - الزيادة.....
279	الفصل الخامس: التناسب النصي
280	أولاً: التناسب الموضوعي.....
280	1 - التناسب بالتوافق.....
287	2 - التناسب بالتقابل.....
289	ثالثاً: العلاقات النصية.....
290	1 - التعليل.....
292	2 - التذييل.....
295	3 - الاستدلال.....

297.....	4 - البيان
300.....	ثالثا: ترتيب أجزاء الخطاب
306.....	رابعا: تناسب السور
307.....	1 - التناسب بين مطلع السورة وموضوعها
309.....	2 - التناسب بين مطلع السورة وختامها
311.....	3 - التناسب بين السور المتوالية
313.....	خاتمة
319.....	قائمة المصادر والمراجع
330.....	فهرس الموضوعات

ملخص:

يشكل التناسب مفهوماً مركزياً ومحوراً أساسياً في مجمل الدراسات التي تناولت الخطاب القرآني قديماً وحديثاً، ومفتاحاً لدراسة بلاغته وإعجازه. والتناسب السياقي هو توافق الأصوات والألفاظ والتراكيب الواردة ضمن السياق، وموافقتها لذلك السياق وما يتصل به من مقاصد وأغراض، بوجه من أوجه التناسب. وقد تضمن تفسير ابن عاشور إشارات كثيرة إلى ظواهر التناسب ضمن السياق، وشكل التناسب السياقي ظاهرة هامة في تفسيره، وهو يتوزع على مستويات اللغة المختلفة؛ الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والنصية، ويمكن القول إن هذه المقاربة يمكن أن تكون منهجاً في دراسة الخطاب القرآني عند محمد الطاهر بن عاشور، كما يمكن أن تشكل أفقاً جديداً في دراسة الظاهرة القرآنية.

Résumé:

La proportionnalité est un concept central et central dans toutes les études traitant du discours coranique, ancien et moderne. C'est la clé de sa communication et de son miracle.

La proportionnalité contextuelle est la compatibilité des sons, des mots et des structures contenus dans leur contexte, leur accord avec ce contexte et les buts et objectifs connexes, dans une proportionnalité.

Et l'interprétation d'Ibn Ashour a été attribuée à de nombreuses références aux phénomènes de proportionnalité dans le contexte, et la forme de proportion contextuelle est un phénomène important dans son interprétation, qui est distribuée à différents niveaux de langage: vocal, morphologique, lexique, syntaxique et textuel.

On peut dire que cette approche peut être une méthode d'étude du discours coranique de Muhammad al-Tahir ibn Ashour.

Et pourrait constituer un nouvel horizon dans l'étude du phénomène coranique